جاك لو ڠوف

هل ولدت أوربا في العصر الوسيط ؟

تعريب وتقديم

د. محمد حناوي   د. يوسف نكادي

الطبعة الأولى
2015

هل ولدت أوربا
في العصر الوسيط ؟

الكتاب: هل ولدت أوربا في العصر الوسيط ؟
المؤلف: جاك لو كُوف
المعربان: محمد حناوي ويوسف نكّادي
المطبعة: مطبعة مفكر زنقة السنغال رقم 8 وجدة
الغلاف أوربا من التجزئة الى الوحدة
خريطة اليمين: الكيانات السياسية في أوربا القرن 13
خريطة اليسار: الاتحاد الأوربي
الايداع القانوني: 2015MO1212
ردمك: 978-9954-35-266-3
الطبعة الأولى 2015

اعتراف وتقدير

حلت منذ بضعة أيام الذكرى الأولى لرحيل مؤلف الكتاب المؤرخ الكبير جاك لو ڤوف الذي غادرنا يوم الثلاثاء فاتح أبريل 2014.

وكان الموت قد غيب قبل جاك لو ڤوف عددا من أقطاب البحث التاريخي في فرنسا، أمثال فرناند بروديل (ت. 1985) وجورج دوبي (ت. 1996) وببير ڤيلار (ت. 2003) وببير بوناصي (ت. 2005) وبيرنار ڭني (ت. 2010) وببير ڭوبير (ت. 2012) وروبير فوصيي (ت. 2012). ويحس المشتغل في حقل التاريخ بأن المدرسة الفرنسية تلقت صدمة قوية، خلال العقود الثلاثة المنصرمة، بغياب مؤسسيها، وأبرز أعلامها.

ولا يخفى البناء الشامخ الذي شيده المؤرخ جاك لو ڤوف بأبحاثه العديدة، الجادة والرصينة، في تاريخ أوربا الوسيط، وفي مناهج البحث التاريخي. وقد استغرق هذا البناء ما ينيف عن ستين عاما من حياته دون كلل حتى الأيام القليلة قبيل وفاته. ونتمنى أن يظل المشعل محمولا ومتقدا من قبل الأجيال التي ستستحضر دوما إرث جاك لو ڤوف، وغيره من عمالقة البحث التاريخي في فرنسا.

وأعتبر شخصيا، وزميلي يوسف نكَادي، بأن وضع هذه النسخة العربية من الكتاب بين أيدي القراء، يعد مساهمة متواضعة في تكريم الأستاذ، والباحث، جاك لو ڤوف، وعرفانا منا لما أسداه من جهد في خدمة البحث التاريخي والعلوم الإنسانية عامة.

الدكتور محمد حناوي
الرباط في 05 رجب 1436
الموافق 24 أبريل 2015

تقديم

ولد جاك لو ڭوف (Jacques Le Goff) في فاتح يناير من العام 1924، وتوفي في فاتح أبريل من عام 2014.

ينحدر من أسرة فرنسية متواضعة كانت مستقرة زمن ولادته بمدينة تولون (Toulon).

ينتمي أبوه لمدينة رين (Rennes) الواقعة شمال غرب فرنسا. كان أستاذا لمادة اللغة الأنجليزية، ثم التحق بالجبهة عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، فعمل جنديا ثم ترجمانا لحساب القوات الأمريكية. وقد عرف بكراهيته للأمريكيين وبتحفظه من المؤسسات الدينية، ومن رجال الدين، وميله لحرية المعتقد خلافا لزوجته التي تنتمي لمدينة بروڤانس (Provence)، والتي تلقت تعليما دينيا منذ صباها وظلت متمسكة بالعقيدة الكاثوليكية وممارسة للشعائر حتى وفاتها.

تلقى جاك لو ڭوف دروسه الثانوية بمدينة مرسيليا. ولكنه لم يبد استعدادا للالتزام بالمقررات المقترحة، فغادر المؤسسة الثانوية ليجتهد في تكوين نفسه بنفسه وانكب على المطالعة. واستهوته كثيرا كتب التاريخ التي أقبل عليها بشغف. ثم استطاع الالتحاق بجامعة السوربون بباريس. ومنها التحق ببراغ في إطار منحة دراسية لإعداد بحث حول نشأة وتطور جامعتها (المعروفة بجامعة شارل). فطاب له المقام بها لمدة ثلاث سنوات عاين في نهايتها انقلاب فبراير 1948 الذي استولى على إثره الشيوعيون على السلطة في تشكوسلوڤاكيا، فخلف الحدث في نفسه أثرا سيئا جعله ينفر من الشيوعية. ولكنه ظل بعد ذلك يكن الاحترام لليسار واليساريين. وقد عبر في احدى المناسبات عن تعاطفه مع الرئيس فرانسوا هولاند ودعا لدعم سياسته.

ولا غرو في ذلك، فجاك لو ڭوف، وغيره من رواد وأقطاب مدرسة الحوليات، أمثال مارك بلوك (Marc Bloch وجورج دوبي (Georges Duby) وفرنان بروديل (Fernand Braudel) تأثروا بالفكر الماركسي، وأخذوا عنه الكثير، وإن كان المقام يستدعي أيضا الإشارة إلى أن عددا من المنتمين لذات المدرسة يتحفظون

من الماركسية كروبير فوصيي (Robert Fossier)، بل منهم من يمقتها مثل كَي فوركان (Guy Fourquin).

وعلى كل، فقد تقدم جاك لو كَوف بعد 1948 للحصول على شهادة التبريز التي أهلته للالتحاق بالمدرسة الفرنسية بروما (l'Ecole française de Rome) ثم بسلك التعليم كمدرس، فعاد مجددا لمتابعة تعليمه العالي بجامعة ليل التي شرع فيها في تحضير أطروحة في التاريخ الوسيط في موضوع "المواقف من العمل خلال الفترة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر".

تمثل سنة 1960 بداية تحول في مسيرته العلمية والعملية. فخلال هذه السنة التحق بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا (l'Ecole Pratique des Hautes Etudes) كعضو، ثم كمدير أبحاث. ويبدو أنه لقي بهذه المؤسسة ما كان يصبو إليه من حرية في التفكير وظروف ملائمة للبحث والحوار مع أقطاب البحث التاريخي في فرنسا آنذاك من أمثال فرنان بروديل (Fernand Braudel) وإيمانويل لو روا لادوري (Emmanuel Le Roy Ladurie) ومارك فيرو (Marc Ferro).

ورغم أنه لم يستطع إكمال أطروحته لنيل الدكتوراه، فقد أصبح سنة 1969 عضوا مشاركا في إدارة مجلة الحوليات الشهيرة (les Annales). ثم عين سنة 1972 رئيسا للفرع السادس بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا. فعمل بشكل دؤوب على تحويل هذا الفرع إلى أبرز مؤسسة فرنسية تعنى بالبحث في التاريخ الأوربي الوسيط.، من خلال آفاق البحث الجديدة التي أقرها ضمن برامجها، وكذلك من خلال استقطاب أبرز المشتغلين في حقل التاريخ الاقتصادي والتاريخ السياسي، والمهتمين بالبحث في مجال الأنثربولوجيا التاريخية.

وتقدم مؤلفات جاك لو كَوف وأبحاثه الغزيرة والمتنوعة صورة عن طبيعة الأسرة التي نشأ في أحضانها، بين أب غير ملتزم دينيا وأم متشبثة بالعقيدة الكاثوليكية. وتعد أسرته بحق صورة مصغرة لمجتمع فرنسا خلال القرن العشرين. كما تعكس مؤلفاته وأبحاثه جانبا مما كان (ولا زال) يعتمل في أوساط النخبة المثقفة في فرنسا، ومدى تأثير الحرب والصراعات السياسية والإيديولوجية على مواقفها وتوجهاتها. وفضلا عن كل هذا وذاك، فإن أبحاثه ومؤلفاته تعكس آفاقه المعرفية الواسعة، وعدم التزامه بالبحث في مجال بعينه. فقد ألف في مجال التاريخ السياسي، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الديني، والتاريخ الاقتصادي. كما ألف في تاريخ الذهنيات ومنظومة الأفكار والقيم، وفي حقل الأنثربولوجيا التاريخية. بالإضافة إلى مجموعة مؤلفات أنجزها، أو أشرف على انجازها، تتصل بمناهج واتجاهات البحث التاريخي.

وباختصار، فقد ألف في كل مجال يتصل بالتاريخ الأوربي الوسيط. والملاحظ أنه أخذ يؤلف بغزارة أكثر من ذي قبل بعد أن تجاوز السبعين من العمر، وأصبح يعيش وحيدا بعد وفاة رفيقة حياته. وهذا ما يتضح من خلال الجرد التالي لأهم مؤلفاته.

- Faut-il vraiment découper l’histoire en tranches ?, Paris, Seuil, 2014.
- À la recherche du temps sacré, Jacques de Voragine et la Légende dorée, Paris, Perrin, 2011.
- Le Moyen Âge et l'Argent. Essai d’anthropologie historique, Paris, Perrin, 2010.
- Héros et merveilles du Moyen Âge, Paris, Seuil, 2005.
- Un long Moyen Âge, Paris, Tallandier, 2004.
- Héros du Moyen Âge, Le saint et le roi au Moyen Âge, Paris, Gallimard, 2004.
- À la recherche du Moyen Âge, Paris, Louis Audibert, 2003.
- Une histoire du corps au Moyen Âge (avec Nicolas Truong), Paris, Liana Lévi, 2003.
- Le Dieu du Moyen Age, Paris, Bayard, 2003.
- L’Europe est-elle née au Moyen Âge ?, Paris, Seuil, 2003.
- Cinq personnages d’hier pour aujourd’hui : Bouddha, Abélard, saint Fran- çois, Michelet, Bloch, Paris, La Fabrique, 2001.
- Le Sacre royal à l'époque de Saint-Louis, Paris, Gallimard, 2001.
- Dictionnaire raisonné de l'Occident médiéval (en collaboration avec Jean-Claude Schmidt), Paris, Fayard, 1999.
- Le Moyen Âge aujourd'hui, Paris, Léopard d'Or, 1998.
- Pour l'amour des villes (en collaboration avec Jean Lebrun), Paris, Textuel, 1997.
- Saint Louis, Paris, Gallimard, 1996.
- L'Homme médiéval (dir.), Paris, Seuil, 1994.
- La Vieille Europe et la nôtre, Paris, Seuil, 1994.

- Le XIII[e] siècle : l'apogée de la chrétienté, Bordas, 1992.
- Histoire de la France religieuse (dir., avec René Rémond, Paris, Seuil, 1988-1992, 4 volumes.
- L'État et les Pouvoirs, (dir.), Paris, Seuil, 1989.
- Histoire et mémoire, Paris, Gallimard, 1988.
- La bourse et la vie : Economie et religion au Moyen Age, Paris, Hachette, 1986.
- L'Imaginaire médiéval, Paris, Gallimard, 1985.
- La Naissance du purgatoire, Paris, Gallimard, 1981.
- La Nouvelle Histoire (en collaboration avec Jacques Revel), Paris, Éditions Retz, 1978.
- Pour un autre Moyen Âge, Paris, Gallimard, 1977.
- Faire de l'histoire (dir., avec Pierre Nora), Paris, Gallimard, 1974, 3 volumes.
- Les Propos de Saint Louis, Paris, Gallimard, 1974.
- La civilisation de l'Occident médiéval, Paris, Arthaud, 1964.
- Marchands et banquiers au Moyen Âge, Paris, Le Seuil, 1957

وقد وقع اختيارنا على واحد من بين هذه المؤلفات. إنه كتاب "هل ولدت أوربا في العصر الوسيط؟" الذي صدر عن دار "سوي" سنة 2003. وأعيد طبعه في نسخة ثانية من قبل ذات المؤسسة سنة 2010. وقد صدرت بموازاة طبعته الأولى، وفي نفس السنة، طبعات أخرى باللغات الأنجليزية والألمانية والايطالية والاسبانية.

وارتأينا أن نقدم هذا الكتاب للباحثين والمفكرين والفاعلين وعموم القراء العرب لثلاث اعتبارات نوضحها كما يلي :

يتمثل الاعتبار الأول في كونه يعد مجملا في تاريخ أوربا في العصر الوسيط. فهو يعرض لكثير من أحداث وقضايا هذه الحقبة التاريخية بتسلسل وبدقة ووضوح قل نظيره، رغم أن مؤلفه لا يتناول تلك الأحداث والقضايا بالتفصيل الذي ينتظره البعض، لأن همه لم يكن وضع مؤلف في تاريخ أوربا الوسيط، بقدر ما كان توضيح السياق التاريخي الذي ولدت فيه أوربا الموحدة.

ويهم هذا السياق التاريخي الباحثين وعموم القراء العرب لأن كثيرا من أحداثه وقضاياه تعني الإسلام والمسلمين من قبيل علاقات أوربا المسيحية بالعالم الإسلامي،

وفصول الحرب الصليبية في المشرق الإسلامي، وحرب الاسترداد في الأندلس، ومسألة نجاح الإقلاع في أوربا وفشله في العالم الإسلامي، ودور المد التركي العثماني في خلق هوية جماعية في أوربا.

ورغم أن معظم أحداث هذا السياق تبدوا ظاهريا غير ذات صلة بالإسلام وبالمسلمين، فالحقيقة أن آثارها همت الإسلام والمسلمين زمن حدوثها ولازالت تداعياتها مؤثرة إلى اليوم في واقع المسلمين عامة، وفي واقع العرب المعاصرين بشكل خاص.

يتمثل الاعتبار الثاني في كون متن الكتاب المؤلف لوحده من 263 صفحة (من القطع الصغير) هو محاولة للإجابة على السؤال المثبت على غلاف الكتاب : هل ولدت أوربا في العصر الوسيط ؟

ويجيب المؤلف بأن أوربا الموحدة ليست وليدة السوق الأوربية المشتركة أو التكتلات الأوربية التي قامت قبله، بل هي وليدة العصر الوسيط. فخلال هذه الحقبة الممتدة بين سنة 476، تاريخ انهيار الإمبراطورية الرومانية، وسنة 1492، تاريخ اكتشاف كريستوف كولومبوس لأمريكا، تموضعت المقومات والأسس التي قامت عليها أوربا الموحدة عبر أربعة مراحل، أو طبقات، تراكمت خلالها عناصر الوحدة والتكامل، واتضحت خلالها أيضا معالم التنوع والاختلاف. ورغم ذلك، لم يكتمل البناء الذي ظل يتأرجح بين الحقيقة النسبية والحلم الطموح نظرا لارتباطه بواقع تاريخي لم يكن دائما من السهل تجاوزه. ومن ثم، فإن رجال السياسة والاقتصاد، وجميع الفعاليات التي يهمها بناء الاتحاد الأوربي، معنية بالحصيلة التي تحققت خلال العصر الوسيط . وإن إنكارها، أو غض الطرف عنها، سيجعل البناء الحالي شبيها بمولود بئيس يتيم الأبوين.

وإذا كانت معرفة جذور الاتحاد الأوربي تعني الأوربيين أولا وأخيرا، فلا شك أنها تعني العرب كذلك إلى حد بعيد، وخاصة نحن مواطني المغرب، نظرا لوجود علاقات شراكة تربطنا بالاتحاد الأوربي، ولأن بلدنا يسعى لجعل اقتصاده مندمجا في اقتصاد أوربا، ولأن ساسته كانوا يطمحون يوما في أن ينخرط في هذا الاتحاد.

يتمثل الاعتبار الثالث في تقريب الباحثين والمفكرين وكافة الفعاليات العربية من كتاب يدعو صاحبه ساسة أوربا ورجال الاقتصاد فيها إلى ضرورة الاهتمام بحصيلة العصر الوسيط كما ذكرنا. ويشعر القارئ العربي لنسخة الكتاب الأصلية بالحسرة والمرارة حين يعلم كيف أن باحثا أوربيا يجتهد من خلال هذا الكم من الصفحات، وعبر إبحار في فترة تمتد حوالي ألف سنة، للبحث في جذور الوحدة الأوربية، وللإسهام في تقوية البناء الحالي، ونحن العرب يملك وطننا العربي الكثير

من مقومات الوحدة ولا يعمل ساستنا على تحقيق الوحدة التي ينشدها كثير من العرب. بل عشنا في ظل وحدة شاملة زمن الأمويين والعباسيين، وفي ظل وحدة جهوية زمن المرابطين والموحدين، ورغم ذلك يسعى بعضنا لاستمرار التجزئة الحالية. ولا تتردد بعض القوى العربية والأجنبية في تعطيل كل محاولة تكتل. بل تسعى جاهدة لاستشراء هذه التجزئة. فدولة السودان تولدت عنها دويلة، ودولة المغرب يريدون أن يقتطعوا منها دويلة. وثمة دول أخرى على المحك مثل العراق وليبيا وسوريا وغيرها.

ونود في ختام هذا التقديم أن ننبه الباحثين وعموم القراء بأننا فكرنا بادئ الأمر في القيام بتعريب وعرض نص الكتاب لتقريبه أكثر من عموم القراء نظرا للصعوبة التي قد يلاقيها غير المطلعين على مؤلفات في تاريخ أوربا الوسيط في استيعاب القضايا التي يتناولها، فضلا عن خلوه من هوامش توضيحية، ولكننا اكتفينا في الأخير بتعريبه فقط وإثرائه بعدد لا يستهان به من الهوامش لتحقيق الغاية المرجوة.

نأمل أن يلقى جهدنا قبولا حسنا . والله ولي التوفيق.

الدكتور يوسف نكَادي
وجدة حاضرة زيري بن عطية
في 04 جمادى الآخر 1436
الموافق 25 مارس 2015

مقدمة

بدأ اهتمام رجال السياسة وعلماء الاقتصاد في أوربا بمسألة الوحدة الأوربية في السنوات القليلة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية. وازداد تحمسهم لها بعد أن وضعت الحرب أوزارها. فشرعوا في وضع أسس الوحدة السياسية والاقتصادية.

وسرعان ما انضم المثقفون لهذه الجهود إيمانا منهم بأن الوحدة، التي تبدو في ظاهرها سياسية-اقتصادية، هي ذات أبعاد تاريخية واجتماعية ودينية وثقافية ولغوية تقتضي تضافر جهود جميع الفعاليات لتتم عملية البناء بشكل سليم.

ومن نافلة القول أن مشروعا من هذا القبيل، يستدعي حضورا مكثفا للمشتغلين بالبحث التاريخي، لسبب بسيط، وهو أن استحضار ماضي الأقطار الأوربية شرط أساسي لفهم حاضرها، وبالتالي لإنجاح الوحدة المنشودة. وهذا ما حرص المؤرخ جاك لو ڭوف (Jacques Le Goff) على التذكير به في كتابه : "هل ولدت أوربا في العصر الوسيط ؟"، حيث يرى أن انجاز هذا البناء لا يمكن أن يستكمل أشواطه إلا بأخذ **التاريخ** بعين الاعتبار. بل يذهب إلى التأكيد، منذ مقدمة الكتاب، بأن "أوربا بدون تاريخ ستكون يتيمة وبئيسة، لأن اليوم يخرج من الأمس، والغد ينبثق من الماضي".

ولا نحتاج إلى التأكيد بأن هذا الموقف يتضمن دعوة صريحة للمؤرخين للإسهام في الجهود الحثيثة التي يبذلها رجال السياسة والاقتصاد الذين ينطلقون من الحاضر ويقومون أحيانا باستشراف المستقبل. ولكنهم ليسوا على دراية بالماضي؛ الذي يعد استحضاره في عملية البناء أمرا ضروريا لتحقيق النجاح. إن رجال السياسة والاقتصاد في تعاملهم مع الحاضر، يتعاملون مع معطيات كثيرة تشكل جزءا من الحاضر ولكن أصولها تنتمي للماضي، مثل المعطى الديني والمعطى الثقافي والمعطى اللغوي. ومن ثم، نفهم لماذا يعود جاك لو ڭوف ليكرر في موضع آخر بأن "الانخراط الملتزم في عملية تشييد أوربا يجب أن يتم في إطار معرفة عميقة بالماضي ونظرة استشرافية للمستقبل".

ويتضح من خلال كتاب جاك لوكُوف بأن الماضي المراد العودة إليه يتمثل في الحقبة التاريخية المعروفة في التقويم الأوربي بالعصر الوسيط. وهي الحقبة الممتدة بين القرنين الخامس والخامس عشر للميلاد، باعتبارها الحيز الزمني الذي تنتمي إليه معظم معطيات الحاضر الأوربي. ومن هنا نفهم دلالة عنوان الكتاب الذي جاء في صيغة سؤال : "هل ولدت أوربا في العصر الوسيط ؟".

ولا شك أن تواضع جاك لو كُوف العلمي، هو الذي جعله يحتفظ بصيغة العنوان على هذا النحو، رغم أنه يقر في مقدمة الكتاب، وكذلك عبر فصوله، بأن العصر الوسيط يمثل الحيز الزمني الذي انبثقت ونشأت فيه أوربا كحقيقة وكتمثل. كما أن هذا العصر يمثل الفترة الحاسمة التي حدثت فيها ولادة وطفولة وشباب أوربا، دون أن تخطر في أذهان أفراد مجتمعات تلك الحقبة التاريخية فكرة، أو رغبة، تشييد أوربا موحدة.

والحقيقة أن جاك لو كُوف لم يعمل هنا سوى على التذكير بموقف سبق أن عبر عنه العديد من المؤرخين غداة الحرب العالمية الثانية؛ ومن بينهم البريطاني دونيس هاي (Denys Hay) والايطالي فدريكو شابود (Federico Chabod) والفرنسيين مارك بلوك (Marc Bloch) ولوسيان فيفر (Lucien Febvre). فقد نشر الأول بحثا سنة 1957 تحت عنوان : "أوربا : انبثاق فكرة". بينما صدرت للباحث الثاني دراسة سنة 1961 تحت عنوان : "تاريخ فكرة أوربا". وفي كلا البحثين تم التركيز على فكرة مفادها أن نشأة أوربا الموحدة تعود في مجملها للعصر الوسيط[1].

ويبدو في اعتقاد جاك لو كُوف بأن المؤرخين الفرنسيين مارك بلوك ولوسيان فيفر، كانا أبرز من عرض الفكرة بإسهاب ووضوح. فقد كتب مارك بلوك في هذا الصدد : "لقد انبثقت أوربا حين انهارت الإمبراطورية الرومانية". وأعاد لوسيان فيفر تناول الجملة مضيفا : "يمكن القول بالأحرى، بأن أوربا أصبحت إمكانية متاحة حين انهارت الإمبراطورية الرومانية". وكتب أيضا في الصفحة 44 من نص أول درس من سلسلة الدروس التي ألقاها "بالكوليج دو فرانس" (Collège de France)، خلال الموسم 1944-1945، في موضوع "أوربا : نشأة حضارة" ما نصه : "لقد كان

[1] - نشير الى أن مؤلف البحث الأول (البريطاني دونيس هاي) ولد سنة 1915 وتوفي سنة 1994. اهتم بالبحث في تاريخ العصر الوسيط وعصر النهضة. وحاضر في جامعة إدنبرة (Edinburgh) بإسكتلندا وجامعة فلورنسا الايطالية. وشكل موضوع وحدة أوربا واحدا من بين المواضيع التي اهتم بها. أما فدريكو شابود، فيعد من أبرز مؤرخي أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي تحمسا لفكرة الوحدة الأوربية. فقد طرحها في عدة محافل، وخصص لها المحاضرات التي ألقاها على طلبته بجامعة ميلانو خلال الموسم الجامعي 1943- 1944. وتمثل تلك المحاضرات، بالاضافة الى ما كتبه في ذات الموضوع مضمون كتاب " Storia dell'idea d'Europa" الذي صدر سنة بعد وفاته.

للمسيحية دور فعال خلال العصر الوسيط (عصر يجب جعله ممتدا إلى حدود الأزمنة الحديثة)، حيث إن تأثيرها كان يسمح بمرور تيارات قوية من الحضارة المسيحية غير

لصيقة بالأرض كانت تتجاوز الحدود الهشة للممالك الكاليدوسكوبية[1]. فأسهمت بذلك في مد الغربيين بوعي مشترك تخطى الحدود التي كانت تفصل بينهم. وإن هذا الوعي الذي كان يأخذ طابعا علمانيا شيئا فشيئا أصبح وعيا أوربيا".

تبدو وجهة نظر لوسيان فيفر واضحة ومنسجمة تمام الانسجام مع ما يروم إليه جاك لوكوف. ومع ذلك، فهو يرى أن مارك بلوك كان أبرز الذين تبنوا رؤية أوربية للعصر الوسيط. فمنذ سنة 1928، تاريخ انعقاد المؤتمر الدولي للعلوم التاريخية بأوسلو ألقى مداخلة بعنوان : "من أجل تاريخ مقارن للمجتمعات الأوربية" نشرت بمجلة التركيب التاريخي (Revue de Synthèse historique) في شهر دجنبر من نفس السنة. وعاد لتناول "مشروع تدريس التاريخ المقارن للمجتمعات الأوربية" في الكراسة التي أعدها سنة 1934 للترشح لولوج "الكوليج دو فرانس". وأهم ما جاء فيها : "إن العالم الأوربي ، بوصفه أوربيا هو من خلق العصر الوسيط الذي كاد في الوقت ذاته أن يضع حدا للوحدة النسبية للحضارة المتوسطية. وألقى في بوتقة واحدة وبشكل عشوائي شعوبا كانت مترومنة مع شعوب لم تغزوها روما أبدا. وبذلك نشأت أوربا بالمفهوم الإنساني للكلمة (...) وإن العالم الأوربي الذي تحدد على هذا النحو، ظل عرضة لتيارات مشتركة كانت تخترقه باستمرار".

ومهما يكن من أمر، فالواضح أن جاك لو كوف يبدو أكثر ميلا إلى اعتبار وجهات نظر المؤرخين الفرنسيين مارك بلوك ولوسيان فيفر الأكثر تبلورا، رغم أنه لا يصرح بذلك علنا. وكأنه بذلك يوحي للقارئ بأن موقف ساسة فرنسا (أمثال فرانسوا ميتران وجاك شيراك) المستميت عن وحدة أوربا، موقف أصيل ومتأصل مستمد من الماضي. أو بعبارة أخرى، هو موقف يندرج ضمن تقاليد فرنسا القطر الأوربي الأكثر رغبة في تحقيق وحدة أوربا؛ وهو أيضا القطر الذي يسعى ساسته، وعدد من مثقفيه، إلى المضي بهذا البناء نحو الرقي والكمال.

---

[1]- نسبة إلى الكليدوسكوب (le kaléidoscope) أي المشكال. وهو عبارة عن أنبوب جنباته من زجاج. يحتوي على قطع من زجاج مختلفة الألوان. تعكس ألوانها جنباته بفعل الضوء المسلط عليها، فتبدو ألوان قطع الزجاج على هيأة أشكال متوازية ومختلفة الألوان. ومعنى الكلمة في النص، هو أن الممالك الجرمانية التي قامت في غرب أوربا، عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية، كانت تبدو على شاكلة قطع الزجاج داخل المشكال (الكليدوسكوب).

يستخلص مما تقدم، بأن جاك لوكُوف حرص على تأكيد صلة الحاضر بالماضي، سواء على مستوى الفعل والقائمين بالفعل، أو على مستوى موضوع الفعل. بمعنى أن جهود الساسة والمفكرين حاليا هي استمرار لجهود الرواد منذ أن بدأ التفكير في مشروع الوحدة. أما الوحدة الأوربية في وضعها الراهن، فهي ذات صلة وثيقة بالماضي.

فهل ولدت أوربا حقا خلال العصر الوسيط ؟ ذلك هو السؤال المحوري الذي حاول جاك لو كُوف الإجابة عنه في حوالي 350 صفحة موزعة على توطئة، في شكل فصل، وستة فصول، مسبوقة بمقدمة ومذيلة بخلاصة عامة، بالإضافة إلى خريطتين وعرض كرونولوجي لأبرز الأحداث التي أثارها المؤلف وببليوغرافية موضوعاتية وفهرسين، أحدهما خاص بالأعلام والآخر خاص بالأماكن التي ورد ذكرها في مختلف الفصول.

وقد وردت التوطئة والفصول الستة متسلسلة على النحو الآتي :

توطئة : ما قبل العصر الوسيط

الفصل الأول : تصور أوربا (بين القرنين الرابع والثامن)

الفصل الثاني : أوربا مجهضة : العالم الكارولنجي (بين القرنين الثامن والعاشر)

الفصل الثالث : أوربا المحلوم بها وأوربا الممكنة في سنة ألف

الفصل الرابع : أوربا الفيودالية (بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر)

الفصل الخامس : أوربا الجميلة : أوربا المدن والجامعات خلال القرن الثالث عشر

الفصل السادس : خريف العصر الوسيط أم ربيع الأزمنة الجديدة؟

المقدمات الممهدات
(ما قبل العصر الوسيط)

قبل الحديث عن جذور الوحدة الأوربية خلال العصر الوسيط، يجب التنبيه الى مسألة منهجية أساسية، وهي أن تاريخ أوربا يقتضي من المؤرخ، ومن قراء ما يصدره من مؤلفات، التموضع في اطار ما يعرف بالأمد الطويل (la longue durée)[1]. وبناء عليه، فإن الباحث في أصول الوحدة الأوربية، خلال الألف سنة التي استغرقها العصر الوسيط وفق التحقيب التقليدي، يجب أن يضع نصب عينيه التركة التي ورثها هذا العصر عن العصور السابقة.

تمثل العناصر المكونة لتلك التركة ارهاصات أوربا. وقد استثمرها العصر الوسيط في وعي جماعي بإمكانيات قارية. ويبدو أن جانبا من أثر العصر الوسيط في البناء الأوربي يتمثل في تمرير كثير من مظاهر العصور السابقة. ولكن العصر الوسيط لم يكتف بالقيام بعملية تمرير بسيطة لتلك المظاهر، وإنما قام بعملية فرز لها لتغذية المستقبل الذي كان يقوم بتهيئته. ومثل هذا المؤشر يعد لوحده كافيا للدلالة على

---

[1]- مفهوم استحدثه المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل (Fernand Braudel)، واستعمله لأول مرة في أطروحته حول "البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فليب الثاني" (باريس 1949). ويختزل هذا المفهوم مقاربة جديدة في معالجة القضايا التاريخية، تهمل لحظة حدوث الحدث (السياسي والعسكري)، باعتبارها لحظة سريعة، لأن الحدث يستغرق زمنا قصيرا، وتركز على معالجة الظواهر في سياق زمن بطيئ.

أن العصر الوسيط قام بدور لا جدال فيه في تمرير كثير من مظاهر حضارة العصر القديم.

ولا بأس من التذكير، في ذات السياق، بأن البحث في حقبة ما قبل التاريخ قطع أشواطا مهمة، ورغم ذلك، من الصعب تحديد نوعية الارث الذي أخذه العصر الوسيط عن هذه الحقبة. ومن المؤكد أنه مرر بعض عناصرها. وأعتقد أن مؤهلاتي، وسياق البحث، لا يسمحان لي بتخصيص حيز لتناول هذه المسألة، ولكن هذا لا يمنع من القول بأن بعض الأحداث الكبرى التي شهدتها حقبة ما قبل التاريخ ورثها العصر الوسيط. وأعني هنا النشاط الزراعي الذي استلمه من حضارة بلاد الرافدين القديمة، والذي ظل يكتسي أهمية قصوى. وأعني أيضا النشاط الرعوي وتربية المواشي اللتان اختص بهما المجال المتوسطي. كما ورث العصر الوسيط عن حقبة ما قبل التاريخ تقنية استعمال المعادن في صنع الأدوات والأسلحة، وهي التقنية التي اكتسبتها القبائل الجرمانية ونقلتها إلى أقاليم أوربا في سياق الغارات وموجات الغزو التي قامت بها قبيل سقوط الإمبراطورية الرومانية. وقد حققت هذه التقنية تطورا ملحوظا خلال العصر الوسيط.

1) إرث حقبة ما قبل التاريخ : الجغرافيا قبل كل شيئ

شكل المجال الجغرافي إطارا لهذه الأنشطة، كما شكل الميدان الذي تفاعلت فيه مختلف الأحداث. ومن ثم، يعد أهم مكونات تركة حقبة ما قبل التاريخ.

تعد "الجغرافيا"، أي المجال، أول العناصر التي ورثها العصرالوسيط. وقد فرضت المعطيات المتصلة بها نفسها على رجال ونساء هذه الحقبة التاريخية. وتندرج تحت هذا المسمى (أي الجغرافيا) الوحدات الطبيعية والمناخ والشبكة الهيدروغرافية. فكلها كانت سابقة في وجودها على وجود أفراد مجتمع العصر الوسيط. وقد جمعت بين خاصتي التنوع والوحدة على امتداد القارة الأوربية.

ولا شك أن خاصية الوحدة أفادت في تسهيل عملية الاندماج. فامتداد السهول على نطاق واسع، ساعد على انتشار زراعة الحبوب التي حققت طفرة خلال العصر الوسيط بصفة عامة، وخلال القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر بوجه خاص. ولا زالت إلى اليوم تعتبر نشاطا متميزا في الاقتصاد الأوربي. أما الغطاء الغابوي، فكان بدوره وفيرا وممتدا في مختلف أقاليم أوربا، وإن تميز بازدواجية الدور. وقد جعل القارة الأوربية تبدو نطاقا موحشا (sauvage)، ولكنه شكل من جهة أخرى موردا حيويا، حيث أمد أفراد مجتمع العصر الوسيط بالأخشاب الضرورية للتدفئة والبناء وصناعة المراكب البحرية. كما وفر لهم ثروة حيوانية أفادتهم بألبانها

ولحومها وجلودها وفروها. وعلى غرار الغطاء الغابوي، ساهمت الشبكة الهيدروغرافية بدورها في تحقيق الاندماج. فبعد مرحلة خوف وتردد، اقتحم أفراد المجتمع غمار الأنهار الكبرى والبحار. فأفضى ذلك إلى تطوير وسائل وتقنيات الملاحة وإذكاء وتيرة التواصل. ولم يكن دور المناخ أقل تأثيرا في تسهيل الاندماج. فقد تميز في معظم أقاليم أوربا بالاعتدال، فساهم بذلك في توحيد طبائع الناس وأحاسيسهم.

2) إرث العصر القديم

تتجلى عند الحديث عن العناصر الموروثة عن العصر القديم، إحدى أهم سمات العصر الوسيط المتمثلة في كونه قام بدور الممرر بامتياز لإرث الإغريقيين والرومان. ويتضح أن أول شيء مرره للعصور الموالية هو التسمية التي لا زالت تطلق إلى اليوم على القارة وعلى سكانها. وقد تم نقل هذه التسمية عن الإغريقيين الذين كانوا يطلقون اسم "الأوربيين" على سكان أقاليم أقصى غرب القارة الأسيوية.

والى جانب التسمية، نقل العصر الوسيط عن العصر القديم بعض ملامح الصورة التي كونها الإغريقيون عن "الأوربيين" (أي سكان الأقاليم الأسيوية المشار إليها). فقد كانوا ينظرون إليهم كمجموعة بشرية مشاكسة؛ موسومة بالشجاعة وحب الحرية والميل إلى تحبيذ "الديمقراطية". في حين كانوا يعتبرون الأسيويين جنسا مثقفا، ميالا إلى الحكمة، محبا للسلم والاستقرار إلى درجة القبول بوضعية "القنانة" أو التبعية مقابل العيش في رغد واستقرار.

وقد ظلت هذه التمثلات والتصورات سارية المفعول خلال العصر الوسيط، إلى أن ورثتها الأزمنة الحديثة. بحيث أن أوربيي القرن الثامن عشر ظلوا يتبنونها. وتجلى هذا التبني في أوساط المثقفين الذين صاغوا نظرية "الاستبداد المستنير" في ضوء تلك التمثلات والتصورات. وأطلقوها على نظام سياسي ارتأوا أنه ينسحب على مجتمعات آسيا. وإن هذه التمثلات ذاتها هي التي انطلق منها أيضا كارل ماركس وأتباعه في صياغة نظرية "نمط الإنتاج الأسيوي"، الذي قالوا بأنه النظام السوسيو-اقتصادي الأكثر ملائمة لمجتمعات آسيا ومجتمعات الشرق عموما.

ويمكن القول انطلاقا مما تقدم، بأن العصر الوسيط ورث عن الإغريقيين، وعن الحضارة الإغريقية، هذا التقابل بين الغرب والشرق، بين أوربا وآسيا. كما ورث النمط الديمقراطي، واحتفظ بهذا الإرث إلى أن استلمته منه الأزمنة الحديثة والمعاصرة.

ومن المفيد التذكير بأن العصر الوسيط عمل على تفعيل مقولة التقابل بين الشرق والغرب. وذهب المجتمع في موضوعها إلى أبعد حدود؛ حيث قسم الشرق إلى مشارق. فهناك شرق أدنى قريب ينطبق على الأقاليم البيزنطية، التي كانت تجمعه بسكانها وشائج. وهناك شرق "أوسط"، يتمثل في الأقاليم الإسلامية التي دخل معها في سلسلة حروب طويلة. وهناك شرق أقصى ينسحب على أقاليم أقاصي آسيا، التي اعتبرها موطن مختلف أصناف الآفات والكوارث التي لم يسلم منها.

وإذا كان العصر الوسيط قد عمل على تفعيل مثل هذه المقولة، فقد أهمل مقولة الديمقراطية التي تخلى عنها كلية. ولم تعد لأخذ مجراها إلا بعد الثورة الفرنسية.

وعموما، فلا يمكن إنكار حضور بعض مظاهر حضارة العصر القديم خلال الفترة الممتدة بين القرنين الخامس والخامس عشر. وندعو القارئ بالمناسبة للتمييز في هذا الحضور بين أربع محطات رئيسة :

أ) تتمثل المحطة الأولى في الحضارة الإغريقية التي تواصل حضور بعض عناصرها خلال العصر الوسيط. وأهم تلك العناصر عنصر التسمية الذي تم التوقف عنده، وعنصر البطل وظاهرة الإنسية، اللذين لبسا لبوسا دينيا بحكم سيادة الفكر الديني الكنسي خلال هذه الحقبة التاريخية، وعنصر المؤسسة الدينية التي تحولت من معبد كما هو معلوم، إلى كنيسة أو كاتدرائية، وعنصر الخمر الذي تحول إلى سائل مقدس يرمز إلى دم المسيح، وكذلك إلى مشروب أرستقراطي بامتياز، وعنصر المدينة (polis) التي تحولت إلى مركز حضري.

ب) تتمثل المحطة الثانية في الحضارة الرومانية التي استمر وجود كثير من مظاهرها خلال العصر الوسيط بفعل عامل الزمن طبعا. لأن العصر الوسيط انبثق مباشرة بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية. ولعل أهم، وأبرز عنصر جسد ذلك، تمثل في اللغة اللاتينية بتعبيريها الكتابي والشفوي. وظل حضورها متواصلا إلى ما بعد القرن العاشر للميلاد، حيث بدأت اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية في الظهور والتطور؛ وهي لغات ذات أصول لاتينية كما هو معروف.

وتجسدت استمرارية مظاهر الحضارة الرومانية أيضا في المجال العسكري سواء على مستوى فنون الحرب والقتال أو على مستوى التقنيات العسكرية. وتجلت الاستمرارية كذلك في مجال البناء والهندسة المعمارية والزخرفة وفي نمط الحياة. فبعد أن ظل الطابع الريفي يطغى على حياة الناس بين القرنين الخامس والحادي عشر، عادت ظاهرة الازدواجية كما كانت خلال العصر الروماني. فتوزع المجتمع بين أفراد يعيشون في الأرياف وأفراد يعيشون في الحواضر. وتجسدت الاستمرارية أيضا في مجال التشريعات والقوانين التي ظلت ذات طابع روماني خلال العصر

الوسيط. ولا تقل الثقافة أهمية عن التشريعات، فقد تواصل، هي الأخرى، حضور كثير من مكوناتها خلال هذه الحقبة رغم سيادة الفكر اللاهوتي.

وأستطيع التأكيد في هذا المقام، أن معجم الكلمات المستعملة في التعبير الكتابي، وكذلك منظومة الأفكار والقيم والتمثلات التي ورث العصر الوسيط نصيبا كبيرا منها، تمثل رصيدا بالغ الأهمية لا مناص من استحضاره عند الحديث عن إرهاصات الوحدة لأنها تشكل قاعدة للإحساس "بالانتماء لأوربا" أكثر قيمة من تلك التي يشكلها الإرث المادي. وللدلالة على ذلك، يمكن ذكر كلمة "قيصر"، التي كانت تطلق على رأس هرم السلطة السياسية في الإمبراطورية الرومانية. وقد اشتق الأوربيون من هذه الكلمة، فيما بعد وبلغاتهم المحلية، مختلف الكلمات الدالة على المعنى نفسه من قبيل كلمة "كيزر (Kaiser) عند الجرمان وكلمة "تسار" (Tsar) عند الصربيين والبلغار.

ج) تتمثل المحطة الثالثة فيما يعرف بإيديولوجية التراتبات الثلاث التي أعاد إليها الحياة سنة 1027 الراهب أدلبرون أسقف لاوون (Adalbéron de Laon)[1].

وهي إيديولوجية ذات أصول هندو-أوربية تقوم على فكرة مفادها أن المجتمع مكون من ثلاث "فئات" في تراتبية منسقة ومتكاملة : يتألف التراتب الأول من رجال الدين ويتألف الثاني من المحاربين و يتكون الثالث من الفلاحين.

اجتهد رجال الدين في الترويج لهذه الإيديولوجية وفي إقناع خاصة المجتمع وعامته، المؤلفة أساسا من فلاحين، بأن التفاوت بين التراتبات أمر طبيعي، وأن التكامل بينها هو الأساس. فأفراد التراتب الأول يقومون بمهام ترشيد الآخرين، ونشر الوعي الديني والحفاظ على المسيحية. ويقوم المنتمون للتراتب الثاني بإقرار الأمن والدفاع عن جميع أفراد المجتمع ورد أي هجوم أجنبي. بينما يبذل أفراد التراتب الثالث قصارى جهدهم لتوفير ما تحتاج له جميع الفئات من أطعمة وأشربة.

---

[1] - رجل دين وسياسة. يضع الذين ترجموا له ولادته بين سنتي 947 و950. ينحدر من أسرة نبيلة ثرية. كان غريب الأطوار، ولم تكن له حظوة بين رجال الدين، ولكنه اشتهر بفصاحته، وربما هذا ما ساعده على أن يصبح مستشارا لروبير التقي الذي حكم غالة بين سنتي 996 و1031.

شغل أدلبيرون منصب أسقف كنيسة لاوون (Laon) (بمنطقة بيكارديا) منذ سنة 977 حتى وفاته سنة 1030. كما ألف بعض النصوص النثرية والشعرية، التي لم تلق رواجا بين "مثقفي" عصره. ولكن نجمه سطع كمفكر، سنوات قليلة قبل وفاته حين نظم نصا شعريا مطولا قدمه للملك روبير، تحدث فيه عن شخص الملك وعن دوره، وعن رجال الدين. وخصص قسما منه لعرض تصوره لما يجب أن يكون عليه المجتمع، على غرار ما قام به القديس أوغسطين في ← كتاب "مدينة الله". واقترح أن ينظر الى المجتمع بكونه مؤلفا من ثلاث تراتبات يكمل بعضها البعض هي : رجال الدين والمحاربون والفلاحون.

قام بتحقيق النص ونشره عدد من الباحثين، من بينهم كلود كاروزي (Claude Carozzi) الذي نشره بباريس سنة 1979 ضمن منشورات الآداب الجميلة (Les Belles Lettres).

يمكن القول، بأن الترويج لإيديولوجية التراتبات الثلاث[1]، ساهم في خلق انسجام مجتمعي على الصعيد الأوربي، ولكن ما يمكن الاقرار به علانية، هو أن إدراج الفلاحين إلى جانب الفئات الاجتماعية الأخرى في منظومة فكرية منسجمة، دليل على قناعة النخبة المثقفة من رجال الدين بأهمية العمل ودوره في تنمية الفرد والمجتمع. وهذا ما سيتأكد خلال العقود والقرون التي تلت تاريخ انتعاش تلك الإيديولوجية.

د) تتمثل المحطة الرابعة والأخيرة في العقيدة التي يجسدها الكتاب المقدس الذي ورثه العصر الوسيط. وقد سهرت المؤسسات الدينية خلال هذه الحقبة التاريخية على صيانته ونشر مضامينه. فأصبح يمثل بحق موسوعة تتضمن كل أشكال وضروب المعرفة التي وضعها الله بين يدي الإنسان. وعد في الوقت ذاته مرجعا للتدبر في ملكوت الكون وفي صيرورة الحياة. وقد أخذ هذا الجانب بعدا مهما على الصعيدين الرسمي والشعبي منذ بداية حكم الأسرة الكارولنجية. فأضحى الكتاب المقدس مصدرا للذاكرة الجماعية الأوربية.

3) سيناريو النشأة القروسطوية لأوربا

سأقوم في الفقرات الموالية باستعراض اسهامات العصر الوسيط في بناء أوربا. وقد تمت تلك الاسهامات على شكل طبقات تراكمت الواحدة تلو الأخرى على امتداد الألف سنة التي استغرقها هذا العصر.

تموضعت، أو ترسبت، العناصر المؤلفة للطبقة الأولى خلال فترة غزوات، ثم استقرار، القبائل الجرمانية بالأقاليم التي كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية. وامتدت بين القرنين الرابع والثامن. ويمكن تسميتها بفترة "تصور لأوربا" (la conception de l’Europe).

ترسبت عناصر الطبقة الثانية خلال القرنين الثامن والتاسع. وتزامنت مع المرحلة الكارولنجية التي حدثت فيها أولى المحاولات الجادة لتحقيق وحدة القارة. وقد آلت هذه المحاولة إلى الفشل. فهي مرحلة "أوربا مجهضة" التي تركت أثرا.

---

[1] - لمزيد من التفاصيل بخصوص هذه الإيديولوجية ، نحيل القارئ على مقال كلود كاروزي :
"les fondements de la tripartition sociale chez Adalbéron de Laon" ,Annales E.S.C,1978,No 4, pp.683-702

وكتاب جورج دوبي (Georges Duby) :
Les trois ordres ou l’imaginaire du féodalisme, Paris, Gallimard, 1978.

تمثل سنة ألف (والسنوات الموالية لها عموما) طبقة؛ هي الطبقة الثالثة التي انبثقت خلالها "أوربا محلومة" أو "محلوم بها". لأن مشروع الوحدة لم يستطع تجاوز عتبة الحلم، ولكن هذا الحلم كان يستند إلى مقومات حقيقية.

تلت هذه "الرعشة"، التي تأرجحت بين الحلم والحقيقة، الطبقة الرابعة، وهي أوربا الفيودالية التي استغرقت القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

يمثل القرن الثالث عشر فترة ترسب عناصر طبقة أوربا المشعة التي استمدت إشعاعها من عالم المدن والجامعات والكاتدرائيات والفن القوطي.

وتموضعت في النهاية آخر طبقة قروسطوية. وتزامنت مع القرنين الرابع عشر والخامس عشر، الذين شهدت أقاليم أوربا خلالهما مصاعب اقتصادية واجتماعية وديموغرافية كادت أن تعصف بمكاسب القرون السالفة. ولكن بنيات "ما قبل أوربا الموحدة" أبدت ثباتا أمام هذا الإعصار. فقدر بذلك لمسيرة الوحدة والاندماج أن تستمر خلال القرون الموالية.

وفي ضوء ما تقدم، يتضح بأن وحدة أوربا تمت على شكل طبقات متعاقبة عبر مراحل وفق التطور التاريخي. وهذا ما يبرر اللجوء إلى تبني طريقة العرض الكرونولوجي، الذي أتمنى ألا يشعر القارئ بنوع من الملل، لأنه سيجعله يلج الى قلب الصور الجديدة، وحالات "الشك" الجديدة، التي ميزت المجال الأوربي.

الفصل الأول

تصور أوربا
(بين القرنين الرابع والثامن)

تبدو مقولة الانتقال من العصر القديم الى العصر الوسيط التي يتبناها المشتغلون في حقل البحث التاريخي، مقولة وجيهة ولا مناص من تبنيها عند البحث في تطور التاريخ الأوربي. وتقضي وجاهتها التخلي عن وجهة النظر التي ظل يتبناها مِؤرخو أوربا، منذ مطلع القرن الثامن عشر وحتى أواسط القرن العشرين، والتي تلخصها فكرة مفادها أن الإمبراطورية الرومانية لم تمت ميتة طبيعية، وإنما تم اغتيالها. بمعنى

أن الانتقال بين العصرين القديم والوسيط حدث بشكل كارثي. وخلافا لهذا التصور، فإن عددا من الباحثين المعاصرين يعتقدون اليوم، بأن هذا الانتقال حدث نتيجة تطور موضوعي طويل المدى، تخللته فترات حادة ومثيرة. ولتجسيد هذا الاعتقاد، فإنهم يستعملون عند الحديث عن الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والثامن عبارة "العصر القديم المتأخر".

ولا أخفي قناعتي بصلاحية هذه التسمية لأنها، الأكثر تطابقا مع طبيعة التطورات التي شهدتها مناطق أوربا خلال الفترة المذكورة. وفي ضوء هذه القناعة أرى بأن أوربا بدأت في الظهور خلال هذه الفترة. وقد حدث ذلك الظهور في خضم تحول ذي وجهين : يتمثل وجهه الأول في انتشار الديانة المسيحية في ربوع أوربا بين سنة 313 ميلادية، تاريخ اعتراف الإمبراطور قسطنطين بهذه الديانة، وسنة 390 ميلادية، تاريخ إقرارها كديانة رسمية (كدين دولة) من قبل الإمبراطور ثيودوس الأول. ويتمثل وجهه الثاني في قيام الإمبراطور ذاته بتقسيم الإمبراطورية بين ابنيه إلى قسمين: واحد شرقي وآخر غربي. ومنذ هذا التقسيم اتبع كل جناح من الإمبراطورية مسارا مختلفا عن مسار الآخر. وإن القسم الغربي هو الذي قدر له أن يكون مهد نشأة أوربا الموحدة.

1) القديس أوغسطين وعملية التمسيح

أعتقد أن عملية انبثاق أوربا، التي أسعى إلى تتبع مسارها، تمت عبر ظاهرتين رئيستين شكل القرنان الرابع والخامس حيزهما الزمني. وإن إحدى هاتين الظاهرتين التي يجدر التوقف عندها تتمثل في عملية صياغة العقيدة المسيحية. وقد تمت هذه الصياغة في نفس خط صياغة التوراة والعهد الجديد وورثها العصر الوسيط. وتحمل عناء القيام بهذه المهمة عدد من رجال الكنيسة ورواد الديانة المسيحية، وأبرزهم القديس جيروم (Saint Jérôme) (347 م. – 420 م.) والقديس أوغسطين (Saint Augustin) (345 م. – 430 م.) اللذين يستدعي الأمر تخصيص فقرة للحديث عنهما بالنظر إلى قيمة إسهاماتهما في تشكل الثقافة الأوربية.

يعتبرالأول رجل دين مخضرم. وقعت مجريات حياته في نقطة تقاطع بين الشرق والغرب، لأنه ولد في منطقة محاذية لكرواتيا الحالية (la Croatie)، وتابع دراسته بروما،وقضى فترة طويلة من حياته كناسك في إحدى مناطق الشرق، وتوفي ببيت لحم. ورغم أن هذه المعطيات تطرح صعوبة إيجاد صلة بين الحديث عنه والحديث عن مستقبل أوربا، فلا مانع، من ذكره لأنه أنجز عملا جبارا، يتمثل في قيامه بترجمة التوراة إلى اللاتينية انطلاقا من نسخة عبرية حلت محل النسخة

الإغريقية الرديئة. وقد أصبح النص الذي أنجزه الأكثر تداولا واعتمادا على امتداد العصر الوسيط رغم خضوعه لعدة مراجعات.

أما رجل الدين الثاني فيعتبر، بعد القديس بولس (Saint Paul)، أبرز رجال الدين الذين عملوا على نشر وإرساء تعاليم المسيحية. كما يعتبر أشهر أعلام ومفكري العصر الوسيط من خلال مؤلفاته؛ وأهمها مذكراته التي استعرض فيها مجريات وملابسات اعتناقه للمسيحية. وتمثل هذه المذكرات، التي تم نشرها تحت عنوان "اعترافات"، أول أنموذج ضمن سلسلة المؤلفات التي تهم السير الذاتية، والتي ستنتشر فيما بعد بمختلف أنحاء أوربا. ولا يقل أهمية عن هذا الكتاب مؤلفه الثاني المعروف "بمدينة الله" الذي وضعه بعد سنة 410 للميلاد على اثر عمليات النهب والتخريب التي تعرضت لها مدينة روما على يد قبائل القوط بزعامة ألريك (Alaric). وكان من تداعياتها انتشار فكرة "قرب قيام الساعة" في أوساط عدد من رجال الدين وفئات عريضة من عامة مسيحيي أوربا، مما دفع القديس أوغسطين إلى بذل جهود مضنية لتبديد هذا التصور وتخفيف حدة الهلع الذي استبد بالقلوب، والترويج لفكرة مؤداها أن القيامة ستحدث في مستقبل غير منظور على المدى القريب، ولا يعلم ساعة حدوثها إلا الله تعالى. وإذ نجح القديس أوغسطين في إقرار وجهة نظره، فقد وضح أيضا في مؤلفه قواعد العلاقة التي يجب أن تقوم بين "مدينة الله" و"مدينة الإنسان". وكأنه بذلك سعى إلى وضع حدود بين قدرة الله وقدرة الإنسان، أي بين السلطتين الدينية والدنيوية.

2) رواد ثقافة العصر الوسيط

شكل التراث الفكري المنتمي إلى مرحلة نهاية العصر القديم وبدايات انتشار المسيحية لبنة مهمة ستقوم على أساسها انجازات أعلام القرون السادس والسابع والثامن؛ الذين نجحوا في المزج بين الثقافة الرومانية التي سادت خلال العصر القديم، ومتطلبات المجتمعات الجديدة التي انضافت إليها العناصر الوافدة إلى أقاليم غرب أوربا في سياق عمليات الغزو والاجتياح التي قامت بها القبائل الجرمانية.

ومن بين الأعلام الذين قدموا إسهامات قيمة خلال هذه القرون بوويس (Boèce) (المتوفى سنة 520 م.) الذي أهلته ثقافته وانتماؤه لأسرة أرستقراطية رومانية عريقة للانخراط في حاشية ثيودوريك (Théodoric) زعيم القوط الشرقيين. غير أن موقفه المساند لإمبراطور بيزنطة في صراعه مع القوط الشرقيين حكام ايطاليا أدى به إلى السجن الذي قضى به ما تبقى من حياته.

وضع عدة مؤلفات في الفلسفة، قبل فترة سجنه، تضمنت نقولات كثيرة من مؤلفات أرسطو. كما ألف مصنفا آخر وهو في السجن لقي رواجا كبيرا.

وعموما، فإلى بوويس يرجع الفضل في تعرف أوربيي بدايات العصر الوسيط على منطق أرسطو، وعلى كثير من مبادئ فلسفته. كما يرجع له الفضل في كونه يعتبر واضع أسس "الحركة الإنسية" التي شهد العصر الوسيط بعض تجلياتها.

وعلى غرار بوويس، يعد المفكر كاسيودور (Cassiodore) (المتوفى سنة 580 م.)علما بارزا. ينحدر هو الآخر من أسرة ايطالية رومانية عريقة. وضع معارفه وثقافته رهن إشارة القوط الشرقيين حكام ايطاليا. وقام بدور بارز في التقريب بين وجهات نظر حكام ايطاليا والأباطرة البيزنطيين. غير أن جهوده لم تحقق النجاح المنشود، حيث قام الإمبراطور جستنيان (Justinien) بغزو ايطاليا سنة 539 م. فحز ذلك في نفس كاسيودور، الذي قرر هجر السياسة والابتعاد عن دواليب السلطة. وقضى ما تبقى من حياته معتكفا، في إحدى المؤسسات الدينية، على ترجمة المؤلفات الإغريقية، واستنساخ المؤلفات اللاتينية.

ومن هذا المنطلق، يعتبر أول من عرف الأوربيين بقيمة الكتب وعلمهم كيفية إقامة المكتبات. وهو أول من أقترح على الأساقفة ميدانا جديدا للعمل يتمثل في التثقف والاجتهاد الفكري كأداة لصقل مؤهلاتهم والتمكن من التأثير. ووضع رهن إشارتهم في بعض مؤلفاته، وأهمها كتاب "المؤسسات الإلهية والأدب العلماني" (Insti-tutiones divinarum et saecularium litterarum)، موسوعة علوم "دنيوية" يمكن العودة إليها لتحقيق هذا المسعى.

وبعد وفاته، اشتد الاقبال على الموسوعات من قبل الأساقفة، وعموم المتعلمين، إذ وجدوا فيها نمطا من التآليف يوفر لهم عصارة عطاء المفكرين القدامى، ويمكنهم من الانطلاق نحو فضاء أرحب. وعلى هامش هذا المعطى، لا بأس من تذكير القارئ بأن النمط الموسوعي في التأليف يمثل إرثا إغريقيا ورثه العصر الوسيط . وأصبح منذ القرن الثامن عشر وإلى يومنا هذا أداة أساسية في التعليم والتثقيف.

وعلى كل، يمكن أن ندرج اضافة الى القطبين السالفي الذكر، إيزيدور الإشبيلي (Isidore de) Séville (المتوفى سنة 636 م.) الذي يعد من بين كبار الأعلام والموسوعيين. ينحدر بدوره من أسرة أرستقراطية عريقة ذات أصول إسبانو-رومانية. أصبح مطرانا لكنيسة اشبيلية حوالي سنة 600 م.، في وقت تخلى فيه القوط الغربيون، حكام اسبانيا، عن المذهب الآري لاعتناق الكاثوليكية الأرثوذوكسية.

اشتهر بكتاب "علم أصول الكلام" (Etymologiae) الذي يتألف من 20 كتابا و448 فصلا، تعالج معارف شتى. وقد ظل هذا الكتاب يشكل أحد مصادر المعرفة

خلال العصر الوسيط. فعد بحق واحدا من أبرز الموسوعات التي وضعت خلال هذه الحقبة التاريخية.

ويمكن أيضا أن ندرج ضمن سلسلة الرواد علما أنجلو سكسونيا هو المفكر بيد (Bède) (المتوفى سنة 736 م.). ويعتبر سليل الأساقفة الأوائل الذين كان لهم الفضل في نشر الديانة المسيحية بالجزر البريطانية، وفي نقل جانب من التراث الفكري الروماني إلى هذه الربوع. كان هو الآخر موسوعي الثقافة. ألف في ضروب مختلفة من العلوم. بل ربما تميز عن الرواد الآخرين في كونه كان متفقها في علوم الدين وفي علوم الطبيعة. واليه يعزى الفضل في جعل ثقافة العصر الوسيط تتحلل شيئا فشيئا من طابع التقليد الذي ميزها خلال القرون الأولى من العصر الوسيط لتسلك مسلكا آخر ذي صبغة أوربية هذه المرة.

3) ڭريڭوار الأكبر

ينتمي القديس ڭريڭوارالأكبر(Saint Grégoire le Grand) إلى ثلة رواد ثقافة العصر الوسيط، كما أن انجازاته العلمية لا تختلف عن انجازات بوويس أو كاسيودور أو غيرهما من الأعلام الذين ورد ذكرهم سابقا، ومع ذلك، لم يدرج الباحثون المحدثون والمعاصرون إسمه ضمن لائحة آباء العصر الوسيط كالقيس بينوا والامبراطور شارلمان رغم أنه يستحق هذا اللقب بكل جدارة.

ولد القديس ڭريڭوار الأكبر حوالي سنة 540 وتوفي سنة 604. ينحدرمن أسرة نبيلة كانت تقيم، زمن ولادته بروما. أبان عن مقدرة في تموين هذه المدينة التي كان عمدتها سنة 573. كما استثمر العقارات التي كانت في حوزته في تشييد ستة موناستيرات بجزيرة صقلية. وشيد موناستيرا سابعا بمدينة روما أراد الاعتكاف به. فعينه البابا بلاجيوس الثاني (Pélage II)، الذي اعتلى عرش البابوية بين سنتي 579 و590، سفيرا مقيما بالقسطنطينية. ثم استطاع الرجل بعد ذلك اعتلاء كرسي البابوية سنة 590.

وقد اشتهر بانجازات جبارة على المستويين العلمي والعملي: فعلى المستوى العلمي، وضع رهن إشارة عموم المسيحيين عدة مؤلفات تحض على الورع والتقوى. وألف مجموعة كتب تعليمية موجهة لرجال الإكلروس. وأدخل بعض التعديلات على الترتيل الذي يردده مرتادو الكنائس. فأصبح يعرف منذئذ "بالترتيل الڭريڭوري". أما على المستوى العملي، فاشتهر بنشاطه الدءوب في عدة واجهات. فالى جانب المؤسسات الدينية التي شيدها، نجح في التقريب بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية. واجتهد في إعطاء نفس جديد للديانة المسيحية في انجلترا من خلال

المبشرين الذين بعثهم لهذه الغاية. وأبان عن حنكة ودراية في الحد من مخلفات الفيضانات المهولة التي شهدها نهر التيبر(Tibre) سنة 589؛ والتي تلتها في السنة الموالية موجة طاعون، كان من الممكن أن يكون لها تأثير على عقلية المسيحيين وذهنياتهم.

تواصلت، بموازاة الأنشطة الفكرية والدينية، وغيرها من الانجازات، التي ورد ذكرها بمناسبة الحديث عن رواد ثقافة العصر الوسيط، عملية الانصهار بين ثقافة سكان أوربا الأصليين وبين ثقافة العناصر الوافدة إليها بمناسبة الغارات وعمليات الغزو التي شهدتها أقاليم غرب أوربا. وقد كانت عملية الانصهار تتم بشكل خاص في الكنائس، وفي المؤسسات التعليمية، رغم أن أعداد الوافدين على هذه المؤسسات الدينية-التربوية كان قليلا. وقد مثلت المسيحية الأداة الأولى بامتياز في تحقيق تلك العملية.

والحقيقة أن عملية التثاقف بين "المتبربرين" والرومان، تعود إلى زمن سابق على سقوط روما، لأن الحدود الفاصلة بين مجال استقرار المجموعتين لم تكن تحول دون انتقال التأثيرات بينهما. كما أن عمليات المقايضة والمبادلات، ومختلف أشكال التواصل، هيأت الأرضية لحدوث الانصهار بين الطرفين، رغم العداء الذي ميز العلاقات القائمة بينهما، والذي تجلت مظاهره بشكل أوضح في عمليات الغزو.

وفي خضم هذا الاختلاط أو الانصهار، الذي حدث لحظة نشوء أوربا، أخذت تتجسد، ومنذ البداية، جدلية الوحدة والتنوع التي لازالت تعد إلى اليوم واحدة من أبرز خصائص أوربا.

4) الغزوات والتثاقف

حدثت أولى موجات الغزو في نهاية القرن الثالث للميلاد. غير أن الغزو العام الذي قام به الجرمان لكل من ايطاليا واسبانيا وغالة بين سنتي 406 و407، وسقوط روما في حوزة الزعيم ألريك (Alaric) سنة 410، يمثل بداية عملية استقرار الجرمان في أقاليم الإمبراطورية الرومانية. وكان من تبعات هذا الحدث اختفاء خطوط الحدود العسكرية الرومانية في أقاليم أوربا الغربية.

ومن المعروف أن المد الجرماني تواصل خلال القرنين الخامس والسادس. فبعد تدفق القوط الشرقيين والغربيين وقبائل الوندال وقبائل الألان، الذين عبروا نهر الراين عند مطلع القرن الخامس، شرع البورغنديون والفرنجة والألمان (les Alamans) بدورهم في اقتحام أقاليم جنوب أوربا؛ بينما عبرت قبائل الجوت (les Jutes) والأنجل (les Angles) والسكسون بحر الشمال في اتجاه الجزر البريطانية.

واكتملت عمليات التدفق خلال هذه المرحلة باكتساح اللومبارديين لأجزاء من ايطاليا في النصف الثاني من القرن السادس.

وأخذت خارطة أوربا السياسية تتشكل من جديد في ضوء هذه التحركات البشرية. فقد تمكن الفرنجة من السيطرة على مجموع أقاليم غالة التي أسسوا بها مملكة تحت إمرة كلوڤيس (Clovis). بينما أسس القوط الشرقيون مملكة لهم بأقاليم شمال شرق ايطاليا تحت قيادة ثيودوريك (Théodoric). أما القوط الغربيون، الذين اضطروا إلى الجلاء عن غالة، فقد نزحوا إلى شبه جزيرة أيبيريا التي أسسوا بها مملكة جرمانية.

وكان من الممكن أن يفضي هذا التدفق البشري، الذي واكبته أحداث دامية، إلى حدوث شرخ عميق بين الوافدين والسكان الأصليين ويؤثر سلبا على نشأة أوربا، لأن الوافدين كانوا يعتنقون المذهب الآري، بينما كان السكان الأصليون يعتنقون الكاثوليكية، ويرون المذهب الآري بدعة وخروجا عن الدين. غير أن تحول الغزاة إلى الكاثوليكية الأرثوذكسية، حال دون حدوث هذا الشرخ. ولتأكيد هذه الحقيقة، لا بأس من التذكير بأجواء التهدئة التي شهدتها أقاليم غالة بعد اعتناق كلوڤيس (Clovis) زعيم الفرنجة للمسيحية الكاثوليكية.

ومهما يكن من أمر، فالراجح أن شبكة العلاقات اخذت تتشكل في خضم هذه الأحداث، كما أنها بدأت تأخذ شيئا فشيئا بعدا أوربيا. وعليه، فعندما كان يقع حدث ما في إقليم من الأقاليم كانت أصداؤه تصل إلى مختلف أنحاء أوربا. وللدلالة على صدق ذلك، يكفي أن نسوق حادث وفاة القديسة جرثرود (Gertrude) سنة 658. فقد توفيت بضواحي بروكسيل، وبلغ نبأ وفاتها إلى مسامع الرهبان، وعموم رجال الدين، بمختلف الأنحاء. وإذا كان هذا الحدث يفيد من جهة بأن رجال الدين كانوا يشتركون في الإحساس بالانتماء إلى مجال جغرافي واحد هو أوربا، فإنه يحيل من جهة أخرى إلى مسألة أساسية لايزال لها حضور قوي في أوربا، وهي أن مركز الجاذبية السياسي والفكري في غرب أوربا بدأ ينتقل رويدا رويدا، ومنذ هذا الوقت المبكر، من الأقاليم الرومانية المتوسطية إلى الأقاليم الواقعة شمال جبال الألب. تجسد الانتقال السياسي، على سبيل المثال، في كون فرنجة غالة اتخذوا من باريس، الواقعة في الشمال، قاعدة لمملكتهم. وتجسد الانتقال الفكري في كون عدد من الموناستيرات الايرلندية أصبحت مراكز شهيرة مختصة في تأهيل المبشرين الذين كانوا يجوبون مختلف مناطق أوربا لنشر المسيحية، وتشييد الموناستيرات والأديرة.

ويمكن ربط هذا التحول بحدثين بارزين، غدا لهما تأثير في مجرى التاريخ الأوربي: حدث أول داخلي يتصل بمدينة روما. فقد تراجعت أسقفيتها، وفقدت الكثير

من بريقها. كما أنها أصبحت عرضة لتهديد "المتبربرين" من قوطيين ولومبارديين. ومن ثم، لم يعد حكام بيزنطة يعترفون بريادتها الدينية. وفضلا عن كل هذا وذاك، فإن هذه المدينة، التي كانت قاعدة الإمبراطورية الرومانية لم تعد، من وجهة نظر سياسية وجغرافية، مركز العالم الأوربي. أما الحدث الثاني، فهو حدث خارجي، يتمثل في المد الإسلامي الذي تجاوز مداه، في وقت من الأوقات حدود شمال إفريقيا ليشمل مناطق عدة من أوربا كشبه جزيرة أيبيريا وجزيرتي صقلية وسردينيا. فوقع تبعا لذلك تشكل جغرافي جديد كان من نتائجه حدوث تقابل بين أوربا الشمال وأوربا الجنوب، وصعود مراكز طرفدارية في أوربا الجديدة المسيحية. تمثلت في المركز السلتي والمركز الأنڭلوسكسوني، اللذين سينضاف إليهما مستقبلا المركز النورماندي، والمركز الإسكندناڤي، والمركزالسلاڤي. بينما تحولت أقاليم البحر المتوسط إلى جبهة نشيطة لحركة الاسترداد المسيحي، وفضاء للعلاقات مع المسلمين الذين نجحوا حتى مطلع القرن الحادي عشر في السيطرة على هذا المجرى المائي، وفي فصل إفريقيا عن المسيحية وعن العالم المسيحي.

ونستغل هذا المعطى الأخير للإشارة إلى أن انفصال إفريقيا عن أوربا، كان بدوره حدثا بارزا ذا دلالتين. فقد مثل، من جهة، خسارة بالنسبة للمسيحية التي فقدت مناطق في شمال إفريقيا كانت موطنا مهما للمسيحية خارج أوربا. ساهمت، تلك المناطق، بدور بارز في إثراء الفكر الديني وفي التصدي للمناوئين للمسيحية من دوناتيين وغيرهم. ولكن هذا الحدث شكل، من جهة أخرى مكسبا بالنسبة لأوربا في مسيرتها نحو الوحدة.

5) حكومة الأساقفة والرهبان

شكلت الديانة المسيحية البوتقة التي انصهرت فيها مختلف فئات المجتمع الأوربي خلال القرون الأولى من العصر الوسيط، كما أعطت في نفس الوقت لجميع الأقاليم نوعا من الوحدة والتجانس. ومن هنا نفهم الدور المتميز الذي قام به الأساقفة في إدارة الشأن العام و ملء الفراغ السياسي خاصة في الحواضر القليلة التي ظلت تقاوم الأحداث والتطورات في أقاليم غرب أوربا. وكان هؤلاء الأساقفة يمارسون سلطتهم في نطاق دوائر ترابية تتطابق عموما مع الدوائر التي كانت معروفة زمن سيادة روما.

ألف الأساقفة جانبا من هيئة رجال الدين التي أصبحت تضم، بالموازاة مع انتشار الديانة المسيحية، فئات كثيرة ، من بينها فئة الكهنة وفئة الرهبان.

كان المنضوون في فئة الرهبان من النساك في الأغلب الأعم، ولكن لم يكن كل واحد منهم يعيش منفردا في عزلة كما تفيد بذلك التسمية التي يحملونها، بل كانوا يعيشون في طوائف. وقد كان معظمهم يقيم في موناستيرات تقع خارج المدن، أو بمحاذاة النطاقات الغابوية، بينما آثر عدد منهم حياة الترحال والتنقل الدائم. وعموما قام الرهبان المستقرون بدور بارز بين القرنين الرابع والثامن تجسد في نشر المسيحية في أوساط فلاحي القرى، بينما ساهم الرهبان "الرحل" في نشر المسيحية في مناطق أخرى. وقد اشتهر في هذا المضمار الرهبان الإيرلنديون الذين قاموا بدور متميز في نشر المسيحية في المناطق الممتدة بين شرق غالة وشمال ايطاليا.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن النشاط الديني لم يكن حكرا على الذكور وحدهم. فقد آثر عدد من الإناث حياة العذرية والعفة وانخرطن بدورهن في هيئات، وأقمن في موناستيرات، واشتهرن بنشاط ملحوظ في نشر المسيحية وفي رعاية ذوي الحاجة.

6) أبطال جدد : القديسون

أفضت الأوضاع الجديدة في أوربا إلى ظهور صنف جديد من الأبطال احتلوا المكانة التي كان يحظى بها أبطال العصر القديم الذي سادته الوثنية.

هؤلاء الأبطال الجدد هم القديسون الذين تميز الجيل الأول منهم بكونهم قاموا ببطولات خارقة، حيث لم يتردد الواحد منهم في وهب نفسه قربانا لله تعالى: إنهم "الشهداء".

ويبدو أن التدرج في فهم واستيعاب الديانة المسيحية بصورة أفضل، أفضى إلى تراجع عدد هؤلاء الشهداء، مما فتح المجال لظهور فئة جديدة من رجال الدين هم القديسون الذين خصتهم الكنيسة بحظوة، ووعدوا بأن يكونوا من أهل الجنة، فأصبحوا مجال تبجيل بين عموم الناس، بل تحول هذا التبجيل في كثير من الحالات إلى تقديس.

ومن المعلوم أن التقديس لا يكون إلا لله ، وهو وحده القادر على القيام بفعل خارق، ولكن فئات عريضة من عامة المجتمع ارتبطت القدسية في أذهانها بعدد من القديسين الذين اقترنت بأسمائهم بعض الخوارق و"الكرامات". فقد كانت عيادة أحد الأحياء منهم، أو زيارة ضريح من توفي منهم، تشفي من المرض.

وكان من نتائج هذا الوضع المتميز الذي حظي به القديسون، أن انضموا هم أيضا إلى التشكيلة المؤلفة من الرهبان والقساوسة وكبار رجال الدين الذين قدر لهم ممارسة السلطة خلال هذه المرحلة الأولى من مراحل نشأة أوربا.

7) قياس جديد للزمن

كان لحركات الرهبنة تأثير واضح في طبائع أفراد المجتمع الأوربي وفي نمط عيشهم وطرق تفكيرهم وسلوكهم اليومي. فالرهبان، المنضوين في تلك الحركات، يؤدون، كما هو معروف، عددا من الصلوات في كل يوم. ويوزعون تلك الصلوات بشكل منتظم على الليل والنهار. كما أنهم يصومون خلال فترات معينة، ليس لاعتبارات دينية فقط، وإنما لاعتبارات صحية أيضا. ومن ثم، فإلى هؤلاء الرهبان يعزى الفضل في تعليم الناس كيفية تدبير شؤونهم اليومية، وكيفية تنظيم أوقات العمل وأوقات الراحة بشكل يفضي إلى إحداث نوع من الانسجام والتناوب في آن واحد بين أوقات العمل وأوقات الراحة.

ومن هذا المنطلق، أعتقد بأن تأثير المسيحية كان جليا فيما يتعلق بمسالة قياس الزمن، رغم أن العمل بالتقويم الروماني ظل ساريا خلال العصر الوسيط. ولكن هذا السريان لا يمنع من القول بأن ثمة مستجدات ظهرت في هذا الشأن لا يمكن إغفالها، ومن بينها الإيقاع والتدرج الذي أعطي لأيام الأسبوع. فقد تم اتخاذ مسألة خلق الكون كمرجعية لتبني تدرج وتوالي السبعة أيام التي تمت فيها هذه النشأة. وعلى هذا المنوال، أصبح الأسبوع يتكون من ستة أيام بالإضافة إلى يوم سابع للراحة.

والملاحظ أن يوم الراحة احتل موقعا متميزا في رزنامة هيئة رجال الدين، على مختلف مشاربهم، وأصبح جميع المسيحيين، على مختلف انتماءاتهم السوسيو– مهنية ملزمين به حتى أن شارلمان اضطر إلى تقديم ملتمس للكنيسة لاستثناء الفلاحين وإسقاط هذا الالتزام عنهم لأن طبيعة نشاطهم الاقتصادي تقتضي العمل الدؤوب طوال أيام الأسبوع، وخاصة خلال مواسم الحصاد وجني المحاصيل.

ومما لاشك فيه أن تأثير المسيحية كان جليا في عملية التقويم التي شهدت بعض مظاهر التجديد فيما يتعلق بنقطة الانطلاقة أو المبتدى. فقد اقترح الراهب ديونيسيوس (Dionysius) (دوني الصغير (Denys le Petit) منذ سنة 532 أن يتخذ المسيحيون من مولد المسيح منطلقا لتاريخهم. ولكن الأمر لم يكن بهذا اليسر، ولذلك ظلت الكنيسة تتردد لفترة من الزمن في تحديد يوم معين تبتدأ فيه السنة في مجموع الأقاليم التي كانت تسود فيها المسيحية. وقد تم في الأخير اختيار ثلاثة تواريخ لتكون منطلقا هي: 25 دجنبر(الذي يحيل إلى مسألة التجسد) و25 مارس (الذي يحيل إلى يوم البشرى) والفصح (الذي يبقى يوما متحركا يقتضي من القائمين على الشأن الديني القيام بعمليات حسابية معقدة كل سنة ومراقبة حركة القمر لتحديده).

وبناء عليه، فإن التقويم المسيحي هو في مجمله تقويم شمسي، أصبح جميع الأوربيين، باستثناء أوربيي الأقاليم الشرقية الأرثوذكسية، يخلدون بمقتضاه كل سنة

حفلين جديدين كبيرين، هما حفل ميلاد المسيح، الذي تم الاتفاق منذ القرن الرابع على إحيائه عند حلول يوم 25 دجنبر من كل سنة، وحفل تخليد انبعاث السيد المسيح، أو عيد الفصح، الذي لم يتم تحديد يوم معين لإحيائه، إذ ترك يوما متحركا كما سبق القول.

ويبدو أن جهود رجال الدين الهادفة إلى صياغة منظومة جديدة لقياس الزمن، لم تتوقف فقط عند الجوانب النظرية المتصلة بهذا القياس، بل تجاوزت هذا المستوى النظري لأجرأة بعض مظاهر قياس الزمن على أرض الواقع. وتجلت هذه الأجرأة في اللجوء إلى استعمال الأجراس (أو النواقيس). فتم لهذا الغرض تشييد أبراج ثبت بقمة كل واحد منها جرس كبير أو مجموعة أجراس كانت تقرع معلنة بداية الساعة. وقد بدأ العمل بهذه التقنية منذ القرن السابع. ورغم أن عملية ضبط التوقيت ظل يتحكم فيها الرهبان، فإن الإشعار الصوتي بحلول الساعة أصبح يصل إلى مسامع الناس في الحواضر، كما في البوادي. فمثل هذا الحدث بحق سابقة في تاريخ أوربا كان لها أبلغ الأثر.

8) إعادة تشكيل المجال

لم ينحصر حضور الديانة المسيحية في مسألة إعادة صياغة الزمن، بل تجاوزها ليسجل حضورا ملفتا أيضا في عملية إعادة تشكيل المجال، التي لا تقل هي الأخرى أهمية.

وقد تجلت هذه العملية في تقسيم التراب الأوربي إلى "ديوسيزات" (des diocèses). وهي عبارة عن مجموعة دوائر ترابية كانت منتظمة في شبكات تمتد كل واحدة منها طولا وعرضا بين عدة نقاط أو مراكز.

وبما أن هذا التقسيم الترابي تم تحت تأثير المسيحية، فقد كان من الطبيعي أن ترتقي إلى الواجهة مراكز دينية أو مواضع تحتضن مدافن بعض الرهبان أو القديسين. فأصبحت هذه المراكز والمواضع بدورها نقاط ربط في تلك الشبكات، كما هو الشأن بالنسبة لمدفن القديس بطرس في مدينة تور، أو مدفن القديس بولس في روما. وقد أفضت عملية تقديس القديسين الأحياء والأموات إلى ارتفاع وتيرة الزيارات التي كان يقوم بها عموم المسيحيين لمواطن، ومراقد هؤلاء القديسين. فتحولت تلك الزيارات إلى حركة حجيج وطدت الصلات بين مسيحيي مختلف مناطق أوربا. والأهم من ذلك، هو أن حركة الحجيج تلك أصبحت منتظمة ذهابا وإيابا عبر محطات، غدت هي الأخرى مراكز في الشبكات التي سبق الحديث عنها. وأستحضر في هذا السياق مثال موناستير فلوري (Fleury-sur-Loire) الذي أصبح منذ القرن السابع أحد أكبر

المراكز التي يؤمها الحجاج بعد أن نقلت إليه بقايا رفات القديس بينوا "النورسي" (Saint Benoît de Nursie) الذي كان مدفونا في موضع مهجور بجبل كاسان "مونتي كاسينو" (mont Cassin) جنوب ايطاليا منذ وفاته خلال أحداث الغزو اللومباردي.

9) قطبان طاردان : بيزنطة والإسلام والاختيار بين الصور

يتضح أن ثمة حدثان بارزان "سلبيان" كان لهما دور حاسم في نشأة أوربا بين القرنين السابع والرابع عشر لأنهما أفضيا إلى انبثاق هوية دينية أو "وطنية" في مجموع مناطق أوربا. يتمثل هذان الحدثان في تنامي قوة كل من بيزنطة والإسلام اللذان شكلا قطبين طاردين.

كانت بيزنطة تاريخيا أول قطب طارد من خلال سعي القائمين عليها إلى بسط سيادتهم على كامل مناطق العالم المسيحي الرومانية والإغريقية أيضا، وامتناعهم عن الاعتراف بأسقفية روما، ورفضهم الإقرار باختلاف لغة العبادة والشعائر الدينية التي كانت تتم باللاتينية في مناطق، وبالإغريقية في مناطق أخرى.

والراجح أن الخلافات "الفقهية" أي اللاهوتية بين مسيحيي بيزنطة والمسيحيين اللاتينيين، ساهمت بدورها في خلق هوة بين الطرفين. وسرعان ما ازدادت هذه الهوة اتساعا بفعل موقفهما المتباين من مسألة الصور أو الأيقونات. ويجدر التذكير في هذا الشأن بأن المسلمين واليهود رفضوا بصفة قطعية الصور، وما له صلة بالتصوير، أما في بيزنطة، فقد خلق الموقف منها أزمة حادة، بينما تبنت الكنيسة المسيحية في غرب أوربا موقفا مرنا؛ على اعتبار أنها أجازت عملية تجسيد وتصوير السيدة العذراء وسائر القديسين، ولم تسمح بأن تصبح هذه المجسمات أو الصور موضوع تقديس أو تاليه. وقد كان هذا الموقف، يمثل مقدمة في اتجاه إرساء أسس الحركة الإنسية التي شهدتها أوربا فيما بعد، لأن الفن الذي كان أحد تجليات تلك الحركة، لم يجد أمامه عوائق تحول دون تطوره.

ومهما بلغ مستوى الاختلاف بين مسيحيي بيزنطة والمسيحيين اللاتينيين، فيبدو، أنه كان أقل حدة من الاختلاف بين مسيحيي غرب أوربا والمسلمين. فقد ناصب كل واحد منهما العداء للآخر منذ القرن السابع. وكثيرا ما اكتسى هذا العداء طابع الصراع المسلح.

فبعد أن تمكن المسلمون من فتح مناطق شمال إفريقيا، عبروا البحر المتوسط، كما هو معروف، ونجحوا في بسط سيطرتهم على معظم مناطق شبه جزيرة أيبيريا في ظرف وجيز بين سنتي 711 و719. ولم تعد بحوزة مسيحييها سوى مناطق

محدودة في الشمال الغربي. بل إن المسلمين تجاوزا شبه جزيرة أيبيريا ونجحوا في عبور جبال البرانس دون أن يعرف أحد، على وجه التحديد، هل كان عبورهم من أجل الحصول على غنائم أم من أجل مواصلة نشر الإسلام.

وعلى كل، فقد تم وضع حد لمسيرتهم في وقعة بواتيي سنة 732. فكانت آخر عملياتهم في أقاليم ما وراء جبال البرانس، رغم أنهم قاموا بعمليات أخرى خلال القرن التاسع في بعض جزر البحر المتوسط وفي ايطاليا وفي إقليم بروڤونس.

والجدير بالذكر أن وقعة بواتيي أسالت كثيرا من المداد في أوربا وفرقت المؤرخين إلى فريقين: فريق يقول بأنها كانت مجرد مناوشات عسكرية غير ذات معنى، و فريق يقول بأنها كانت حدثا حاسما في الواقع وفي المخيال أيضا.

وأعتقد من جانبي أن الحقيقة تكمن من دون شك بين الموقفين. والأهم بالنسبة للقضية المركزية التي نروم توضيحها في الكتاب هو أن وقعة بواتيي تم الإحساس بها من قبل بعض الإخباريين المسيحيين كحدث أوربي. وخير مثال يمكن أن نسوقه في هذا الصدد يتمثل في مؤرخ مجهول، وضع إخبارية تذيل إخبارية ايزيدور الاشبيلي، يعتبر فيها الانتصار في وقعة بواتيي بأنه انتصار لجميع الأوربيين.

10) أريفة أوربا

شهدت القرون الأولى من العصر الوسيط ثلاثة تحولات ساهمت في إضفاء طابع الوحدة على أوربا، وخاصة على مناطقها الغربية.

هم التحول الأول الحياة الاقتصادية. وتجلى في اتجاه عالم بأكمله نحو الأريفة بعد أن كان يطغى عليه الطابع المديني خلال العهد الروماني. فقد تدهورت الشبكة الطرقية والورشات والمستودعات. كما تراجعت كل المنشآت المبنية من مواد صلبة، على رأسها الحجارة، وبذلك تراجعت التقنية المتصلة بكل ما له صلة بالحجارة لفائدة تقنية الأخشاب التي سجلت عودة قوية. وتبعا لذلك غدت الأرياف مجال مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية. وغدا "المنصوص" (mansus) (le manse)، وهو عبارة عن قطعة أرض صغيرة المساحة لا تكفي مواردها إلا لإعالة أسرة واحدة، وحدة استيطان ووحدة إنتاج. كما تراجع الاقتصاد القائم على النقد لفائدة مبادلات تقوم على المقايضة. واختفت المبادلات التجارية البعيدة المدى، باستثناء بعض المواد الضرورية كمادة الملح[1].

[1] - للوقوف على طبيعة هذه التحولات يمكن الاطلاع على كتاب الباحثة روني دوهير (Renée Doehaerd) :
Le Haut Moyen Age occidental. Economies et sociétés, Paris, P.U.F., 1971.

وأميل انطلاقا من هذه المعطيات، إلى تبني وجهة النظر القائلة بالتدهور الشامل للمدن ولمظاهر الحضارة التي كانت تحتضنها. ولا أشاطر القائلين بأن التدهور كان محدودا. ويكفي أن نذكر في هذا المقام بأن مدنا قليلة فقط هي التي ظلت تقاوم إلى حد ما الاتجاه العام نحو الأريفة، ومن بينها مدينة تور ومدينة ريمس ومدينة ليون ومدينة تولوز ومدينة ميلانو.

11) الممالك والقوانين البربرية

هم التحولان الثاني والثالث الحياة السياسية ومنظومة القوانين. فقد تمت اعادة تشكيل الخارطة السياسية في أوربا بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، وذلك بظهور كيانات سياسية على رأسها ملوك كانوا في الأغلب الأعم، قبل اعتلائهم لسدة الحكم، زعماء قبائل. وقد عملوا على توسيع دائرة نفوذهم واجتهدوا في تنظيم ممالكهم، فذاع صيتهم كما هو الشأن بالنسبة لثيودوريك ملك القوط الشرقيين، وكلوفيس ملك الفرنجة، اللذين اشتهرا أيضا بإصدارهما لمنظومات قوانين لتنظيم العلاقات والمعاملات بين سكان مملكتيهما.

كانت تلك المنظومات القانونية في البدء عبارة عن أعراف. فقام أهل النظر بعد ذلك بإثرائها بمجموعة من القوانين الرومانية وتدوينها، ولذلك ظل يغلب عليها الطابع البربري (الجرماني). وهي في مجملها عبارة عن بنود ومواد تهم الأسعار والذعائر وقيمة التعويضات النقدية وصيغ الإكراهات البدنية الواجبة في حق المذنبين، كل حسب انتمائه الإثني والاجتماعي.

وأتفق مع معظم الباحثين في القول بأن تلك المنظومات لم ترق إلى مستوى التطور الذي بلغته ترسانة القوانين في العهد الروماني، وبالرغم من ذلك، ساهمت في ضمان نوع من الاستمرارية القانونية خلال القرون الأولى من العصر الوسيط، لتظل أوربا بذلك مجالا جغرافيا تتحكم مجموعة قوانين في تنظيم العلاقات والمعاملات بين الأفراد المستقرين في مختلف أنحائه كما كان الشأن قبل انهيار الإمبراطورية الرومانية.

الفصل الثاني

أوربا مجهضة
العالم الكارولنجي
(بين القرنين الثامن والعاشر)

تمثل الفترة الكارولنجية الحقبة التي شهدت أهم محاولة لبناء أوربا الموحدة. وقد ارتبطت هذه المحاولة بشخص شارلمان الذي أقام إمبراطورية، تعد بحق مقدمة في مسلسل بناء أوربا الموحدة.

ويجب التنبيه، قبل المضي قدما في تفصيل الموضوع، من أي تأويل خاطئ لهذه المسألة لأن نظرة شارلمان كان يغلب عليها في البدء طابع "وطني"، أو نوع من الشعور القوي بالانتماء إلى الفرنجة. ويتجلى هذا الأمر في كون الإمبراطورية التي أقامها كانت إمبراطورية إفرنجية في المقام الأول؛ كما يتجلى أيضا في كون هذا الملك-الإمبراطور فكر مرة في إعطاء أسماء إفرنجية للأشهر التي تتألف منها السنة الميلادية. ومثل هذه المعطيات أساسية، وقليلا ما نبه إليها الباحثون، ولذلك لا مناص من استحضارها عند الحديث عن المصير الذي آل إليه مشروع شارلمان، لأن فشله، يمثل أول فشل لجميع المحاولات التي رامت بناء كيان أوربي موحد، يهيمن عليه شعب أو إمبراطورية. وبناء على ما تقدم، فإن المحاولات التالية التي قام بها كل من شارل الخامس أو نابليون بونابارت أو أدولف هتلر، كانت في عمقها محاولات مناهضة لمشروع الكيان الموحد (des tentatives anti-Europe) ولدلك انتهت إلى الفشل. وتتضمن محاولة شارلمان بدورها شيئا قليلا من هذا المصير.

1) صعود الكارولنجيين

تحقق صعود الكارولنجيين كقوى فاعلة في غالة عبر مرحلتين : كانت الأولى بين نهاية القرن الخامس ونهاية القرن الموالي، زمن حكم كلوڤيس وأبنائه. وكانت الثانية خلال القرن الثامن.

فقد كان يحكم مملكة غالة منذ قيامها سنة 511 ملوك ينحدرون من الأسرة الميروڤنجية. وحدث أن أصبح يحكمها منذ مطلع القرن السابع ملوك مجردين من أي

سلطة فعلية، عرفوا في العصر الوسيط بالملوك "الغير مجديين" أو "الملوك اللذين لا لزوم لهم". وعرفهم المؤرخون المحدثون "بالملوك الكسالى". ترك كل واحد منهم أمر تدبير شؤون المملكة بين يدي قطب، يقوم بتدبير دواليب السلطة، يعرف بمحافظ القصر (le maire du palais). كان يتم اختيار هذا الأخير من بين أفراد الأسرة البيبينية (les Pippinides) المنحدرة من منطقة لييج (Liège)، ومع مرور الزمن أصبحت هذه وظيفة محافظ القصر متوارثة أبا عن جد.

ويعتبر شارل، المعروف "بشارل المطرقة" (Martel Charles) أبرز هؤلاء المحافظين. تحمل مهام "المحافظة" سنة 714 بعد أبيه بيبن هرسطال (Pépin d'Héristal). وقد طبقت شهرته الآفاق، وعد الملك الفعلي بعد الانتصارات التي حققها في مختلف الوقائع التي خاضها، وأشهرها وقعة بواتيي ضد المسلمين.

واعتلى بعد وفاته سدة الحكم ابنه بيبن (Pépin) الذي نجح في استثمار شهرة ونفوذ أبيه، فانفرد بالحكم وأزاح آخر الملوك الميروڤنجيين. ووضع التاج الملكي على رأسه سنة 751 في مجمع ضخم انعقد ببلدة سواسون (Soissons) حضره كبار الأعيان من الخاصة اللائكيين وكبار رجال الدين.

والأهم من كل هذا وذاك، هو أن عملية "تنصيب" بيبن، تمت للمرة الثانية سنة 754 ببلدة سان- دوني (Saint-Denis) تحت إشراف البابا. وكان بمعية بيبن ساعة حدوثها ابناه كارلمان (Carloman) وشارل (Charles). كانت العملية غنية بالرموز وذات دلالات قوية، وتفيد بعودة أحد الطقوس الدينية المهمة المواكبة لعملية تنصيب شخص كملك وكقائد مسيحي في ذات الوقت. ومثل هذه الطقوس ترسخ هيبة المملكة على امتداد سنوات وقرون، ولذلك نرى أن امتداداتها ما زالت قوية الحضور في أوربا إلى يومنا هذا.

وأرى أنه من المفيد التذكير في هذا الصدد بأن ملوك القوط الغربيين حاولوا، زمن حكمهم لشبه جزيرة أيبيريا، أجرأة الطقوس الدينية المواكبة لعملية التنصيب، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل. ولم يسع الملوك الذين حكموا خلال فترة حرب الاسترداد أو بعدها إلى إحياء هذه الطقوس. وإن أنجلترا وحدها هي التي ظل فيها الملوك، منذ القرن الثامن، متشبثين بعملية وضع تاج الملك على رؤوسهم في خضم احتفالات وطقوس دينية، ولذلك ظلت هناك منافسة خفية بين ملوك فرنسا وملوك أنجلترا طيلة العصر الوسيط. وكان ملوك فرنسا يتشبثون بأحقية ممالكهم وأسبقيتها في أن تكون ممالك مقدسة، لأنهم ظلوا يعتقدون بأنهم (هم وممالكهم) ورثوا هذه القدسية منذ فترة تعميد كلوڤيس بعد اعتناقه للمسيحية. وكان من الطبيعي أن تحظى مسألة

قدسية الملك والمملكة بمثل هذه الأهمية لأن لقب الإمبراطور لم يعد متداولا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية.

ومهما يكن من أمر، فإن ببين (Pépin) الملك "المقدس" توفي سنة 768، وترك الحكم بين يدي ابنيه كارلمان وشارل جريا على عادة الملوك الفرنجة. فاقتسم الأخوان المملكة، غير أن كارلمان لم ينعم بطعم الحكم والسلطة لفترة طويلة، إذ وافته المنية ثلاث سنوات بعد وفاة أبيه، فانفرد شارل بالحكم ووطد سلطة الأسرة الكارولنجية في مملكة غالة.

2) شارلمان الأوربي الأول؟

يعتبر شارلمان، من وجهة نظر التقاليد الإفرنجية والبربرية (الجرمانية) محاربا مقداما قبل كل شيء. وقد خاض بالفعل سلسلة حروب طويلة واكبتها عمليات نشر للديانة المسيحية. وجرت وقائع تلك الحروب، كما هو معروف، في مجال جغرافي واسع امتد بين شرق غالة وجنوبيها الشرقي والغربي.

ففي الجبهة الشرقية، تركزت الوقائع التي خاضها في جنوب وشمال جرمانيا. وتأرجحت بين الانتصار الكاسح والانتصار المحدود. فقد تمكن محاربوه من هزم الآڤاريين (les Avars) وضم منطقة بڤاريا لحظيرة مملكة غالة سنة 788. غير أنهم لم يلاقوا نفس النجاح ضد السكسونيين، رغم سلسلة الحملات العنيفة التي قاموا بها ضدهم بين سنتي 772 و803.

أما في الجبهة الجنوبية، فتركزت حروبه في ايطاليا وفي شبه جزيرة أيبيريا. وتأرجحت حصيلتها هي الأخرى بين النجاح الباهر والانتصار المحدود. فقد كان الانتصار كاسحا ضد اللومبارديين الذين أزاحهم عن معظم مناطق ايطاليا الوسطى، وحمل تاج ملكهم على رأسه، مستغلا في حملاته ضدهم دعوة البابا لاستئصال شأفتهم بعد أن اقتطعوا أجزاء من ممتلكات البابوية، وتجرؤوا غير ما مرة على اقتحام مدينة روما. وعلى العكس من ذلك، لم يحالفه الحظ ضد مسلمي شبه جزيرة أيبيريا. فقد عاد محاربوه منها بخفي حنين بعد وقعة الرونسڤال الشهيرة[1]. ولم يعد لهم من موطئ قدم

[1] - تدعى أيضا وقعة الروسنسڤال في الدراسات الأوربية، ووقعة باب الشزري في الدراسات العربية. والواقع أنها لم تكن معركة بالمعنى المتعارف عليه، بقدر ما كانت عبارة عن هجوم مباغت قام به فيلق من المحاربين البشكنس على المحاربين الذين كانوا يشكلون مؤخرة الجيش الفرنجي عند عبورهم لممر الرونسڤال (Col de Roncevaux) الواقع غرب جبال البرانس. وتذكر بعض الروايات أن البشكنس قاموا بذلك الهجوم (الذي حدث يوم 15 غشت 778) انتقاما من الفرنجة الذين شنوا حملة على مدينة بنبلونة (Pamplona)، قصد التزود بالمؤونة فيما يبدو، وهم عائدين الى غالة بعد "حركة" قاموا بها في الأندلس للسيطرة على مدينة سرقسطة وضمها الى بعض مدائن وقرى شبه جزيرة أيبيريا ← سبق أن بسطوا عليها سيادتهم. ويستفاد من إحدى الدراسات الحديثة، التي تناولت موضوع الوقعة، أن مؤخرة الجيش

بها سوى الثغر الذي سيشكل فيما بعد قمطية قطلونيا بالإضافة إلى بعض الأراضي الواقعة في منطقة اللانڭدوك.

3) التحالف بين الفرنجة والبابوية
شارلمان إمبراطورا

تكللت استجابة شارلمان لنداء البابا بانتصارات بينة ردت الاعتبار للبابوية. فشكلت بذلك فرصة لتمتين الروابط بين الفرنجة وهذه المؤسسة الدينية العتيدة.

ويبدو، أن البابوية وجدت في الأسرة الكارولنجية مناصرا قويا يمكن أن تعتمد عليه في تحقيق مشروع ذي صبغة "أوربية"، كانت بصدد التفكير في انجازه، وهو إعادة إرساء دعائم الغرب الأوربي كإمبراطورية تحت سلطة الكارولنجيين. وهذا ما تحقق بالفعل في خضم احتفالات البابوية بحلول سنة 800 التي شرفها شارلمان بحضوره. فوضع البابا ليون الثالث (Léon III) التاج الإمبراطوري على رأسه.

ويمكن الجزم بأن هذا الحدث كان يخدم المسيحية اللاتينية الغربية في توجهها الحديث النشأة نحو الاستقلال عن الإمبراطورية البيزنطية الإغريقية الأرثوذوكسية. وكان للحدث، بطبيعة الحال تداعيات وامتدادات تحكم الواقع التاريخي في مجراها، فجعل من شارلمان أبا لأوربا.

ولا يمكن الإنكار بأن نصوصا كثيرة تعود للقرن التاسع للميلاد تنعت شارلمان بلقب "رأس أوربا" (tête de l'Europe). والواقع أن اللقب كان مجرد تشريف، ومجرد تعبير خيالي، أكثر من كونه صورة حقيقية للواقع التاريخي، على اعتبار أن أوربا "الشارلمانية" كانت أوربا محدودة من الوجهة الترابية، لأن رقعتها الجغرافية لم تكن تشمل الجزر البريطانية التي كانت مستقلة يحكمها الأنجلوسكسونيون والايرلنديون. كما لم تكن تشمل شبه جزيرة أيبيريا التي كان يحكم معظم مناطقها المسلمون. وبالإضافة إلى ذلك لم تكن تشمل مناطق ايطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية، فضلا عن مناطق العالم الإسكندناڤي التي ظلت مجالا وثنيا ينطلق منه الڤيكينڭ النورمانيون للسلب، أو لفرض مبادلات تجارية تكون لصالحهم.

الفرنجي، الذي كان مؤلفا من حوالي 15000 محارب، ابيدت عن آخرها. أنظر كتاب الباحث الباسكي- الفرنسي بيير ناربيتز :

Pierre Narbaitz, Orria, ou la bataille de Rncevaux (15 aout 778), Bayonne, Les Editions, Zabal, 1978.

وخلاصة القول هي أن المناطق التي كانت تدخل فعلا ضمن دائرة نفوذ الكارولنجيين، كانت تقع شرق نهر الراين. بل إن معظم مناطق جرمانيا كانت خارج نفوذهم، وخاصة منها مواطن السلاڤيين التي ظلت وثنية، وتمتنع عن السقوط في قبضة الكارولنجيين.

ولعل أهم حقيقة يمكن استخلاصها في هذا المجال، هي أن عملية التتويج التي وضعت البابوية خطتها وشارك شارلمان في تنفيذها بكل طواعية وتلقائية، كانت في جوهرها عبارة عن عودة إلى الماضي. كما كانت عبارة عن سعي حثيث لإحياء الإمبراطورية الرومانية، أكثر من كونها مشروع مستقبل، يتم توجيه مصير أوربا على هداه.

ولاشك أن شارلمان حين قرر إنشاء أيكس لاشابيل (Aix-la-Chapelle) كحاضرة جديدة لمملكته في الموطن القديم الذي ينتمي إليه الفرنجة كان يفكر أن يجعل منها "روما القادمة". ويمثل هذا الإجراء تحديا لروما الجديدة، أي القسطنطينية. والأهم من ذلك، هو أن هذا الإجراء كان عبارة عن رؤية إلى الخلف نحو روما التي لم تكن قاعدة لإمبراطورية كارولنجية أوربية، وإنما عاصمة لبابا لا يمتلك من القوة والنفوذ سوى النزر اليسير.

وشاءت الأقدار أن تتراجع مكانة أيكس لاشابيل بعد وفاة شارلمان. ولم تعد عاصمة للغرب، رغم ما نسج حولها في مؤلفات العصر الوسيط. والواقع أن مجموعة منشآت فقط، هي التي ظلت قائمة بها تشهد على حلم شارلمان. وإن بعض التظاهرات ذات الطابع الأوربي التي تحتضنها هذه المدينة بين فينة وأخرى، ليست سوى مجرد تعابير عن الحنين إلى الماضي.

وفي ضوء ما تقدم من معطيات، يمكن الحكم على التجربة الكارولنجية بكونها كانت تجربة فاشلة، إذا ما وضعت في المدى الطويل، ونظر إليها طبعا كتجربة وحدوية.

ولتزكية هذا الحكم، لا بأس من إحالة القارئ على فقرة من بحث سبق أن عبر فيها المؤرخ الايطالي-الأمريكي روبيرتو سباتينو لوبيز (Roberto Sabatino Lopez) عن وجهة نظره في الموضوع. وقد ورد في تلك الفقرة ما يلي : " لا يمكن بأي وجه أن ننعت أمرا بكونه يمثل تمهيدا لأوربا الموحدة، في وقت يجب أن ننعت فيه ذلك الأمر بكونه منطلق خاطئ. إن من يتحدث اليوم عن أوربا لا يفكر في ديانة موحدة، أو في دولة جامعة، ولكن يفكر في مجموعة مؤسسات سياسية وفي معارف دنيوية وفي تقاليد فنية وأدبية وفي مصالح اقتصادية واجتماعية تساعد على تجانس

فسيفساء من الآراء ومن الشعوب المستقلة. ومن هذا المنطلق، فإن الإمبراطورية الكارولنجية تبدو لنا كمجهود محمود، ولكنه مجهود غير صائب في نهاية المطاف"[1].

4) الإرث الأوربي لشارلمان

رغم غلبة الطابع الميثولوجي على المشروع الكارولنجي، فقد تواصل مفعول بعض العناصر التي قام عليها، والتي تمثل قاعدة أوربا المستقبلية. ويتعلق العنصر الأول بمنظومة القوانين، ويتصل العنصر الثاني بالعملة ، بينما يهم العنصر الثالث المؤسسات الدينية.

فقد اصدر شارلمان، كما هو معروف، مجموعة مراسيم وقوانين سرى مفعولها في مجموع أقاليم الإمبراطورية. خضعت لها جميع فئات المجتمع، وهمت الإدارة الترابية ومختلف الأنشطة الاقتصادية والمجالات السياسية والقانونية وغيرها.

وتجدر الاشارة في هذا الصدد الى أن الملوك الكارولنجيين ورثوا ترسانة القوانين التي كان معمولا بها في العهد الميروڤنجي. كانت تلك الترسانة في الأصل عبارة عن مجموعة أعراف تم تدوينها لتصبح منظومة قانونية كما سبقت الإشارة إلى ذلك فيما مضى.

كانت تلك المنظومة القانونية تقوم على أساس "حق الفرد". وبمقتضاها، فإن الشخص الإفرنجي كان يحتكم لقانون، والشخص البورغندي يحتكم لقانون، والقوطي يخضخ هو الآخر لقانون، وهكذا دواليك. وقد حاول شارلمان إلغاء هذه القوانين الفردية والعرقية وإقرار قوانين عامة "وضعية" يحتكم إليها جميع الرجال والنساء المستقرين في كل دائرة ترابية يشملها نفوذ الإمبراطورية، بغض النظر عن انتماءاتهم الاجتماعية أو العرقية. وقد شرع فعلا في مباشرة هذا الإصلاح الذي لم يكتمل مع الأسف. ومع ذلك، فإن المحاولة كانت ذات صبغة ثورية بكل المقاييس. ويمكن اعتبارها لبنة في اتجاه إقرار وحدة قانونية أوربية.

وبالمثل، سعى شارلمان أيضا إلى توحيد العملة المتداولة، وذلك بإقرار نظام نقدي تمثل العملة الفضية قاعدته، والدنير (le denier) وحدته النقدية. ولم يحقق هذا النظام النقدي، مع الأسف، التطور المنشود لأن عوائق حالت وقتئذ دون تطوره. وأهم هذه العوائق محدودية المبادلات البعيدة المدى، خاصة مع العالم الإسلامي.

---

[1] - للاطلاع على الفقرة التي أوردها المؤلف عن لوبيز، وللوقوف على وجهة نظرهذا الأخير بخصوص مشروع شارلمان، يمكن العودة لكتابه :

Naissance de l’Europe, Paris, A. Colin, 1962. page 90 et suivantes.

وإذا كانت نجاحات شارلمان محدودة نسبيا في المجالين السالفي الذكر، فقد حقق وخلفائه من بعده نجاحا حاسما فيما يتعلق بوحدة الأديرة. ولا يمكن بأي حال التقليل من أهمية هذا النجاح، لأن الأديرة كانت كثيرة، ولأنها اضطلعت بأدوار كبرى في حياة الأفراد والمجتمع، ولأن الرهبان المنخرطين فيها كانت لهم حظوة في أوساط العامة.

ولتفصيل الأمر أكثر، نذكر بأن عدد المؤسسات الديرية كان في تزايد مطرد منذ مطلع العصر الوسيط. وكانت تتبع أنظمة مختلفة، فارتأى الأسقف سان بينوا الأنياني (Saint Benoît d'Aniane)[1]، أحد أقطاب هذه المؤسسات الدينية، العمل على توحيد أنظمتها فلقي مشروعه كل الدعم من قبل شارلمان. وانعقدت عدة مجامع دينية قصد بلورة تصور واضح للمشروع. وإذ لم يكتب لشارلمان أن يعاين وحدة هذه المؤسسات وهو حي يرزق، فقد قدر لها أن تتحقق في عهد خلفه لويس التقي (Louis le Pieux). إذ أصبحت الطريقة البندكتية[2] منذ العام 816 الطريقة الملزمة لجميع أديرة الإمبراطورية.

---

[1] - ولد حوالي سنة 750 في أحضان أسرة نبيلة، وترعرع في قصر ملوك غالة منذ عهد بيبن القصير. وكان من الممكن أن ينخرط خلال ما تبقى من حياته في سلك حملة السيف لأنه شارك سنة 773 في حملة ضد لومبارديي ايطاليا. غير أن حدث وفاة أحد إخوته غرقا في السنة الموالية للحملة، وفشله في انقاذه غير مجرى حياته، فتحول الى راهب من مريدي أحد أديرة ضواحي ديجون (Dijon). ثم غادر هذا الدير سنة 780، وعادالى مسقط رأسه حيث أنشا ديرا أصبح يعرف فيما بعد بدير أنيان، وأشتهر مريدوه باتباع طريقة بينوا الأنياني.

ويجمع المؤرخون القدامى والمحدثون بأنه استلهم معظم مبادئ طريقته من طريقة القديس بينوا النورسي، ولذلك اعتبروه تلميذا مخلصا "للشيخه"، ومتمما لمشروعه، واليه يعزى الفضل في انتشار الطريقة البندكتية (نسبة الى القديس بينوا النورسي) في غالة، وفي سائر أنحاء الغرب المسيحي.

[2] - تنسب هذه الطريقة، كما ذكرنا في الهامش السالف، للقديس بينوا النورسي (Benedictus de Nurcia) الذي يحتمل أن يكون قد ولد بين سنتي 480 و490 في أحضان أسرة ايطالية نبيلة متمسكة بالمسيحية، ولذلك اختارت أن تسمي مولودها "بندكتوس" (بمعنى المنعم أو المكرم)، وكأنها كانت ترسم له معالم الطريق التي سيسلكها في حياته.

فبعد أن ترعرع اصبح فعلا راهبا في موناستير مونتيس كاسينو(Mont Cassin). وسرعان ما ترأس مريدي هذا الدير وأنشأ منهم طائفة يرتدي أعضاؤها زيا موحدا ويعتبرون أنفسهم إخوة وهو بمثابة أب لجميعهم (Abbé ← Abba). وشرع لهم مجموعة مبادئ ارتأى أن تقوم عليها أنشطتهم اليومية. استقى تلك المبادئ من الكتاب المقدس، ومن مؤلفات رجال الدين المسيحيين الأوائل وسيرهم. وصاغها في مؤلف من 73 فصلا مسبوقة بديباجة، عرفت منذ ذلك الوقت بالطريقة البندكتية. وتقضي بأن يوزع أعضاء الطائفة يومهم بين الصلوات الفردية والجماعية وتلاوة وتدارس الكتاب المقدس والعمل اليدوي، لتحقيق مقصد سامي وهو التقرب الى الله.

توفي القديس بينوا سنة 547. ووري جثمانه الثرى في نفس الموناستير الى أن تم نقل بقايا رفاته، قرنين بعد ذلك، الى دير فلوري (Fleuy-Sur-Loire).

ولتكوين فكرة ضافية عن التنظيم البندكتي يمكن الاطلاع على كتاب الراهب البندكتي الألماني دوم ستيفانوس :
Dom Stiphanus Hilpish, Histoire du monachisme bénédictin, traduit de l'allemand, Paris, Tequi, 1989.

ولا تخفى على أحد قيمة ودلالات هذا الانجازاذا ما استحضرنا أهمية الأدوار الاجتماعية والفكرية والدينية التي اضطلعت بها المؤسسات الديرية في مجموع مناطق العالم المسيحي.

5) أوربا المحاربين...

حدث تحت تأثير سلطة رجال الدين، من أساقفة وقساوسة ورهبان، أن تحققت وحدة أوربية ذات وجهين. يمكن نعت وجهها الأول "بأوربا المحاربين" وتسمية وجهها الثاني "بأوربا الفلاحين".

تتضح قسمات الوجه الأول بالعودة إلى ماضي الفرنجة. فقد كانت حياتهم تقوم على الحرب الدائمة. جميع الرجال من الفرنجة كانوا محاربين يخضعون لسلطة زعيمهم. وبعد استقرارهم بغالة، عقب غزوات القرن الخامس، ظلوا يتبنون هذا النظام. وكان جميع سكان المملكة يخضعون بمقتضاه لسلطة الملك. وظل الأمر كذلك خلال العهد الإمبراطوري. كما اعتبر جميع الرجال من هذه الوجهة محاربين، كل واحد منهم كان ملزما بتقديم الخدمة العسكرية؛ أو بصيغة أكثر دقة، فإن كل رجل حر، كان يعد محاربا ويتوجب عليه المشاركة في الحملات العسكرية التي يقودها الإمبراطور. ويمكن أن تكون مشاركته مباشرة أو من خلال انتمائه إلى فيلق يعمل تحت إمرة سنيور.

ومن المفيد التذكير في هذا الشأن بأن الستة والأربعين سنة التي قضاها شارلمان على رأس المملكة-الإمبراطورية الكارولنجية مرت كلها في حملات متتالية كل سنة باستثناء سنتي 790 و807. وتمثل العنصر الضارب في الجيوش التي قامت بهذه الحملات في الفرسان المرتدين للدروع (la cavalerie cuirassée).

كان جميع الرجال الأحرار يستنفرون للمشاركة في تلك الحملات. وكل واحد منهم كان ملزما شخصيا، أو من خلال السنيور الذي يقوده للحملة، بتقديم فرس وقطعة سلاح. وتقوم الحرب، وتنتهي وقائعها بالحصول على غنائم.

كانت الحرب تعد نشاطا أساسيا في الإمبراطورية. بل يمكن القول، بأن هذه الأخيرة قامت واستمرت على الحرب وعلى الغنائم، شأنها في ذلك شأن جميع الإمبراطوريات التي قامت في التاريخ منذ عهد الإسكندر المقدوني حتى عهد الرسول محمد.

يمكن تقدير عدد المحاربين الذين كانوا يستنفرون من قبل الإمبراطور لخوض الحملات السابق ذكرها بحوالي 50 000 رجل، من بينهم حوالي 2000 أو 3000

كانوا يخوضون الحروب على ظهور الخيول. وأستغل هذا المقام للتذكير بأن المعطيات الرقمية لم تحتل موقعا متميزا في ثقافة مجتمع العصر الوسيط، لذلك فإن الباحث يلاقي صعوبات جمة عند الرغبة في تبني مقاربة كمية لمعالجة أي نشاط من أنشطة هذا المجتمع، بما في ذلك الحرب التي كانت أبرز نشاطاته[1].

وأهم ما يمكن قوله بخصوص المحاربين، هو أن قادة الجند كانوا أثرياء بما كانوا يحصلون عليه من غنائم، ولكن أيضا بما كانت تدره عليهم "الدومينات" (les domaines) الكبرى التي كانت في حوزة كل واحد منهم، وربما كان مردودها أكبر.

وغني عن البيان، أن السلطة اقترنت دائما بالثروة. ومن هذا المنطلق، فقد غدت الأرض خلال العصر الوسيط مصدر الثروة والسلطة. ولذلك صدق الباحثون، حين ذهبوا إلى التأكيد بأن تحولا جبائيا تزامن مع ميلاد العصر الوسيط. لأن الضرائب أصبحت عينية يدفعها الأفراد لكبار الملاكين العقاريين الذين سيصبحون "سنايرة" (des seigneurs) في المستقبل. و لم يكن الأفراد المشار إليهم سوى عموم الفلاحين الذين كانوا يشكلون الغالبية الساحقة في مجتمع العصر الوسيط.

6) ... والفلاحين

شكل الفلاحون فعلا قرابة ٪90 من المجتمع. وكانت وضعياتهم (من وجهة نظر قانونية-اجتماعية) متباينة. فمنهم من كان يحيا وضعية العبد المملوك لسيده يتصرف فيه كيفما شاء بالبيع أو الشراء أو الاستبدال.

والحقيقة أن عدد العبيد ظل في تراجع مستمر منذ بداية العصر الوسيط، ولكن ظاهرة العبودية ظلت مستمرة، إذ لم تعمل المسيحية على انتفائها، رغم مرور قرون على ظهور هذه الديانة وانتشارها وتحولها إلى ديانة رسمية. والملاحظ أن بعض أشكال الارتباط بين أشخاص أحرار وضيعين وآخرين يملكون الثروة أخذت تلوح في الأفق. وهكذا، أصبحت تنسج روابط بين عدد من الفلاحين ومالكي "الدومينات" الكبرى. وبمقتضى هذه الروابط، أخذ عدد من الفلاحين يتحولون إلى أقنان. كانوا يقومون باستثمار جزء من " دومين" المالك العقاري خلال عدد من أيام الأسبوع في إطار ما يعرف بنظام السخرة (la corvée).

لا بأس من استغلال مسألة الحديث عن الجزء المستثمر من الدومين، للافادة بأن كل وحدة من هذه الاستغلاليات الكبرى كان يتم تقسيمها، في الأغلب الأعم، إلى قسمين : قسم يدعى "المستبقية" (la réserve) يستثمره مالكه عن طريق تسخير عدد

---

[1] - أنظر ما يورده جون فلوري (Jean Flori) عن قيمة الأرقام عند إخباريي العصر الوسيط في كتابه :
Croisade et chevalerie XIe-XIIIe siècle, Paris-Bruxelles, De Boeck Université, 1998.

من الفلاحين الأقنان المشار إليهم منذ حين، وقسم آخر يوزعه عليهم، يستثمرونه لسد حاجياتهم (وحاجيات أسرهم) المعاشية.

كانت أعداد هؤلاء الأقنان في تزايد مطرد، ورغم ذلك فقد استمر وجود فئة من الفلاحين الأحرار، الذين كانوا يملكون استغلاليات أسرية خاصة يستثمرها كل واحد منهم بمعية أفراد أسرته.

يمكن اختتام الحديث عن الفلاحين بالإشارة إلى أن ظاهرة السخرة أصبحت تتراجع، منذ عهد شارلمان، ولو بإيقاع بطيء. ثم أخذت تتراجع بسرعة بعد ذلك، في سياق تنامي حركة "انعتاق" فئة الأقنان (le mouvement d'affranchi-ssement). فاضطر معظم مالكي الدومينات الكبرى، تبعا لذلك، إلى تقليص مساحة الجزء من الدومين الذي كانوا يستثمرونه في إطار نظام السخرة، فيما حاول مالكون آخرون إرساء شكل جديد من أشكال القنانة. وقد ترسخ هذا الشكل في مناطق شرق أوربا بصفة خاصة. فكان سببا من بين الأسباب التي جعلت هذه المناطق تسلك في تطورها مسلكا مختلفا عن مسلك مناطق الغرب.

وأهم ما يمكن استخلاصه من وراء الحديث عن قسمات وجه "أوربا الفلاحين" هو أن عالم الأرياف احتل موقعا متميزا في تاريخ أوربا قديما وحديثا، وأن النشاط الزراعي حظي باهتمام المجتمع الريفي كما باهتمام القائمين على الأمر. ولعل المراسيم التي أصدرها شارلمان لتنظيم النشاط الزراعي لخير دليل على ذلك، رغم ذهاب البعض إلى القول بأنها كانت تهدف بالأساس إلى تنظيم "الدومينات" التي كانت في حوزة الأسرة الحاكمة.

7) الحضارة الكارولنجية شريحة أوربية

لعل أبرز نجاح حققته أوربا الكارولنجية تجلى في مجال الحضارة. ومن عجيب الصدف أن الشخص الذي حقق هذا النجاح، أي شارلمان، كان ذا مستوى ثقافي متواضع، بحيث لم يكن يميز بين الأحرف، كما لم يكن يستطيع الكتابة. ورغم هذه المعيقات، كان حكمه يقوم على مبدأ مفاده أن المعرفة أداة أساسية لممارسة السلطة. ومن ثم، فمن واجب القائم بالأمر العمل على الحفاظ على المعرفة وتطويرها. وتبعا لذلك اقتنع بضرورة الاعتماد على الأساقفة لتحقيق هذا المسعى والبدء أولا، وقبل كل شيء، بتكوين أبناء الأعيان اللائكيين الذين كانوا يساعدونه في تدبير شؤون الإمبراطورية.

ومما لاشك فيه، أن هذا المشروع الطموح كان يتجاوز إمكانيات الفرنجة الذين ينتمي إليهم، ولذلك فكر في الاستعانة بجميع الكفاءات، حتى وإن كانت لا تنتمي

للإمبراطورية. واستجابة لرغبته، قدم عدد من الأعلام من مناطق بعيدة عن الإمبراطورية، وانضموا لفرق عمله. فكان من بينهم على سبيل المثال بولس دياكر (Paul le Diacre) اللومباردي، وثيودولف القوطي- الأورلياني (Théodulf d'Orléans) وألكوين (Alcuin) الأنجلوسكسوني، الذي أصبح أحد أبرز مستشاري شارلمان. فقامت على عاتق هؤلاء النهضة الفكرية التي شهدتها الإمبراطورية الكارولنجية.

غير أن إشعاع هذه النهضة لم يتجاوز كثيرا حدود القصر في عهد شارلمان، لأن الأعلام السالف ذكرهم أنشأوا به ما يشبه الصالون الأدبي. فظلوا لوحدهم المنتجين والمستهلكين للمعرفة. وتغير الوضع نسبيا في عهد خلفاء شارلمان، حيث انضم عدد من الأديرة لهذه النهضة، فغدت هي الأخرى فضاءات للمعرفة. ويكفي أن نذكر في هذا السياق أن اجنهارد (Eginhard) الإخباري الشهير تلقى العلم في دير فولدا (Fulda) بجرمانيا.

وبغض النظر عما يمكن أن يقال عن جوانب القصور في هذه النهضة الفكرية، من قبيل نعتها بكونها كانت ذات منحى أرستقراطي، فهي تمثل شريحة أو طبقة من بين الطبقات التي تتألف منها الثقافة الأوربية.

ولا يمكن البتة إنكار ما أفضت إليه من نتائج ايجابية من بينها، على سبيل المثال، تحسين جودة الخط وضبط عملية الوقف. فقد غدا الخط منذ هذه الفترة بسيطا أكثر وأنيقا أكثر وسهل القراءة والكتابة معا. فعد في نظر بعض الباحثين أصل الخط الذي تبناه الأوربيون فيما بعد. كما تم ضبط الوقف، بتصحيح مواقع وضع الفواصل والنقط. وتجلى هذا الأمر بوضوح في نسخ الكتاب المقدس التي تم وضعها منذ هذه الفترة.

8) فرنسا وألمانيا وايطاليا قلب أوربا النابض

تسمح قراءة مؤلفات القرن التاسع بالقول بأن كل ما كتب عن الإمبراطورية الكارولنجية كتب تحت يافطة أوربا، وكأن ثمة تطابقا بين كلمتي أوربا والإمبراطورية. وتتحدث نماذج من تلك المؤلفات عن شارلمان بوصفه "رأس أوربا"، أو "أب أوربا"، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في مبحث سابق.

والحقيقة أن وحدة أوربا السياسية تحققت إلى حد ما في عهد الإمبراطورية الكارولنجية. ولكنها لم تستمر بعد وفاة شارلمان سنة 814. بل إن مقدمات انفراط الوحدة بدأت قبل هذا التاريخ. فقد سبق لشارلمان أن عهد بحكم منطقة أكيتانيا لابنه لويس منذ سنة 781. ثم أصبح هذا الأخير حاكما لمجموع مناطق الإمبراطورية بعد

سنة 814. ولكنه لم يتمكن من الصمود أمام ضغط ابنيه لوثير(Lothaire) ولويس الجرماني (Louis le Germanique) الراغبين في الحكم، فاضطر إلى تقسيم الإمبراطورية بينهما على عادة ملوك غالة الأوائل. وتأكد هذا التقسيم بين الأخوين بمقتضى معاهدة أبرمت بينهما في مدينة ستراسبورغ سنة 842. والملاحظ أن نص هذه المعاهدة عد أول نص رسمي كتب بلغة دارجة "فرنسية" (francien) "جرمانية" (germanique).

والأهم من ذلك، هو أن عملية التقسيم تأكدت بعد ذلك وأصبحت قدرا محتوما عقب توقيع معاهدة ڤردان (Verdun) الشهيرة سنة 834. وبمقتضاها أصبحت مناطق غرب أوربا تتألف من قسمين هما فرنسيا (la Francie) الغربية وفرنسيا الشرقية. تقطنهما مجموعتان كبيرتان من السكان ستعرفان مستقبلا بالفرنسيين والألمانيين. وكانت تقع بين المنطقتين منطقة تميل إلى الطول وتمتد بين مدينتي أيكس لاشابيل وروما.

وبعد تجاذبات وأحداث سياسية وعسكرية، ستتبلور خارطة هذا المجال الجغرافي أكثر فأكثر، فأصبح يتشكل من ثلاث دول كبرى هي فرنسا وألمانيا وايطاليا. وسرعان ما برزت إلى جانب هذه الدول الثلاث دول أخرى متفاوتة القوة.

ومما لاشك فيه أن استحضار هذه الوقائع التاريخية أمر ضروري لفهم حيثيات انبثاق أوربا الموحدة، ولفهم كنه الدور الذي يرغب أن يضطلع به حاليا ساسة كل من فرنسا وألمانيا؛ اللتين تبدوان كزوج حريص على استقرار الاتحاد الأوربي. ولكن هذا الزوج تربط بين طرفيه وشائج تميل إلى التنافس أحيانا وتميل إلى الغيرة في أحايين أخرى.

الفصل الثالث

أوربا المحلوم بها
وأوربا الممكنة في سنة ألف

1) أوربا الإمبراطورية الأتونية

شاءت الظروف أن تجد وحدة أوربا في كنف الإمبراطورية من يسعى مجددا لتحقيقها. لقد كان ذلك الساعي هو ملك جرمانيا أتون الأول (Otton Ier) ابن الملك هنري الأول والقديسة ماتيلد (Sainte Mathilde) الذي اعتلى العرش سنة 936.

وقد خاض، على غرار الملوك السابقين، سلسلة حروب تمكن على إثرها من ضم بعض المناطق إلى حظيرة مملكته، كما نجح في استئصال شأفة الهنغاريين

المتربصين بها. فكان أن تمت مكافئته بأن وضع البابا يوحنا الثاني عشر (Jean XII) التاج الإمبراطوري على رأسه سنة 962 في حفل مهيب أقيم بروما.

وبما أن حدثا من هذا القبيل كان من المنتظر أن يثير حفيظة إمبراطور بيزنطة، فقد بادر أتون الأول إلى طلب وده من خلال طلب يد ابنة الإمبراطور لابنه. والتفت أيضا في اتجاه الممالك السلاڤية التي أبرم معها علاقات ودية.

ودون المضي قدما في استعراض انجازات أتون الأول، يمكن القول بأن سياسته كانت ذات أبعاد أوربية أكثر من سياسة شارلمان. ومما لا شك فيه، أن التسمية التي حملتها إمبراطوريته: "الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة"، تسمية ذات دلالات كبيرة، تحيل إلى الطابع المقدس الذي أعطي لها، والى تبوأ الجرمان موقع القيادة فيها.

كانت هذه الإمبراطورية شاسعة المساحة؛ بحيث شملت جرمانيا وايطاليا وأجزاء من غالة. وقد شكلت المناطق الممتدة من الشمال إلى الجنوب بين بحر الشمال والبحر المتوسط عمودها الفقري. ويبدو أن سلسلة جبال الألب، التي لم تكن أبدا حاجزا بين ايطاليا وأوربا الشمالية، أصبحت منطقة عبور بين شمال وجنوب أوربا المسيحية. وعلى اثر ذلك غدا انتقال الأباطرة إلى ايطاليا نوعا من الطقوس السياسية، فاقتضى الأمر إعادة تهيئة المنافذ الجبلية وإقامة القناطر وتشييد مراكز لإيواء الحجاج. فأفضى كل ذلك إلى إذكاء حركة المبادلات التجارية وتنشيط التواصل البشري. وكان من نتائج هذه التحولات أن تزايدت أهمية جبال الألب في حركة العبور، فسعى حكام المقاطعات الثلاث المحاذية لها: شويز (Schwyz) وآنتر ڤالدن (Unterwalden) ويورل (Url) إلى إحداث نوع من التقارب فيما بينهم. فاجتمعوا فعلا سنة 1291 لتشكيل ما سيعرف بالكنفدرالية الهلفتيكية (helvétique) التي تعد بحق نواة غير منتظرة للديمقراطية الأوربية.

2) "أوربا الجديدة" في سنة ألف

توفي أتون الأول سنة 973 فخلفه على كرسي الإمبراطورية أتون الثاني الذي استكمل ما قام به أبوه. ثم توفي هو الآخر سنة 983 . ونودي بابنه أتون الثالث، ذي الثلاث سنوات، ملكا على الجرمان بالوصاية ثم إمبراطورا فيما بعد.

وقد اشتهر بكثرة عطاءاته للمؤسسات الدينية، فأصبحت له حظوة في روما وتقرب منه عدد من كبار رجال الدين أمثال أدالبير (Adalbert) أسقف كنيسة براغ وجربير الأورياكي (Gerbert d'Aurillac) أسقف كنيسة ريمس، الذي كان أكبر مساندي الإمبراطور، الذي سيدعمه بدوره ليعتلي كرسي البابوية سنة 999 باسم

سلڤستر الثاني. وقد تظافرت جهود الإمبراطور والبابا سلڤستر الثاني لتوحيد الغرب المسيحي الذي اتسعت آفاقه وتجددت دماؤه بانضمام شعوب جديدة إليه أبرزها الهنغاريون والسلاڤيون.

تناول عدد من الإخباريين وكتاب الحوليات بإسهاب هذه الأحداث الجسيمة، كما انضم إليهم واضعو الرسوم والجداريات، الذين عبروا عنها بلغة فنية بليغة من بينها مثلا جدارية تجسد الإمبراطور في جلالة، تحيط به مدينة روما وغالة وجرمانيا وسلاڤينيا (بلاد السلاڤ). ولعل أهم ما يفيد به هذا الرسم هو عملية توسع أوربا في اتجاه الشرق. وقد كان هذا التوسع مطمح الإمبراطور ورجال الدين معا.

وتأسيسا على ما تقدم، يمكن القول بأن التطورات التاريخية، سارت بدورها في اتجاه تأكيد انضمام هذه المناطق الشرقية إلى الكيان الأوربي، وكأن التاريخ أراد بدوره تحقيق رغبة الإمبراطور ورجال الدين. فعد هذا الحدث (القروسطوي) بحق حدثا حاسما في عملية بناء أوربا الموحدة.

يبدو أن الأحداث السياسية والعسكرية والدينية والجغرافية المشار إليها بإيجاز، لم تكن وحدها تعكس تجليات أوربا الجديدة مع حلول سنة ألف، بل واكبتها أيضا أحداث بالغة الأهمية ذات صبغة اقتصادية تجسدت في نمو اقتصادي مطرد.

ورغم أن المختصين لازالوا حتى اليوم بصدد مناقشة العوامل الكامنة وراء هذا النمو الاقتصادي، فهم يجمعون بأن وتيرته ارتفعت بين سنتي 950 و1050. ولاشك أن هذا النمو الاقتصادي، الذي عم العالم المسيحي برمته، يمثل خلفية، أو سندا، "للأحلام" التي راودت رجال السياسة ورجال الدين فسعوا جاهدين لبلورتها على أرض الواقع. وقد عبر رجل الدين راوول ݣلابير(Raoul Glabert) عن ذلك بدقة بقوله : "عند اقتراب حلول العام الثالث بعد بزوغ فجر سنة ألف كنا نرى في جميع أنحاء الأرض، وخاصة في ايطاليا وفي غالة، عمليات إعادة بناء الكنائس، رغم أن معظمها كان مشيدا من ذي قبل. فبدا وكأن رغبة جامحة كانت تدفع كل مجموعة مسيحية إلى إقامة كنيسة أفضل من تلك التي تتوفر عليها المجموعة المجاورة. فكان يقال بأن العالم نفسه سينتفض ليتخلى عن بذلته القديمة ويرتدي معطف كنائس أبيض اللون. وهكذا، فإن جميع الكنائس تقريبا، وكذا جميع الأسقفيات والموناستيرات المخصصة لجميع فئات رجال الدين، بما في ذلك المصليات الصغرى الموجودة في القرى أعاد المريدون بناءها في صورة أجمل"[1].

[1] - النص الذي أثبته جاك لو ݣوف، أورده الراهب راوول ݣلابير في مصنف وضعه سنة 1047. ويتناول الأحداث التي شهدتها أوربا بين سنتي 900 و1047. وقد نقل هذا المصنف إلى الفرنسية فرانسوا ݣيزو (François Guizot) سنة

ومهما يكن من أمر، فقد أفضى هذا النمو إلى انتعاش جميع الأنشطة المتصلة بالعمارة والعمران، من مواد أولية، وحركة نقل، وأدوات ضرورية. كما أفضى إلى تشغيل اليد العاملة، واستثمار رؤوس الأموال. وكان ذلك الانتعاش إيذانا ببداية تكاثر أوراش البناء التي تعكس ديناميكية العالم المسيحي. وسترث أوربا هذه الديناميكية التي ستتوالى على شكل موجات متعاقبة. وقد صدق المثل القائل : "عندما يكون العمران بخير يكون كل شيء على ما يرام". وقد تأكدت صحة المثل في أوربا.

والأكيد، أن هذا النشاط المادي (مبادلات تجارية، حركة عمرانية، استثمار للمال...) واكبته حركات "غليان" جماعي، ديني ونفسي. وقد وفق المؤرخ جورج دوبي (Georges Duby) كثيرا في عرض كثير من الظواهر التي برزت مع بزوغ الألفية بدءا بالعلامات التي لاحت في السماء، وتنامي حركتي التكفير والتطهير، واتساع نطاق عمليات تقديس رفات القديسين وكل الأشياء التي كانت بحوزتهم، وتزايد الإيمان بالكرامات. كانت تلك الظواهر خليطا من الآمال ومن الهواجس والأحلام[1].

وعلى كل، فحين كان قلب أوربا يخفق، فقد كان يخفق بقوة أكثر أو أقل في جميع المجال الجغرافي، من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب. وبكلمة واحدة، فإن أوربا الوجدان قد تم فك العزلة عنها.

3)"الوافدون الجدد" الأسكندنافيون والهنغاريون والسلاڤيون

قبل الحديث عن الوافدين الجدد، وعن صلتهم بعملية انبثاق أوربا، من المفيد التذكير بما قيل عن أتون الثالث، وعن انضمام شعوب جديدة إلى أوربا في سياق الموجة الثانية من موجات الغزو التي تعرضت لها.

لقد أفضت تلك الموجة إلى تحول أوربا إلى مجال جغرافي مختلط الأجناس. وكانت عملية الاختلاط قد بدأت منذ أن اندمج السلاڤيون في العالم المسيحي، ثم تلاهم الكرواتيون خلال القرنين السابع والثامن.

1824 تحت عنوان "إخبارية راوول ݣلابير" (Chronique de Raoul Glaber)، ثم نشر نصه الأصلي (اللاتيني) موريس برو (Maurice Prou) سنة 1886.

وقد ولد صاحب المصنف Rodolfus Glaber، أي راوول الأصلع سنة 985، وتوفي بعد سنة 1047. ويعد واحدا من أبرز إخباريي العصر الوسيط. كما يعتبر كتابه من بين المصادر الأكثر تداولا بين المهتمين بتاريخ وحضارة فرنسا في العصر الوسيط عامة، والمهتمين بالفترة المعروفة بسنة الف (l’An Mil) بوجه خاص.

[1] - استعرض جورج دوبي الظواهر التي يشير إليها جاك لو ݣوف في مؤلفه :
L’An Mil, Paris, Gallimard, 1974.

استوطن الكرواتيون المناطق الواقعة بين البحر الأدرياتيكي ونهر الدانوب، أي بين روما وبيزنطة. وأصبحوا خاضعين، فيما بعد، لسلطة الفرنجة بمقتضى معاهدة أيكس لاشابيل التي تم توقيعها بين الطرفين (أي الفرنجة والكرواتيين) سنة 812. ورغم ذلك، ظلوا محتفظين بهويتهم بين اللاتينيين والبيزنطيين؛ وإن بدوا أكثر انجذابا نحو اللاتينيين. وكان من تبعات هذا الانجذاب أن أصبح المدعو طوميسلاڤ (Tomislav) ملكا على رأس الكرواتيين بمباركة من البابا يوحنا العاشر، الذي وضع هذه المملكة الفتية تحت الحماية "القانونية" لحظيرة الڤاتيكان وفقا للتوصيات التي انتهت إليها مجامع سبليت (Split) المنعقدة بين سنتي 925 و928.

يفهم إذا من هذا التذكير، بأن مقدم "الوافدين الجدد" إلى أوربا يندرج في سياق عمليات الزحف، وموجات الغزو التي شهدتها القارة. ويمكن التمييز في هؤلاء الوافدين بين ثلاث مجموعات تمثلت في الأسكندناڤيين والهنغاريين والسلاڤيين.

ظهر الأسكندناڤيون على مسرح الأحداث في أوربا بين نهاية القرن الثامن وأواسط القرن العاشر. وكان مسيحيو الغرب ينظرون إليهم كغزاة قدموا إلى قلب أوربا من أجل السلب والنهب. وإذ قام هؤلاء الأقوام فعلا بعمليات تستحق هذا التوصيف، فقد كانوا أيضا يمارسون نشاطا تجاريا سلميا.

برز منهم على الواجهة الدانيون، الذين أسسوا خلال القرن العاشر مملكة ذات نفوذ واسع شمل النرويج وبحر الشمال وما وراءه. وفي ايسلاندا امتلكت زمام الأمور بضع أسر شكلت أوليجارشية تحت قيادة جمعية شعبية.

ومن المفيد التكير بأن الإسلانديين تحولوا إلى المسيحية في نهاية القرن العاشر. وصادقوا في نفس الوقت على وثيقة، بمثابة دستور، لتنظيم حياتهم، وظلوا مستقلين عن الدانيين. واشتهروا بكونهم كانوا وراء ظهور جنس أدبي شبيه بالملاحم ذاع صيته في الغرب قاطبة (les sagas).

وهكذا نشأ في أقصى شمال غرب المجال الأوربي مجتمع يعيش أفراده بما يدره عليهم البحر. تبنى حضارة ساهمت في إثراء العالم المسيحي بشكل لافت. وخلافا للإسلانديين، حبذ الدانيون، في هذا الوقت بالذات، التحرك الجماعي. فقاموا بغزو بريطانيا العظمى التي ضموها إلى باقي ممتلكاتهم. وبعد مرور فترة قصيرة على بدايات الغزو اعتلى عرش مملكة الدانيين كنوت (Knut)، أو قنوت، الذي نودي به ملكا على بريطانيا العظمى وعلى الدانمارك أيضا (التي حكمها عقب وفاة أخيه هارولد الثاني الذي لم يكن له وريث).

اشتهر كنوت، الذي حمل لقب كنوت العظيم، بكونه اعتنق المسيحية وسعى خلال فترة حكمه بين سنتي 1018 و1035 إلى تشجيع عملية إنشاء الموناستيرات ونشر المسيحية بربوع الدانمارك.

وعلى غرار كنوت، بذل الأسقف أولاف (Saint Olaf)، الذي كان يحكم النرويج خلال نفس الفترة، جهودا مضنية لترسيخ المسيحية في المناطق التي كان سكانها يعتنقون هذه الديانة منذ زمن. كما عمل على استئصال شأفة الوثنيين وبناء الكنائس في مناطق أخرى. فحاز نظير ذلك لقب "الأسقف".

ومن الواضح، أن مكافئة البابوية للملك أولاف كانت بمثابة اعتراف صريح بهؤلاء الملوك وتثمين للجهود التي بذلوها من أجل نشر المسيحية. فلا غرو إذا وجدناها تساند بعض هؤلاء الملوك وتبارك الحملات العسكرية التي كانوا يقومون بها هنا وهناك.

ومن المؤكد، أن حصيلة تلك الجهود، في شقيها العسكري والديني، كانت ذات قيمة بالغة. وتجلت تلك القيمة أساسا في تحول جماعي لسكان شمال أوربا نحو المسيحية، وانضمامهم تبعا لذلك إلى أوربا المستقبلية.

ويبدو أن اعتناق المسيحية لم يكن حكرا على سكان مناطق شمال أوربا، فقد اعتنقت المسيحية، وانضمت أيضا إلى أوربا، شعوب من وسط القارة، أبرزها الهنغاريون الذين يتميزون عن غيرهم من الشعوب بكونهم كانوا يتحدثون لغة خاصة بهم. لم تكن تلك اللغة رومانية، ولا لغة جرمانية، ولا لغة سلاڤية. ولا زال هذا التميز يمثل أحد خاصيات لغة الهنغاريين المعاصرين، مما ينهض دليلا بأن التنوع اللغوي لا يمثل أبدا عائقا عند الرغبة في إنشاء وحدة ثقافية أو سياسية. وتعد سويسرا خيرمثال يجسد ذلك.

وعلى كل، فقد قدم الهنغاريون من آسيا في سياق زحف جماعي استغرق وقتا طويلا. واستطاعوا، عند نهاية القرن التاسع، تأسيس كيان سياسي بمنطقة الكاربات (les Carpates) تحت زعامة الدوق آرباد (Arpad). وتميز هذا الكيان بكون سكانه جمعوا بين خاصيات الترحال والاستقرار، لأن الهنغاريين لم يبدوا رغبتهم في الاستقرار النهائي. وما إن أسسوا هذا الكيان حتى بادروا إلى القيام بغارات عنيفة ضد بعض مناطق أوربا الوسطى. ولم يوقفوا تلك الغارات إلا على اثر الهزيمة لتي تلقوها على يد محاربي أتون الأول في وقعة سنة 955. فاضطروا إلى الكف عن الغزو وفتحوا حواضرهم وقراهم أمام المبشرين المسيحيين الذين تقاطروا عليهم من الشرق ومن الغرب.

ويبدو أن تأثير مبشري الغرب المسيحي الكاثوليكي كان أوضح. فقد أفضت جهودهم إلى تأسيس كنيسة لاتينية ببراغ. عززت دورها في نشر تعاليم المسيحية الكاثوليكية عدة أديرة تتبع الطريقة البندكتية.

شملت عملية التحول الجماعي نحو المسيحية الكاثوليكية السلاڤيين الغربيين بدورهم في شخص الكرواتيين الذين سبق الحديث عنهم. ولا بأس من التذكير في هذا الشأن، بأن المبشرين البيزنطيين حاولوا تحويل التشيكيين والموراڤيين إلى المسيحية الأرثوذكسية الإغريقية، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل كما حدث مع الهنغاريين. ولم يألوا جهدا كذلك مع السلاڤيين. فقد انبثوا في أوساطهم وربطوا علاقات وطيدة مع بعض الأعيان وذوي النفوذ أقنعوهم بإقرار خط خاص بالسلاڤيين. وشرعوا فعلا في تلقين مبادئ هذا الخط للموراڤيين خلال فترة طويلة من الزمن، ومع ذلك، فشلوا في حملهم على اعتناق المسيحية الأرثوذوكسية.

وانطلاقا مما تقدم، يتضح بأن معظم شعوب أوربا الوسطى تحولت إلى المسيحية الكاثوليكية. وكان من الممكن أن تنتشر الكاثوليكية في أوساطها بإيقاع سريع جدا لولا ظهور بعض المستجدات، وأهمها الصراع السياسي الذي اندلع بين حكام بوهيميا وحكام بولونيا حول مملكة موراڤيا.

ومهما يكن من أمر، فإن الخلاصة التي يمكن التوقف عندها هي أن عملية بناء العالم المسيحي (الكاثوليكي)، بانضمام مناطق أوربا الوسطى إلى هذا العالم، سارت وفق خطين متوازيين ديني وسياسي. فقد كانت المسيحية تنتشر بين شعوب هذه المناطق، كما كانت تقام الكنائس والمؤسسات الدينية من أجل ترسيخها وتلقين مبادئها، وفي الوقت ذاته كان يتم تأسيس الممالك وبناء المؤسسات. والملاحظ في هذا الشأن بالذات، أن عملية بناء أوربا ساهمت في ارتقاء القائمين على الأمر في أوربا الوسطى إلى مصاف الملوك، كما ساهمت في تبلور مؤسسات ملكية بهذه المناطق.

وبقدر ما كانت عملية البناء دينية وسياسية، فقد كانت "أماكنية" كذلك، على اعتبار أن عمليات تحويل الوثنيين إلى المسيحية واكبتها كذلك عمليات "تمسيح" للمواقع والأماكن، التي أصبحت تحمل بالتدريج أسماء مسيحية. وبالمثل أصبح كثير من الأفراد (الأعلام) يحملون بدورهم أسماء مسيحية. ويبدو في هذا الصدد أن إسم "مارتان" (Martin) كان أكثر الأسماء شيوعا، ولذلك نجده منتشرا كثيرا في العالم المسيحي من بولونيا حتى اسبانيا.

4) حركة "سلم" ذات بعد أوربي

لا مجال للانكار بأن العنف والشنآن كانا يطغيان على العلاقات بين الأفراد في "العالم" حوالي سنة ألف. وأقصد "بالعالم" أوربا بطبيعة الحال. ففي الوقت الذي أخذت تخف فيه حدة الصراع بين المسيحيين والوثنيين، ظهر صراع جديد بين المسيحيين أنفسهم. كان يتأجج على الصعيد المحلي أحيانا، وعلى الصعيد الجهوي في أحايين أخرى. ولذلك أخذت تتنامى يوما بعد يوم حركة قوية تدعو إلى إقرار السلم

وتجدر الاشارة في هذا المقام، الى أن المسيحية جعلت من السلم أحد أهم القيم، وأن المسيح نفسه نوه بالساهرين على إقرار السلم حتى إنه جعل منه أحد المبادئ الأساسية.

ظهرت حركة السلم في بادئ الأمر بمناطق جنوب غالة عند نهاية القرن العاشر، ثم انتشرت في باقي مناطق أوربا الغربية خلال القرن الموالي. ويربط معظم الباحثين بين نشأتها ونشأة ما يسمى بالفيودالية انطلاقا من مسألة أساسية وهي أن نجاح "السنايير" في بسط ساطتهم، كما سيتم توضيح ذلك لاحقا، تم بطرق مختلفة، من بينها العنف، الذي يعد أبرز الطرق التي استعملت لتحقيق هذه الغاية.

ولتوضيح هذا الأمر، يجدر التذكير بأن تدهور السلطة المركزية، وما ترتب عنه من فراغ سياسي في عهد آخر الملوك الكارولنجيين، فسح المجال أمام أفراد الأرستقراطية؛ الذين شرعوا في بسط سلطتهم على العامة بواسطة العنف الذي أخذ يستشري يوما بعد يوم. فترتب عن ذلك ظهور حركة السلم التي اتخذت في بادئ الأمر لبوسا دينيا بالنظر إلى كون السلم ارتبط بالمسيحية وبالمسيح كما سبق القول.

ومن هذا المنطلق، كان من الطبيعي أن تتصدر الكنيسة والفلاحون تلك الحركة. ولذلك يذهب بعض الباحثين إلى اعتبارها شكلا من أشكال الاحتجاج الاجتماعي تصدرها الفلاحون، وقامت الكنيسة باحتوائها. فعقدت لتحقيق هذا المسعى سلسلة مجامع دينية كان يشارك في أشغالها عدد من اللائكيين. انتهت تلك المجامع بالخروج بعدة توصيات وإجراءات تهدف إلى حماية عموم المستضعفين من فلاحين وتجار و نساء ومرتادي المواقع المقدسة.

وعموما، فقد أدت تلك التوصيات والإجراءات إلى بروز ما يشبه "تكتلا" أوربيا مؤلفا من أفراد عزل من السلاح في مواجهة "تكتل" أوربي مؤلف من المحاربين؛ ولكن "السنايير"، وكل الأعيان اللائكيين ذوي النفوذ، ما لبثوا أن قاموا هم الآخرين باحتواء حركة السلم، لأن التوصيات التي انتهت إليها المجامع الدينية السابقة الذكر، لم تكن تنص صراحة على نبذ العنف، بقدر ما كانت تنص على إيجاد قنوات لتصريفه (la canalisation de la violence) أو لتقنينه. ومن ثم، انبثقت حركة

"هدنة الله" (la trêve de Dieu) التي أصبحت تقضي بالتزام الهدنة في أوقات معينة.

وتوضح الحقائق بأن أفراد الأرستقراطية، الذين كان باستطاعتهم جعل نفر من المحاربين يأتمرون بأمرهم، هم وحدهم الذين كانوا قادرين على ضمان السلم. وبناء على ذلك تحولوا إلى ما يشبه الشرطة يعملون على إقرار الأمن ويمارسون السلطة أيضا، رغم أن بعض الملوك حاولوا استدراك الموقف قبل فوات الأوان. ولتحقيق هذا المبتغى ترأس كل من ملك الفرنجة روبير الثاني، المعروف بروبير التقي (Robert le Pieux) وهنري الثاني (Henri II) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية-الجرمانية اجتماعا بموقع على ضفاف نهر الموز (la Meuse) سنة 1024 انتهى بالمطالبة بضرورة إقرار "سلم عالمي". ولكن بدا من الصعب أجرأة هذا النداء؛ بل الأدهى من ذلك أن كل شخص يمتلك النفوذ والقوة أصبح يفرض السلم باسم الملك. فتحولت الحركة وفق ذلك من حركة سلم الله إلى حركة سلم ملوك، أو حركة سلم دوقات (des ducs)[1].

وكان من نتائج هذه التطورات أن غدت حركة السلم وسيلة، أو أداة، في حوزة اللائكيين الأقوياء يستعملونها لممارسة السلطة وبسط السيادة. وبذلك تم تجريدها من الطابع القدسي الذي كان يميزها في البدء، رغم أنها ظلت مطمحا ذا بعد ديني. وصارت فيما بعد مطمحا له بعد "وطني"، ثم مطمحا ذا بعد "أوربي" حتى يومنا هذا. فلا غرو إذا وجدنا ساسة أوربا وشعوبها يتخذون من تحقيق السلم مطلبا جماعيا.

5) مزار أوربي جديد في اسبانيا : شانت يقوب

حمل بزوغ فجر سنة ألف معه كثيرا من الأحداث الجسيمة ذات البعد الأوربي. فقد شهدت القارة انضمام شعوب جديدة إليها، ثم نشأت بها حركة السلم السالف ذكرها. وشهدت أيضا إبان نفس الحيز الزمني بداية عملية امتداد نحو الجنوب من خلال حركة استرداد شبه جزيرة أيبيريا من المسلمين.

---

[1] - للاطلاع على مجريات حركتي السلم وهدنة الله، وعلى وجهات نظر الباحثين المعاصرين بخصوصها يمكن العودة الى المؤلف الجماعي الذي أنجز تحت إشراف طوماس هيد (Thomas Head) وريتشارد لاندس (Richard Landes):

The peace of God, Ithaka, New York, Cornell University Press, 1992.

والى كتاب دومينيك بارثيليمي (Dominique Barthélémy) :

L'an mil et la paix de Dieu : la France chrétienne et féodale (980-1060), Paris, Fayard, 1993.

وقبل أن تنطلق فصول تلك الحركة وقع حادث مهم عند بداية القرن التاسع، تمثل في اكتشاف ضريح الأسقف الشهيد جاك (Saint Jacques) في موقع كان مدفنا زمن سيادة القوط الغربيين لاسبانيا يقع بمنطقة كومبوستيلا (Compostelle) بغاليسيا. ومنذئذ تحول الموقع إلى مزار أصبح يفد إليه المسيحيون، الذين أخذت أعدادهم في تزايد مطرد حتى غدا عند مطلع القرن الثاني عشر ثالث مزار، من حيث الأهمية، يؤمه الحجاج بعد القدس وروما.

ومما لا شك فيه، أن المزار استمد هذه المكانة المتميزة من موقعه في منطقة كانت حلبة صراع بين المسيحيين والمسلمين. فاتخذ المسيحيون سان جاك رمزا لهم وأحاطوه بقدسية كبيرة. بل بوأوه مكانة القائد في الحروب التي خاضوها ضد المسلمين، وإليه نسبوا الخسائر البشرية التي تكبدها هؤلاء. فلقبوه تبعا لذلك "بقاتل المسلمين" (Matamore).

وانطلاقا من مضامين الفقرات التي خصصناها للحديث عن شانت يقوب (سان جاك)، يمكن استخلاص عنصرين: الأول هو أن موقع كومبوستيلا أصبح يستقطب الزوار من مختلف مناطق العالم المسيحي، واتخذ موسم الحج إليه تبعا لذلك طابعا أوربيا. والثاني هو أن الحظوة والقيمة الدينية والرمزية التي أصبح يتمتع بها المزار تؤكد قيمة وأهمية المناطق الطرفدارية (les périphéries) في بناء الوحدة الأوربية.

6) أوربا تتأكد

بقدر ما كانت التطورات التي حدثت في شمال القارة الأوربية وفي وسطها وفي جنوبها ايجابية بالنسبة لأوربيي الغرب، فإن التطورات التي حصلت في الجبهة الشرقية كانت عكس ذلك، لأن علاقات أوربيي الغرب مع البيزنطيين أخذت تسير في اتجاه القطيعة رغم أن القائمين على الأمر في ممالك الغرب، وعلى رأسهم الأباطرة الأتونيون، حاولوا جهد الإمكان تفادي هذا المآل.

وتستدعي هذه المسألة التذكير بما سبق قوله عن أتون الأول، الذي حاول، بعد أن نودي به إمبراطورا، طلب ود إمبراطور بيزنطة. فزوج ابنه من الأميرة الإغريقية تيوفانو (Théophano) التي شاءت الظروف أن تصبح وصية على العرش حين اعتلى سدة الحكم أتون الثالث ذو الثلاث سنوات.

وأهم ما ترتب عن هذا الحدث، هو أن نفوذ البيزنطيين وحضورهم تقوى في البلاط الأوتوني زمن حكم أتون الثالث. ويعد هذا الأمر مؤشرا آخر على أن القطيعة كانت لازالت لم تصبح بعد قدرا محتوما.

وتؤكد المصنفات التاريخية بدورها هذه الحقيقة. فقد كانت مؤلفات القرنين التاسع والعاشر تستعمل لفظة "أوربا" للتعبير عن نوع من الإحساس بوجود "كومينوطة" (une communauté)، أو مجتمع سابق على وجود المسيحية. ولم تكن تلك المصنفات تستعمل اللفظة في دلالتها الجغرافية كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين، لأن لفظة "أوربا" بالمعنى الجغرافي لا معنى لها.

وقد ظل لفظ أوربا ذي البعد "الإحساسي"، الذي يمثل شكلا من أشكال الهوية الجماعية، حاضرا حتى مطلع القرن الحادي عشر، حيث ظهر بموازاته لفظ جديد هو "la chrétienté" الذي يشدد على مسألة الانتماء إلى المسيحية. ولعل أحسن شاهد يجسد هذا المعنى الجديد، هو المعطف الذي ارتداه الإمبراطور هنري الثاني عند اعتلائه العرش سنة 1002. فقد تم تطريزه بمجموعة أشكال تجسد المسيح والعذراء والملائكة والقديسين. وكتبت في حواشيه عبارات لاتينية تمجد الإمبراطور.

الفصل الرابع

أوربا الفيودالية
(بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر)

إن الحقبة الزمنية التي تأكد فيها العالم المسيحي (l'affirmation de la Chrétienté) هي أيضا الحقبة التي انطلق فيها الازدهار الكبير، لما سيعرف في النهاية بأوربا. ولكن حدث أن اعترضت عوائق سبيل هذا الازدهار في وقت مبكر، وتبعا لذلك لم يأخذ الاتجاه الذي كان سيأخذه نحو وحدة أوربا المستقبلية.

وبناء على هذا المعطى، أرتئي التوقف عند الخاصيات المشتركة التي تركتها هذه الحقبة كإرث لأوربا. ويمكن نعت هذه الحقبة بالطبقة الفيودالية التي تعد واحدة من بين الطبقات التي تعاقبت إلى أن انبثقت أوربا الموحدة.

1) تطورات في مجال الزراعة

يجب دوما الانطلاق من الحقيقة. وتفيد هذه الأخيرة بأن أوربا الفيودالية كانت زراعية بامتياز، وأن الأرض كانت تمثل فيها حجر الزاوية. ويكتسي هذا الأمر أهمية قصوى إذا علمنا بأن النشاط الزراعي لا يزال الى يومنا هذا يحظى بأهمية بالغة في أوربا، وأن المشاكل المتصلة به ما زالت تؤرق ساسة الاتحاد الأوربي، رغم أن عدد الفلاحين تراجع كثيرا، كما تراجع ثقلهم.

وعموما، فإن النشاط الزراعي السائد اليوم في الأرياف ورثه الاتحاد الأوربي عن العصر الوسيط. وبما أن زراعة الحبوب احتلت موقعا متميزا في زراعة العصر الوسيط، فقد ظل الخبز والى اليوم يمثل مادة أساسية في وجبات الأوربيين. ويرافق الخبز في هذه الوجبات مشروبان هما النبيذ (الخمر) والجعة (la cervoise).

ومن المعروف أن الخمور كانت تستهلك في أوربا قبل سيادة الرومان. ثم اتسع نطاق استهلاكها بعد ظهور وانتشار المسيحية لأنها أصبحت تشرب وتستعمل أيضا في الطقوس والشعائر الدينية. فأدى ذلك إلى تجاوز شجيرات الكروم لحدود النطاقات المناخية التي كانت تنمو فيها فيما قبل، حيث انتشرت غراستها في شمال غالة وفي

جنوب أنجلترا. فأفضى ذلك إلى ظهور مشروب جديد هو الجعة المصنوعة من الشعير والتي تعد أصل الجعة المعروفة اليوم. فنتج عن ذلك أن قسم هذان المشروبان أوربا إلى قسمين: أوربا النبيذ في الجنوب وأوربا الجعة (la cervoise) المستخلصة من الشعير في الشمال. ويمكن لمتصفح بعض مصنفات رجال الدين التي تعود للقرن الثالث عشر أن يلمس أصداء هذا التمييز. وبموازاة هذين القسمين، ظهرت أوربا " le cidre" التي تتشكل من المناطق الغربية التي كان فيها الإقبال أكثر على هذا النوع من السائل المستخلص من التفاح البري أو البستاني.

ويجب التنبيه، بأن ما ذكر لا يجب أن يوحي بأن النشاط الزراعي كان متنوعا كثيرا في أوربا ما بعد سنة ألف، لدرجة حدوث اختلاف بين المناطق. بل على العكس من ذلك، كانت تجمع بين المناطق خاصيات كثيرة مشتركة جعلتها أكثر ميلا للتجانس والوحدة. تتمثل هذه الخاصيات المشتركة في التطورات التقنية الهائلة التي كانت عامة وشاملة. وتعد مؤشرا على فعالية العمل الذي كان يقوم به الفلاحون والمزارعون فيما يتعلق بتهيئة الأرض وقلب تربتها بصفة خاصة. فقد كان هؤلاء الفلاحون والمزارعون يستعملون المحراث البسيط "الأراتروم" (l'aratrum) (l'araire). فحل محله المحراث (la charrue) الذي اتسع نطاق استعماله في المناطق الشمالية بوجه خاص. وكان هذا المحراث أداة أكثر تطورا نسبيا من "الأراتروم" لأنه يتوفر على مقلب مائل وسكة حديدية، فضلا عن كون عملية جره أصبحت موكلة في هذه المناطق الشمالية لزوج من الخيول بدل زوج من الأبقار بينما ظل فلاحو ومزارعو المناطق الجنوبية أوفياء للحمير أو البغال.

ورغم أن عددا من الباحثين أعطوا للتطور الذي حصل فيما يتعلق بأداة قلب التربة، وعملية الجر (la traction)، أهمية بالغة، حتى أنهم ذهبوا إلى الحديث عن "ثورة" في هذا المجال، فإن هذا التطور ينم عن رغبة أكيدة في تحسين طرائق وتقنيات العمل الزراعي[1].

---

[1] - للوقوف على تجليات التطورات التقنية، وعلى وجهات نظر الباحثين بشأنها يمكن العودة الى المؤلفات الآتية، على سبيل المثال لا الحصر :

- Georges Duby, Guerriers et paysans, VIIe-XIIe siècle. Premier essor de l'économie européenne, Paris, Gallimard, 1973.
- Charles Parain, Outils ethnies et développement historique, Paris, Les Editions Sociales, 1979.
- Pierre Bonnassie, Les sociétés de l'an mil : Un monde entre deux ages, Bruxelles, De Boeck Université, 2001.
- L'outillage agricole médiéval et moderne et son histoire, Actes de la 23ème rencontre de l'Abbaye de Flaran, Presses Universitaires du Mirail, 2003.

ويبدو أن حظ المناطق الشمالية ظل دائما أوفر. فقد انتشر بها المحراث المتطور، والى جانبه تم تبني طريقة جديدة للرفع من المردود، ولتنويع المنتوجات، تمثلت في استبدال نظام الدورتين الذي كان معمولا به من قبل بنظام الدورات الثلاث الذي دخلت بموجبه الخضراوات والبقول إلى النظام الزراعي. فأتاح ذلك إمكانية الحصول على محصولين خلال الموسم الواحد.

وبما أن العمل الزراعي والإنتاج كانا دوما خاضعين لتأثير التغيرات المناخية، فقد حدث تحسن على هذا الصعيد بعد بزوغ فجر سنة ألف، فبدا وكأنه "دفعة آتية من السماء"، على حد تعبير الباحث مارك بومبير (Marc Bompaire)[1]. وتمثل هذا التحسن في ارتفاع نسبي لدرجة الحرارة، بدرجة أو درجتين، وكذلك في انخفاض نسبي لمستوى الرطوبة في معظم مناطق أوربا بين سنتي 900 و1300.

2) انتظام الأفراد في خلايا

شكلت سنة ألف والسنوات التي تلتها حقبة حاسمة فيما يتعلق بإعادة تنظيم المجال على الصعيدين الاجتماعي والسياسي. وقد تركت إعادة التنظيم هاته بصمات واضحة وآثارا عميقة على التنظيم الترابي في أوربا نظرا للأهمية التي أصبح يكتسيها الحصن الفيودالي (le château) في التنظيم الجديد.

وقد تبنى المؤرخون منذ سبعينيات القرن الماضي المصطلح الايطالي "الأنكستلمنطو" (l'incastellamento)[2]، الذي كان للمؤرخ الفرنسي بيير توبير (Pierre Toubert) شرف استعماله لأول مرة في أطروحته حول اللاسيوم (le Latium) عند الحديث عن عملية إعادة التنظيم المشار إليها. وقام بعض زملائه في فرنسا باشتقاق ما يطابق هذا المصطلح في اللغة الفرنسية، فأوجدوا كلمة "l'enchâtellement" المشتقة من كلمة حصن (château). بينما اقترح المؤرخ روبير فوصيي (Robert Fossier) استعمال مصطلح " l'encellulement"[3]، أي

---

[1] - لمزيد من التفاصيل تتعلق بالمعطى الذي يشير إليه المؤلف، يمكن العودة إلى المؤلف الجماعي الذي وضعه كل من فليب كونتامين (Philippe Contamine) ومارك بومبير (Marc Bompaire) وستيفان لوبيك (Stéphane Lebecq) وجون-لوك سرازان (Jean-Luc Sarrasin) :
L'économie médiévale, Paris, A. Colin, 1993.

[2] - يعني هذا المصطلح عملية تحصين القرى (الواقعة في مواقع معلقة) من خلال إحاطتها بأسوار، وإقامة حصن لحمايتها. وقد استعمل بيير توبير المصطلح للحديث عن هذا النوع من القرى التي كانت منتشرة في إقليم اللاسيوم بين القرنين العاشر والثاني عشر. أنظر مادة "أنكستلمنطو" في المعجم الموسوعي الخاص بالعصر الوسيط
Dictionnaire encyclopédique du Moyen Age, Paris, Cerf, 1997, Tome I, p.770.

[3] - ينطبق المصطلح الوارد ذكره في الهامش السابق على التجمعات القروية التي كانت تقع عموما في مناطق متضرسة، فتبدو وكأنها تجمعات معلقة، أما مصطلح "encellulement"، فاستعمله روبير فوصيي للحديث عن التجمعات المماثلة

"التجمع في هيئة خلايا" نظرا لصيغته الفرنسية، وكذلك لإمكانية استعماله عند الحديث عن عملية إعادة التنظيم (المشار إليها) في مجموع المجال الأوربي.

وفي ضوء هذا التوضيح، يمكن القول بأن أربع خلايا أساسية هي التي شكلت قاعدة التنظيم. وتمثلت في الحصن، بطبيعة الحال، والسنيورية (la seigneurie) والقرية، والأبرشية (la paroisse).

ونعني بالسنيورية رقعة أو دائرة ترابية يشرف عليها حصن، وتتضمن أراضي وعددا من الفلاحين خاضعين لسلطة السنيور. فالسنيورية هي إذن بمثابة وحدة، نستحضر عند ذكرها الأراضي الزراعية والفلاحين والمردود، الناتج عن عملية استثمار الأرض وكذلك الناتج عن الرسوم والإتاوات التي يدفعها الفلاحون، بالإضافة إلى مجموعة رسوم يستخلصها السنيور بمقتضى ممارسته لحق القيادة الذي يسمى بحق الإلزام (le droit de ban).

كان التنظيم في إطار السنيورية شائعا في مختلف مناطق العالم المسيحي. ولذلك اقترح بعض المؤرخين استعمال عبارة النظام السنيوري (le système seigneurial)، بدل عبارة النظام الفيودالي (le système féodal)، طالما أن مفهوم الفيودالية له صبغة قانونية صرفة، لأنه يستعمل عند الحديث عن تنظيم ضيق إلى حد ما يكون فيه السنيور على رأس فيْف (un fief)[1] قدم له كعطاء من قبل سنيور أقوى منه. فيكون السنيور المستفيد من الفيْف فضلا (أي تابعا) للسنيورالذي منحه إياه.

3) القرية والمقبرة

لها التي انتشرت في جميع أنحاء أوربا، وخاصة منها المناطق المنخفضة. أنظر مادة 'encellulement" في المعجم السالف الذكر، نفس الجزء، ص.525.

[1] - يتفق الباحثون في تاريخ أوربا الوسيط بأن كلمة "fief" غامضة الأصول، ولكنهم يجمعون بأنها مشتقة من كلمة "feo" المنتمية لقاموس اللغة الهندو-أوربية. وقد استعمل الجرمان القدامى كلمة "fehu" المرادفة لها، بينما استعمل اللاتانيون كلمة "pecus". وتعني كلتا الكلمتين "الدابة"، أو "البهيمة". واستعملت كلمة "fief"، في بعد تقني لأول مرة سنة 899. ومنذ هذا التاريخ، أصبحت تعني قطعة أرض تمنحها السلطة الحاكمة لأحد خدامها نظير ما يسديه من خدمات ذات طابع عمومي (تدبير الشأن العام). وبعد انهيار الإمبراطورية الكارولنجية، أضحت قطع الأرض من هذا النوع محور العلاقة بين أفراد الأرستقراطية (بعد أن كانت محور علاقة بين السلطة المركزية وخدامها). فكان شخص ينتمي لتلك الطبقة يمنح "فيفا" لشخص آخرمن ذات الطبقة. وتنشا بمقتضى عمليتي المنح والاستفادة، علاقة تبعية بين الشخصين. فكان المانح يلتزم بحماية المستفيد، بينما كان هذا الأخير يلتزم بتقديم الخدمات للمانح. وغالبا ما كانت تلك الخدمات ذات طابع عسكري.

لمزيد من التفاصيل، يمكن العودة لمادة "فيف" (fief) في كتاب بيير بوناصي (Pierre Bonnassie) :

Les 50 mots clefs de l’histoire médiévale, Toulouse, Editions Privat, 1981.

احتضنت السنيورية، كما سبق القول، عددا من الفلاحين كانوا مستقرين في مجموعة من المجمعات السكنية تسمى كل واحدة منها قرية. انتشرت القرى في العالم المسيحي برمته بعد مطلع القرن الحادي عشر، وأصبح فيها السكن متجمعا بعد أن كان متفرقا خلال العصر القديم والعصر الوسيط الأعلى. ولا زالت كثير من قرى أوربا الراهنة تحتفظ بالهيئة التي كانت عليها خلال العصر الوسيط.

نشأت القرية بفعل تجمع المنازل والحقول حول عنصرين أساسين هما الكنيسة والمقبرة. ويمكن في هذا الصدد تأييد ما ذهب إليه المؤرخ روبير فوصيي حين أقر في أحد المؤلفات بأن المقبرة تعد عنصرا مهما في التجمع السكني أكثر من الأهمية التي تحظى بها الكنيسة، وربما يعتبر وجودها سابقا على وجود هذه المؤسسة الدينية. إن الأمر هنا يتعلق بصلة بين الأحياء والأموات، وهي صلة بالغة الأهمية شكلت إحدى خاصيات مجتمع العصر الوسيط. وقد ورثتها أوربا المعاصرة عن العصر الوسيط.

وتكمن إحدى أهم التحولات التي شهدها تاريخ أوربا في كون الأحياء قاموا منذ العصرين القديم والوسيط بوضع الأموات في الحواضر، ثم بعد ذلك في القرى. والملاحظ، أن مجتمع العصر القديم كان يأنف من جثث الموتى. فلم يكن أحد من الموتى يحظى بنوع من "القدسية" أو التبجيل إلا بشكل حميمي في وسط الأسرة التي ينتمي إليها، أو خارج المجال المأهول على طول المسالك والطرقات، حيث كانت توجد مقابر أو أضرحة كان يتوقف عندها المسافرون لحظات. ولا يمكن البتة إنكار التحول الجذري الذي حدث بعد ظهور وانتشار المسيحية، حيث تم إدماج الأضرحة في الوسط الحضري. ومن هنا، فقد عمل العصر الوسيط على تمتين الروابط بين الأحياء والأموات. فاستحدث تبعا لذلك "فضاء التطهير" (le purgatoire) الذي يعد ثالث فضاء إلى جانب الجنة وجهنم. وقامت البابوية بدورها، منذ مطلع القرن الحادي عشر، بإحياء حفل تأبين للأموات كان يتم تخليده في اليوم الثاني من شهر نونبر من كل عام غداة اليوم الذي كان يخصص لتأبين كل الرهبان والأساقفة. وهكذا كان يتيح هذا التأبين الجماعي للأموات المنتمين للعامة شرف الالتقاء بأولئك الأموات "الممتازين"، وهم الأساقفة والرهبان. أما الأموات المنتمين لطبقة الخاصة، فقد كانوا يحظون بالتبجيل من قبل أفراد الأسر الأرستقراطية التي ينتمون إليها. فكان ذلك التبجيل عبارة عن رابط اجتماعي يضمن استمرارية العلاقة بين كل أرستقراطي حي وآبائه وأجداده من الأموات. وفي ذات الوقت كان يسمح بتمتين العلاقات بين الأسر الأرستقراطية التي تربط بين أفرادها علاقات قرابة.

4) الأبرشية

قام الأحياء خلال العصر الوسيط بوضع الأموات داخل القرى كما ورد سابقا، والى جانب المقبرة احتلت الكنيسة، هي الأخرى، موقعا متميزا داخل القرية. وقد كانت في الأغلب الأعم مركزا لأبرشية (une paroisse).

ورغم أهمية الأبرشيات في تاريخ العصر الوسيط، فالواقع أن وضعها ظل غير واضح المعالم حتى مطلع القرن الثالث عشر، لأن بعض هذه المؤسسات الدينية قام في المراكز الحضرية، بينما قام بعضها الآخر في الأرياف.

ففي قرى الأرياف، التي مثلت مراكز استيطان لغالبية أفراد المجتمع، كانت الكنيسة تقوم مقام الأبرشية. وكان يؤمها بانتظام عدد من المريدين المنتظمين تحت إشراف رجل دين يعرف بالكاهن (le curé). وكانت تترتب عن العلاقة بين الطرفين حقوق وواجبات. فكل مريد كان من حقه تلقي "الأسرار" (les sacrements)، التي تعد أحد الطقوس الدينية المقدسة التي تتيح للمسيحي إمكانية الحصول على العفو الإلاهي عن طريق الكاهن. ومقابل ذلك كان ملزما بتقديم رسوم (des redevances) للكاهن. وبما أن العلاقة بين الكاهن والمريدين كانت علاقة دائمة ومسترسلة، فقد عدت الأبرشيات إحدى عناصر التنظيم الاجتماعي.

5) شريحة عليا : الأرستقراطية

بدأ يتأكد بعد سنة ألف نوع من التمايز بين الأسر الأرستقراطية، حيث برزت على الواجهة شريحة عليا "تقوم على الدم" تمثلت في النبلاء. كانت تربط بين الأفراد الذين ينتمون لهذه الشريحة علاقات قرابة. كما ارتبط أفرادها بالسلطة والثروة والجاه وحرصوا دوما على أن يظلوا متميزين يحظون بنوع من الهالة. ولتحقيق هذا المسعى تبنوا سلوكا اجتماعيا خاصا. فقد كانوا يقيمون كثيرا من المآدب ويغدقون بسخاء على رجال الدين وعلى المؤسسات الدينية، في المقام الأول، ثم على فئات العامة في المقام الثاني.

ما هو أصل النبلاء؟

جوابا على هذا السؤال يذهب نفر من الباحثين إلى الاعتقاد بأنهم ينحدرون من الأسر النبيلة الرومانية، بينما يعتقد آخرون بأنهم شريحة اجتماعية من إنتاج العصر الوسيط.

ومهما يكن من أمر، فقد تأكد خلال العصر الوسيط حضور شريحة عليا في مختلف مناطق أوربا. ويورد ليوبولد جنيكو (Léopold Génicot) في هذا الشأن بأن "هذه الشريحة كانت فخورة بقدمها وقوية بثرواتها، وبتحالفاتها، وبالدور الذي

كانت تقوم به في الحياة العامة بشكل مستقل عن الملوك أو بتعاون معهم"[1]. وتبعا لذلك كانت تتمتع بامتيازات سياسية وقانونية وبحظوة اجتماعية كبيرة. ويمكن التأكيد مرة أخرى بأن هيبة الأسر النبيلة كانت تقوم أساسا على الدم. وتتجلى أهمية هذا المعطى إذا علمنا بأنه حدث خلال فترات متأخرة من العصر الوسيط أن لجأ بعض الملوك وبعض الأمراء إلى القيام بإجراء يتمثل في إضفاء طابع النبالة على بعض الأشخاص، ورغم أن هذا الإجراء تم في نطاق محدود، فإن "نبالة" المستفيدين منه لم ترق أبدا إلى مستوى النبالة التي تترتب عن الولادة، أي عن الانتماء لأسرة نبيلة أبا عن جد.

ورغم أن الأسر النبيلة تكاد تكون قد انقرضت اليوم في أوربا، ولم تتبق منها سوى فلول قليلة هنا وهناك، فإن لفظتي نبيل ونبالة لا يزالان يحظيان بقيمة كبرى في أوساط العموم كما في أوساط المثقفين، لأن شكلا من أشكال النبالة ظهر خلال الفترات المتأخرة من العصر الوسيط يتمثل في "نبالة الخصال" أو "نبالة السلوك والأخلاق"، وأصبح موضوع نقاش بين فئة من المثقفين قابلوا بين هذه النبالة المكتسبة والنبالة الموروثة (التي يتعذر أحيانا على بعض الأشخاص الموسومين بها إثباتها). وعلى كل، فإن جوهر هذا النقاش يتمحور حول طرائق ومعايير تقييم الأشخاص ذكورا كانوا أم إناثا.

6) الفرسان والمجاملة

شهدت مناطق أوربا حوالي سنة ألف ميلاد نموذج جديد من الفئات الاجتماعية يتمثل في الفرسان الذين كانوا متميزين عن المليشيات المعروفة عند الرومان وعند القبائل الجرمانية (البرابرة)، لأن كل عنصر من تلك المليشيات، أي "المليش" (le miles)، كان مجرد جندي أو محارب. وقد ظل عدد هؤلاء الفرسان في تزايد مطرد وأصبحوا يشكلون شريحة سفلى في الطبقة الأرستقراطية. ارتبطت كل مجموعة منهم بحصن وبسنيور. وشكلت نخبة من المقاتلين المتخصصين، الذين يخوضون الحروب على ظهور الخيول تحت إمرة السنيور. ويقومون فضلا عن ذلك، وفي حضرة

---

[1] - يعد ليوبولد جنيكو، الذي ينقل عنه لو كًوف هذه القولة، أحد أبرز المختصين في تاريخ أرستقراطية أوربا بما أنجزه من أبحاث مستفيضة تخص نبلاء أرياف نامور (Namur) ونبلاء غرب أوربا عموما. ومن بين تلك الأبحاث الجزء الثاني من كتابه :

- L’économie rurale namuroise au bas Moyen Age, Louvain, Publications de l’Université de Louvain, 1960. →

← وكتاب :

- La noblesse dans l’Occident médiéval, Londres, Variorum Reprints, 1982.

السنيور، بأنشطة "ترفيهية" مختلفة، أبرزها "دوريات المبارزة" (les tournois) التي كثيرا ما شجبتها الكنيسة، نظرا لما كان يلفها من عنف مفرط.

والجدير بالتذكير أن هؤلاء الفرسان جبلوا فعلا على القوة، ولم يكونوا يترددون في القيام بتجاوزات، ربما هي التي كانت وراء اندلاع الاحتجاجات التي ترتب عنها ظهور حركة السلم التي سبق الحديث عنها. ومع مرور الوقت نجحت الكنيسة، فيما يشبه عملية "ترويض" لهؤلاء الفرسان حيث شرعت في تهذيبهم من خلال توجيه طاقاتهم وعنفهم نحو حماية المؤسسات الدينية، وحماية النساء، والأشخاص العزل، وبعد فترة قصيرة نجحت في تأليبهم لخوض حروب خارج أوربا ضد مجتمعات غير مسيحية.

وواصلت الكنيسة عملية "تهذيبها" للفرسان، واستطاعت تحقيق نجاح آخر حين تمكنت، خلال القرن الثاني عشر، من إقرار حفل خاص كان يتسلم فيه الشاب السلاح استعدادا للانخراط في سلك الفروسية (la cérémonie d’adoubement). وكان هذا الحفل يشبه "اختبار التخرج"، ولا يمكن لأي مراهق تمرن على حمل السلاح أن يصبح فارسا إلا بعد اجتيازه. ويعد هذا الحفل في حقيقة الأمر من الطقوس ذات الأصول الجرمانية. أدخلت عليه الكنيسة بعض التعديلات والترتيبات لتعطيه نكهة دينية مسيحية. فكان يقضي بأن يغتسل "المرشح" بماء طهور لدخول عالم الفروسية، ثم تقوم الكنيسة بمباركة سلاحه. وينتهي الحفل بأن يقضي "المرشح"، الذي أوشك بعد الاغتسال ومباركة السلاح من أن يصبح فارسا، الليل "قائما" (فيما يشبه عملية تدبر) وهو يتأبط سلاحه. فيغدو بعد تلك الليلة فارسا.

وحدث منذ ذلك الوقت أن أخذت تحيط بعالم الفروسية هالة كبرى استمرت تداعياتها إلى ما بعد العصر الوسيط. وزادت من ترسيخها تلك الكتابات الأدبية التي اتخذ مؤلفوها من الفرسان ومن الفروسية موضوعا لهم. فتحدثوا عن بطولاتهم، وشجاعتهم، وإقدامهم، وعن ولههم، ومغامراتهم العاطفية، وما إلى ذلك.

ومن المفيد الاشارة في هذا المقام الى أن ثمة علاقة وطيدة قامت بين الفروسية والمجاملة أو اللباقة. وتعتبر هذه الأخيرة نوعا من السلوك، ومن أدب المعاملة، ساد في بلاطات ملوك وأمراء ما بعد مطلع القرن الحادي عشر. ونقل كثيرا من صوره الإخباريون ورجال الدين. وقد اعتمد على مؤلفاتهم عدد من السوسيولوجيين والمؤرخين المحدثين والمعاصرين للبحث في تجليات ذلك السلوك.

فوضح بعضهم كيف أن مقتضيات السلوك، وآداب المعاملة في البلاطات، علمت الأوربيين كثيرا من الأشياء، من بينها على سبيل المثال، غسل اليدين قبل وبعد الأكل،

وتناول كل فرد للطعام في صحن خاص به، بدل الأكل الجماعي في صحن واحد، والامتناع عن البصق.

وعموما، ورثت أوربا الحديثة عن العصر الوسيط كثيرا من آداب المعاملة التي سادت في بلاطات الملوك والأمراء. وقد كان جون كلود شميت (Jean-Claude Schmitt) محقا حين أقر بأن بلاطات العصر الوسيط شكلت أهم المراكز التي انبثقت منها حضارة السلوك والطبائع. ويكفي للدلالة على ذلك القول بأن الأعيان الرومان كانوا يتناولون الوجبات وهم ممتدين على الأسرة، بينما استعمل ملوك وأعيان العصر الوسيط الطاولة التي ما زالت مستعملة إلى اليوم[1].

7) تطور الزواج

شهدت العلاقة بين الرجل والمرأة تطورات كبرى في سياق تحولات السلوك والطبائع وآداب المعاملة التي سبق الحديث عنها. ومن المفيد التوقف عند الزواج الذي يمثل أهم تجليات تلك العلاقة. فقد كان في البدء عبارة عن قران ذي صبغة مدنية فشرعت الكنيسة منذ ظهور وانتشار المسيحية، في تنظيمه وفق قوانين ما زال معمولا بها في أوربا إلى اليوم.

فقد قضت الكنيسة بأن يقوم الزواج على قران غير قابل للفسخ. ولا يحق للرجل الزواج بأكثر من امرأة، رغم أن الرجال المنتمين للطبقة الأرستقراطية كانوا يعقدون القران في الواقع على أكثر من واحدة. كما صعبت الكنيسة من "مسطرة" الطلاق الذي لم يعد يتم إلا بإذن منها، ولا تأذن به بسهولة إلا في حالة ما إذا وقع قران بين رجل وامرأة تربط بينهما علاقة تقوم على الدم. وقد كانت تنظيمات الكنيسة تقضي بعدم جواز قران قائم على الدم. وبموازاة ذلك سهرت الكنيسة على التصدي بصرامة للخيانة الزوجية ولمختلف أشكال الزنا بشكل عام، وإن لم تمنع تلك الإجراءات الزجرية من تفشي الظاهرة.

وعموما، فإن آثار تدخل الكنيسة في عملية الزواج كانت واضحة المعالم. وتأكدت تلك الآثار أكثر فأكثر منذ القرن الثاني عشر، حيث لم يعد بإمكان ذكر وأنثى القيام بعقد قران إلا بحضور أحد الكهنة. وظل حفل الزواج يتم في طقوس خاصة قبالة

---

[1] - لا بأس من الاشارة، على هامش ما نقله لوݣوف عن جون-كلود شميث، بأن هذا الأخير حاضر في تاريخ أوربا الوسيط بعدة جامعات فرنسية وأنجليزية وأمريكية. يهتم كثيرا بقضايا الفكر والطقوس والعادات، التي يتناولها باعتماد التحليل الأنثروبواوجي. ومن بين تلك القضايا سلوك أفراد مجتمع العصر الوسيط، وأطعمتهم وأشربتهم، وآدابهم في الأكل، وما الى ذلك. و يشغل حاليا، الى جانب مسؤولياته الكثيرة، منصب مدير الدراسات والأبحاث في مؤسسة "Campus Condorcet" الواقعة بضواحي باريس، التي خصصت برنامجاها خلال سنة (2013-2014) لتناول موضوع "الأكل وآداب الجلوس الى المائدة كظاهرة اجتماعية".

بناية الكنيسة، حتى مطلع القرن السادس عشر، حيث ستفتح الكنائس أبوابها أمام المتزوجين ليتم الحفل داخل أبهاءها.

8) الحب الرقيق (أو الحب العذري)

انبثقت عن العلاقة بين الذكور والإناث أشكال جديدة من الحب، لعل أبرزها ذلك الشكل الذي عرف باسم "حب اللباقة" (l’amour courtois)، أو "الحب الرقيق" (fin’amor) الذي كان يعكس شعورا بالهيام والوله الشديدين من قبل رجل تجاه امرأة من وسط راق، حتى أن "الولهان" كان يتدلل للمرأة ويبدي خضوعا تاما لها كالخضوع الذي يبديه فصل (un vassal) تجاه سيده السنيور.

وتجدر الاشارة الى أن الباحثين اختلفوا حول نشأة هذا النوع من الحب وحول مغزاه الحقيقي رغم إجماعهم بأن "تروبادوريو" (les troubadours) منطقة أوكسيطانيا (l’Occitanie) بجنوب غالة كانوا أول من أشاعه، بما يفيد تأثرهم بنوع مماثل لهذا الحب شاع بين العرب.

ومهما يكن من أمر، فالراجح أن يكون "الحب الرقيق" (العذري) قد نشا وتطور خارج مؤسسة الزواج. ويمكن أن نقدم كمثال على ذلك وله الفارس الإفرنجي ترستان (Tristan) بالشقراء الإرلندية إيزوت (Iseut) زوجة مارك ملك كورنوواي (Cornouailles). ومثل هذا الحب كان يتنافى تماما مع مبادئ الحب والزواج التي كانت الكنيسة تروم ترسيخها. وفي كثير من الحالات اتخذ هذا النوع من الحب طابعا "هرطقيا" (hérétique)، مما يدفع إلى طرح أكثر من علامة استفهام. هل كان هذا الحب أفلاطونيا؟ هل كان حبا حقيقيا واقعيا؟، أم كان مجرد حب من صنع الخيال؟ هل عاش أفراد حقيقيون تجربته؟، أم كان مجرد حكايات نسجها ثلة من الأدباء؟

ودون القيام بعرض أجوبة مفصلة لهذه الأسئلة، يمكن الاقرار بأن الحب الرقيق (العذري) كانت له انعكاسات على الحب المعاش في الواقع وعلى الحب كإحساس عموما. كما أن هذا الحب كان نوعا من الطوباوية التي لم يكن لها حضور في الواقع كممارسة وكإحساس بين أشخاص حقيقيين. وكان حبا خاصا بالطبقة الأرستقراطية، ولم ينتشر قط بين أفراد طبقة العامة.

ويمكن التساؤل على هامش هذه الخلالصة، عما إذا كان الحب الرقيق يفيد بتحسن في وضعية المرأة؟ وجوابا على هذا السؤال أستحضر وجهتي نظر كل من جون- شارل هوشي (Jean-Charles Huchet) وجورج دوبي (Duby)، حيث يذهب الأول إلى القول بأن هذا الحب عيش في حقيقته كفن (un art) يرمي إلى

استبعاد المرأة (la mise à distance) بواسطة الكلمات[1]. بينما يرى الثاني بأنه كان بمثابة لعبة (un jeu) ظل يتحكم فيها الرجال، لأن الحب الرقيق العذري لم يقدم للنساء المنتميات للطبقة الأرستقراطية سوى "ولاء" (un hommage) خياليا لا سند له في الواقع المعاش[2].

وعلى كل، فإن الحب الرقيق العذري وجد من يخصه بمؤلف، هو بمثابة دليل، كان له تأثير كبير على مدى قرون من الزمن. إنه "كتاب الحب" (Tractatus de amor) (Traité sur l'amour) الذي وضعه أندري لو شابلان (André le Chapelain) سنة 1184[3]. ويمكن إدراج هذا المؤلف ضمن الجهود ذات الطابع الحضاري التي كانت تروم تهذيب سلوك الأفراد، كما سبق الحديث عن ذلك. ومن هنا نفهم لماذا ذهب بعض الباحثين إلى اعتبار الحب الرقيق مدخلا نحو الحب العصري، بينما ظل أبطاله، من أمثال ترستان وإيزوت، قدوة للمحبين والعشاق.

09) ابيلار وهيلواز : المثقفون وصيغ الحب العصري

كان للحب الرقيق العذري أبطال معظمهم من نسج الخيال، وقليل منهم أمكن إثبات وجودهم. ومن بين هذه الفئة القليلة، ثنائي أعطى لهذا النوع من الحب نكهة خاصة، ويتعلق الأمر ببيير أبيلار(Pierre Abélard) وهلواز(Héloïse).

فقد اشتهر أبيلار في تاريخ أوربا الوسيط بكونه كان فيلسوفا وعالم لاهوت يلقن المعرفة في إحدى المدارس. فحدث، وهو كهل في سن الخامسة والثلاثين أن وقع، منذ سنة 1117 في حب تلميذة له تنتمي لوسط أرستقراطي. ونتج عن ذلك الحب ميلاد طفل. وكانت نتيجة هذه العلاقة وخيمة جدا، تمثلت في قيام أفراد مقربين من الفتاة بإخصاء أبيلار انتقاما لشرف الأسرة. ثم تلا هذا الحدث الدرامي انعزال العشيقين، كل واحد في موناستير. أبيلار في سان- دوني وبعد ذلك في سان جيلداس بمنطقة

---

[1] - وجهة نظر جون-شارل هوشي التي اختزلها جاك لو ݣوف في هذا المقام عبر عنها في كتاب نشره تحت عنوان :
L'amour discourtois. La "fin'amors'" chez les premiers troubadours,Toulouse, Les Editions Privat, 1987.

[2]- وردت وجهة نظر جورج دوبي في كتابين هما :
- Mâle Moyen Age, de l'amour et autres essais, Paris, Flammarion ; 1988.
- Dames du XIIe siècle, Paris, Gallimard, 1995, 2 tomes.

[3] - واضع الكتاب أندرياس كبيلانوس (Andreas Capellanus)، مفكر فرنسي عاش في بلاط الملك لويس السابع (أو لويس الشاب) بين سنتي 1160 و1180. وكان مقربا من ماريا (Marie de France) ابنة الملك التي طلبت منه وضع مؤلف في الحب. فأنجز كتاب "De Amor" الذي يذكر كثيرا بكتاب "طوق الحمامة في اللفة والالاف" لابن حزم الأندلسي. استعرض كبيلانوس في كتبه المبادئ التي يقوم عليها الحب العفيف. وبين تجلياته وخصائصه، ومواصفات المحبين. فعد دليلا في الحب. وقد تمت ترجمته إلى اللغتين الأنجليزية والفرنسية، منذ مطلع أربعينيات القرن الماضي، تحت عنوان : "مبادئ الحب"، أو "فن الحب".

بروطانيا، وهيلواز في دير بمنطقة شامبانيا. ورغم ذلك تواصل الحب بين العشيقين حتى وفاتهما كما تفصح عن ذلك الرسائل المتبادلة بينهما.

ومهما يكن من أمر، فإن قصة أبيلار وهيلواز تقدم أجوبة عن عدد من الأسئلة المتصلة بالحب رغم صعوبة تعميم تلك الأجوبة على جميع حالات الحب، من قبيل القول بأن الحب العصري هو حب جسدي من دون شك، وأن الاتجاه الغالب عليه هو كونه شعور ينمو ويتطور خارج مؤسسة الزواج. ويبدو واضحا أن أبيلار كان يسعى إلى إضفاء طابع الشرعية على علاقته بهلواز، ولكن الصيغة التي أراد بها تحقيق ذلك تثير الاستغراب لأنها تبدو "حداثية" بالمقارنة مع زمانها. ويستشف من بعض رسائل هلواز بأنه كان من الصعب على مثقف مثل أبيلار أن يوفق بين العمل الفكري والزواج. وتكتسي هذه المسألة أهمية بالغة لأنها تفيد بميلاد نخبة مثقفة "حداثية"، في وقت جد مبكر، كما تشير إلى موقع الحب العذري في أوساط هذه النخبة.

10) القبلة على الفم

يشترك الحب العذري مع الفصالة (أو التبعية) في كونهما علاقتان تنشآن بين فردين يجمع بينهما شعور حميمي وتعابير جسدية. وقد قدر لكل من الحب العذري والفصالة أن ينشآ في أوربا، ويعمرا فترات طويلة وتترتب عنهما امتدادات لايزال لها حضور.

فمن المعروف أن عملية تحول شخص إلى فصل تابع لسيد، أي سنيور، كانت تتم في حفل عام وتحيط بها طقوس خاصة. وفي هذا الحفل "يقف" الشخص الذي سيصبح فصلا على ركبتيه (il s’agenouille)، ثم يضع يده على الكتاب المقدس ويؤدي يمين الولاء بأن يظل مخلصا لسيده ويقبل يد السنيور، وفي بعض المناطق كان الفصل يقبل السنيور من الفم.

وعلى غرار عملية الدخول في الفصالة، كان المحب المتيم يقدم الولاء للمرأة التي تعلق قلبه بها، ويقدم لها الولاء ويتعهد بأن يظل مخلصا لها طوال حياته. وبغض النظر عن الطابع القانوني وعن الطقوس المحيطة بالعمليتين، وخاصة عملية الدخول في الفصالة، فإن الخطوات المتبعة فيهما انتشرت في الأوساط الاجتماعية فترة طويلة. ثم أصبحت العلاقة بين شخصين تقوم على أساس الإخلاص المتبادل. واقترنت بهذا الإخلاص تعابير جسدية من قبيل القبلة على الفم التي ورثها الأوربيون عن العصر الوسيط. وقد كانت تلك القبلة تتم بين رجلين (الفصل والسنيور)، وظل معمولا بها، كتعبير عن السلام، بين رجال السياسة في أقطار أوربا الشرقية زمن سيادة الشيوعية.

ثم غدت بعد ذلك تعبيرا عن الحب والوله بين رجل وامرأة. وهذا التعبير بالذات، هو الذي قدر أن يكون له مستقبل زاهر في أوربا.

11) الطوائف العسكرية وروح "النضال"

شهدت أوربا الفيودالية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر ميلاد طوائف جديدة منبثقة عن الأديرة. وقد تمت هذه النشأة بالموازاة مع اندلاع الحروب الصليبية.

كانت هذه الطوائف ذات صبغة دينية، وأبرزها طائفة المعبد، وطائفة المضيفين التابعة للقديس يوحنا المقدسي (Saint-Jean de Jérusalem)، وطائفة القديسة ماريا التوتونية الألمانية، وغيرها من الطوائف في انجلترا وفي شبه جزيرة أيبيريا.

رفعت هذه الطوائف شعار "السيف" و"الصلاة" و"التنصير". ودخلت في مواجهة مفتوحة مع أعدائها من الوثنيين والمسلمين. وتعتبر توجهاتها بمثابة تمرد على المبدأ القائل بأن رجال الدين لا يجب أن يعملوا على إراقة الدماء، رغم أن الأسقف بيرنار (Saint Bernard) أحد اقطاب النظام السيستيرسي (l’ordre cistercien)[1] نوه بانخراط الفرسان، المنتمين لما سماه بالمليشيا الجديدة (la nova militia)، في الحروب الصليبية.

---

[1] - يعد أحد التنظيمات الدينية. أنشأه الراهب روبير المولمي (Robert de Molesme) سنة 1098 بعد أن كان من مريدي أحد المونساتيرات التابعة لتنظيم كلوني. غادر هذا التنظيم ، الذي لم تعد ترقه توجهاته، وأنشأ ديرا جديدا بقرية موليم (الواقعة بمنطقة بورگونيا) حمل إسم دير شيتو (Abbaye de Cîteau) الذي يمثل نواة التنظيم الذي سيعرف فيما بعد بالتنظيم السيستيرسي.

حاول روبير المولمي العودة بهذا التنظيم الى أصول المسيحية، وحظ مريديه على تبني حياة البساطة والتبتل وفقا للمبادئ التي وضعها القديس بينوا النورسي. وقد ساهم هذا التنظيم في نشر الديانة والحضارة المسيحيتين، وفي عمارة المناطق المجاورة له بواسطة مريديه الذين كانوا يجمعون، على غرار مريدي الأديرة التابعة للتنظيم البيندكتي، بين الصلوات الفردية والجماعية والعمل اليدوي.

شهد التنظيم تطورا ملحوظا منذ سنة 1130 تحت تأثير الراهب بيرنار دو كليرڤو (Bernard de Clairvaux) الذي التحق بدير شيتو سنة 1112. وانظم سنة 1119 "للجنة" سهرت على اعادة النظر في "القانون" المنظم للدير. فقام بدور مهم في صياغة ما يعرف "بميثاق الصدقة" (Carta Caritatis) الذي أعطى دفعة قوية للدير الأم، وحدد علاقاته بالفروع التي تزايدت أعدادها في مختلف مناطق غرب أوربا. كما ساهم الراهب المذكور في استقطاب كثير من المريدين، حتى أن عددا من الباحثين ذهبوا الى ربط نشأة التنظيم السيستيرسي بشخص بيرنار دو كليرڤو. ولا يزال هذا الدير قائما في فرنسا المعاصرة. وقد أصدر أحد مريديه الراهب ميشال نيوسات (Michel Niaussat) كتابا يعرض لتاريخ الدير تحت عنوان :

L’Ordre cistércien, Paris, Les Editions Ouest France, 2001.

ويمكن أيضا الاطلاع على كتاب :

André Vauchez, La spiritualité du Moyen Age occidentale, VIIIe-XIIIe siècle, Paris, P.U.F. 1975.

وأعتقد بأن نشأة هذه الطوائف، التي أخذت منحى عسكريا، يجب وضعها في سياق مناخ عام تميز بتغليب الطابع المسيحي على المواقف العسكرية. ورغم أن المسيحية ليست ديانة عسكرية، فقد أضحت "مناضلة" أكثر فأكثر. وفي ضوء هذا التطور نشأت صيغة "النضال" (le militantisme) التي أصبح لها فيما بعد شأو كبير.

12) الإصلاح الڭريڭوري : التمييز بين رجال الدين واللائكيين

يمكن افتتاح هذا "المبحث" بتذكير القارئ بما سبق قوله عن حركة التغيير التي شهدتها الكنيسة، عقب اعتلاء ڭريڭوار السابع كرسي البابوية بين سنتي 1073 و1085.

لقد تمثلت تلك الحركة في جملة إصلاحات سعى البابا المذكور من ورائها إلى تحصين البابوية من تدخلات الأعيان اللائكيين في شؤونها. وإن كان مراده من وراء ذلك، التصدي لرغبة الإمبراطور الجرماني في احتواء البابوية.

وعموما، فقد أفضت إصلاحات ڭريڭوار إلى إحداث فصل بين رجال الدين واللائكيين، أي بين الله والقيصر، وبين البابا والإمبراطور خلافا تماما لما كان عليه الوضع في الإمبراطورية البيزنطية، حيث كان القيصر والبابا يمثلان وجهان لعملة واحدة، لأن القائم على الأمر بها، كان إمبراطورا وبابا إلى حد ما على غرار النظام المتبع في دار الإسلام، والذي لا تمييز فيه بين ما هو ديني وما هو سياسي، لأن الله قادر مقتدر والخليفة ظله على الأرض.

ويبدو أن المؤسسة الدينية أصبحت مستقلة نسبيا بعد إصلاحات ڭريڭوار، كما تم تحديد المسؤوليات ذات الصلة بما يسمى "باللائكة" (le laïcat). ولم يتطور الأمر إلى درجة حدوث انفصال تام بين الجانبين، لأن الإصلاحات المذكورة تمت في إطار ديني، ولذلك ظلت وضعية "اللائكة" المشار إليها جزء من الكنيسة. ولكن هذا الانتماء ظل ساري المفعول لحين فقط، لأن إصلاحات ڭريڭوار، والإصلاحات التي تلتها خلال القرون الموالية، وخاصة تلك التي بوشرت في نهاية القرن التاسع عشر، مهدت الطريق لظهور اللائكية (la laïcité) التي تتجاوز "اللائكة" (le laïcat).

ولتبرير المنحى الذي سلكه هذا التطور يمكن إثبات نص مطول لأحد أقطاب الإصلاح الڭريڭوري يذكر فيه "أنه تم الفصل بين رجال الدين واللائكيين داخل المصليات، حيث خصصت لكل فئة مقاعد خاصة، وكذلك مرافق خاصة، فيتوجب إذا أن يتم التمييز بينهم في الخارج أيضا، وفقا للمهام التي تقوم بها كل فئة. وعليه، فيجب أن يلتزم اللائكيون بالمهام المنوطة بهم، أي مهام العصر (المهام الدنيوية)، وكذلك

يجب على رجال الدين الالتزام بالمهام الموكلة إليهم، أي المهام المتصلة بالكنيسة. وقد اطلع هؤلاء وأولئك على القوانين التنظيمية ذات الصلة". كما أقرت إصلاحات ڭريڭوار، إلى جانب المبادئ التي تحدد هذا التمييز بين رجال الدين واللائكيين، صيغا وأشكالا جديدة لتأطير المجتمع. وتتضح معالم هذه الصيغ والأشكال، من خلال بعض الكلمات والعبارات من قبيل كلمة "الأبرشية"، التي تطلق على مؤسسة سبق الحديث عنها، وكلمة "تعميد الأطفال"، و"الأسرة"، و"الزواج المسيحي"، و"تهذيب سلوك الأفراد"، عن طريق الزجر أحيانا وعن طريق التذكير بعقاب جهنم أحيانا أخرى.

ومهما يكن من أمر، فقد وجدت إصلاحات ڭريڭوار من ينتصر لها بعد وفاته. ومما لا شك فيه أنها تركت آثارا عميقة استمر مفعولها على المدى البعيد في معظم مناطق العالم المسيحي.

13) صراع الفضائل والرذائل

الشيطان يستشيط

كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر فترة تحولات كبرى بامتياز. وقد شملت تلك التحولات العقائد والممارسات الدينية أيضا. وتركت آثارا عميقة وبعيدة المدى في أوربا.

وقد تم الحديث في فقرة سابقة عن تنامي وانتشار ما يمكن تسميته بروح النضال، والرغبة في الصراع اللتان ارتبطتا بتنامي الفروسية والفرسان. ويبدو أن تلك الرغبة في الصراع اجتاحت بصورة رمزية عالم الروح. فأصبح خلاص الرجال والنساء مرتبطا في نهاية المطاف بحصيلة صراع مرير، هو صراع بين الفضائل والرذائل. فكان يرمز إلى الفضائل بفرسان مدججين بالسلاح، بينما كان يرمز إلى الرذائل بمحاربين وثنيين لا يسود بينهم نظام. وعليه، فقد انتشر في جميع الأوساط اعتقاد مفاده أن عالم الخطيئة هو تحت رحمة الشيطان الذي لا ينفك عن الغارة عليه.

ومن غريب الصدف، أن غارات الشيطان، عدو الإنسان، تكاثفت خلال هذه الحقبة التاريخية بالذات، في وقت لم يكن قد اكتمل فيه "المسرح" الذي شرعت في تشييده الكنيسة منذ العصر الوسيط الأعلى، ليقدم على منصته الشيطان "رقصاته". وهكذا أصبح الشيطان لا يبارح الإنسان في صباحه وفي مسائه، حتى أنه تملك بعض الأشخاص. وتمثل أعراض هذا التملك مقدمات لتلك الأمراض النفسية والعصبية التي انكب على معالجتها، عند نهاية القرن التاسع عشر، ثلة من الأطباء وعلماء النفس أمثال جون-مارتان شاركو(Jean-Martin Charcot) وسيغموند فرويد(Sigmund Freud).

كان الشيطان يتملك بعض الأشخاص بقوة لدرجة السيطرة على عقولهم، فيصابون بالهلوسة والتهيؤات. وفي أحسن الأحوال كانوا يقعون فريسة إغراءات تقودهم للوقوع في الرذيلة. ولحسن الحظ أن الكنيسة شرعت في تنظيم الصراع ضد الشيطان وضد الرذيلة. وتجلى هذا التنظيم في إجراءات طرد الأرواح الشريرة (l'exorcisme)، وفي إقامة الصلوات، وتنظيم جلسات الاعتراف بالخطيئة للتكفير عن الذنب. ولكن جميع هذه الآليات كانت محدودة الفعالية، لأن الشيطان كان ينشط في فترة تاريخية اتخذت فيها السلطة و"القدرة" أشكالا "أمبريالية". وأستحضر لتأكيد ما أذهب اليه قولة لدانتي أليكْييري (Dante Alighieri) في الموضوع يذكر فيها "أن الشيطان كان يعمل آنذاك ليتحول إلى إمبراطور لمملكة الآلام"[1].

14) الثقافة الشعبية

أوربا التي استشاط فيها الشيطان كانت في ذات الوقت مجالا مسيحيا ظهرت فيه، أو عادت للظهور، ثقافة ذات صبغة شعبية. إذ رغم الجهود التي بذلت لنشر المسيحية، فإن هذه الأخيرة لم تتغلغل في أوساط عدد من الذين اعتنقوها حديثا، ومعظمهم من الفلاحين.

ولا مجال للانكار بأن الكنيسة خاضت صراعا محموما ضد بعض المعتقدات وبعض السلوكيات الموروثة عن العهد الروماني أو عن الماضي الجرماني (البربري) والتي نعتتها جميعها بكونها وثنية دون تمييز. ولكنها اضطرت بعد مطلع القرن الحادي عشر إلى تحويل صراعها ضد المجموعات الهرطقية وضد الفكر الجديد الذي أخذ ينبثق في أوربا، والذي شرعت في احتضانه مؤسسات جديدة. فقد سمح النمو الديموغرافي والتوسع الاقتصادي للفئات الاجتماعية من غير رجال الدين"المحترفين" بأن يصبحوا قوة اجتماعية. فغدت قصور"السناييْر" فضاءات ثقافية أخذت تتبلور فيها هوية "السنايير" والفلاحين، وهي هوية مختلفة طبعا عن هوية رجال الدين. فنشأت عن ذلك، أو نهضت مجددا، ثقافة شعبية.

وأعتقد أن معرفة الأوربيين بهذه الثقافة تكاد تكون اليوم مكتملة من خلال عدد من مؤلفات رجال الدين الذين تصدوا لها، من قبيل بورشار (Burchard) أسقف كنيسة وورمس (Worms)الذي وضع حوالي سنة 1012 مؤلفا يستعرض في جزء منه كثيرا من الممارسات المنحرفة للفلاحين في مجال الجنس، وكذا الشعائر التي

---

[1]- تحدث دانتي، الشاعر ورجل السياسة الفلورنسي، عن الشيطان في القسم الذي خصصه للجحيم في ملحمة "الكوميديا الالهية". أنظر النسخة العربية لهذا القسم في كتاب حسن عثمان، الكوميديا الالهية، الجزء الأول، الجحيم، دار المعارف، القاهرة، 1988.

كانوا يقومون بها لاستجداء التساقطات المطرية، وبعض عاداتهم في تنشئة الأطفال، ومواقفهم من الموت[1]. ويمكن استعراض نموذج من بين تلك الممارسات، يبين كيف كان التداخل قائما بينها وبين الممارسات المسيحية. ويتمثل هذا النموذج فيما كانت تقوم به الأسرة عند وفاة أحد أطفالها. فإذا ما حدث أن توفي طفل، لم يكن قد تم تعميده، يضع بعض النسوة جثمانه في زاوية من البيت، ويقمن بثقب موضع من جسده بوتد اعتقادا بأنهن إن لم يقمن بذلك سيحيي الطفل مجددا ويقوم ببعض التصرفات المؤذية لذويه ولعموم الناس في محيطه. وأذكر استنادا إلى ما أورده جون- كلود شميت في أحد أبحاثه في الموضوع بأن الخوف من عودة الأموات، أوعودة الأرواح، كان مجال كثير من المعتقدات والطقوس التي اشترك فيها الوثنيون والمسيحيون.

وعموما، فإن مكونات الثقافة الشعبية كانت راسخة ومتجذرة في الأوساط الاجتماعية، وربما هنا يكمن سبب إخفاق الكنيسة في اجتثاثها، وخاصة حين عجزت هذه المؤسسة الدينية عن اقتراح منتوج ثقافي بديل مقبول ومقنع. وعلى سبيل المثال، حاولت الكنيسة إقصاء الرقص والمواكب التي يكون المشاركون فيها مقنعين (les processions masquées)، ولكن دون جدوى. ونفس الشيء ينطبق على الحكايات الشعبية، التي لم تستطع الكنيسة سوى إعادة صياغتها وإضفاء الطابع الديني المسيحي عليها لتغدو جزءا من الثقافة العالمة. وهذا ما تفصح عنه على سبيل المثال الخلاصات التي توصل إليها ثلة من الباحثين في تاريخ الفولكلور في فلندا (la Finlande) منذ مطلع القرن التاسع عشر. فقد قاموا بتجميع كل التعابير والأشكال الفلكلورية، واكتشفوا بعد تحليلها والبحث في سياقها التاريخي، بأن أصولها تعود للعصر الوسيط. وينطبق نفس الأمر على الكرنڤال الذي أخذت تحتضنه روما منذ القرن الثالث عشر، والذي كان في الأصل عبارة عن طواف حول المدينة.

وقدر لهذه الثقافة الشعبية أن تزداد ثراء وتصبح ذات طابع احتفالي أكثر خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وتجلى هذا الطابع على سبيل المثال في الكرنڤال الذي كان يتم تنظيمه قبيل عيد الفصح.

واستنادا إلى دراسات وأبحاث المختصين في تاريخ الفلكلور، يمكن القول بأن الثقافة الشعبية التي سادت في عصر الفيودالية هي ثقافة أوربية انضافت إليها عناصر كثيرة ومتنوعة تنتمي إلى ثقافات حقبة ما قبل ظهور وانتشار المسيحية. وقد خففت تلك الثقافة الشعبية من حدة التنوع وساعدت على تحقيق بعض مظاهرالوحدة. وفيها وجدت ثقافات كثيرة سلتية وجرمانية وسلاڤية ومتوسطية تعبيرات خاصة بها.

---

[1] - نشير إلى أن بورشار جمع بين الثقافتين الدينية والقانونية. وقد تضمن مؤلفه كثيرا من المبادئ التي تشكل ما يمكن تسميته "بمدونة قانون الأسرة المسيحية".

15) العملات والوثائق العقدية

استعمل الأوربيون العملة على نطاق محدود قبل القرن التاسع. وكان من الممكن أن يتسع نطاق تداولها منذ عهد شارلمان، الذي حاول حمل "المتعاملين" في سائر ربوع الإمبراطورية على استعمال عملة موحدة، أو على الأقل عدد معين من القطع النقدية، غير أنه لم يفلح في ذلك. ويفيد هذا الفشل بعدم قدرته على إقامة فضاء اقتصادي "قروسطوي" موحد. ورغم ذلك، فإن تنوع العملة المتداولة يفيد بأهمية استعمال النقود من قبل فئات اجتماعية لم تكن تقوم بذلك قبل اعتناقها للمسيحية وانضمامها للعالم المسيحي.

ومن المفيد التذكير بأن عمليات سك العملة بدأت في مناطق شرق نهر الراين بعد سنة 900 بقليل. وبعد مضي فترة شرع دوقات بوهيميا بدورهم في القيام بالمثل. ومنذ سنة 980 أخذ الأمراء البولنديون هم الآخرين في ضرب العملة، ثم تلاهم الهنغاريون حوالي سنة 1000.

ومن هذا المنطلق، حق لأحد الباحثين أن يقول بأن سنة ألف شهدت شيوع عملات جديدة انتشرت من ضفاف نهر الدانوب حتى سواحل بحر البلطيق وبحر الشمال. والى جانب العملة، انتشرت في سائر أنحاء العالم المسيحي أداة أخرى من أدوات التواصل وممارسة السلطة تمثلت في الوثائق. ومما لا شك فيه أن استعمال تقنيات التعبير الكتابي سهل انتشار هذه الوثائق، وشكل أحد دعائم الوحدة. وسيتم الحديث عن هذا الجانب في مبحث لاحق سيخصص للحديث عن للكتاب في أوربا.

وأود، استنادا لما أورده الباحث روبير بارتليت (Robert Bartlett) في الموضوع، التركيز على نوع معين من الوثائق ذات الصبغة القانونية تعرف باسم "les chartes" (المواثيق أو العقود). وتشكل متون هذه النصوص قاعدة حقوقية للمعاملات التي تكون موضوعها أراضي وعقارات وغيرها من الممتلكات والثروات العينية[1].

استعملت هذه العقود بين المتعاملين في سائر أنحاء العالم المسيحي. وكان يقوم بتحريرها، في بادئ الأمر، نفر من الرهبان. ثم أفضى التطور الحضري، وخاصة في مناطق جنوب أوربا، إلى ظهور موثقين أوكلت إليهم مهمة تحريرها. وسرعان ما

---

[1] - تحدث روبير بارتليت، أستاذ التاريخ الأوربي الوسيط بجامعة سان أندروز (St. Andrews) الأنجليزية، عن هذه الوثائق في كتابه :

The making of Europe : Conquest, Colonization and Cultural Change, 950-1350, London, Penguin Books, 1993.

انبثقت عن تطور عمليات التوثيق مؤسسات مختصة في صياغة العقود تسمى " les chancelleries" يشتغل بها مجموعة من الموظفين ينعتون "كانسيلاريوسات" (des cancellarius). يبدو أنهم كانوا مختصين في تحرير الوثائق التي تهم معاملات المؤسسة الملكية بصفة خاصة بدليل أن ملك فرنسا فليب أوغست (Philippe Auguste) استشاط غضبا حين تمكن ملك أنجلترا، على اثر وقعة فريتفال (Fréteval) سنة 1194، من غنيمة ما كانت تحتوي عليه الخزينة الملكية من عقود تخص المملكة الفرنسية. ونظرا لقيمة مثل هذه العقود قرر الملك سان لويس (Saint Loius) بعد ذلك تخصيص مقر "مقدس" لحفظها.

ويبدو أن التطورات المتتالية في أوربا، أدت إلى تعميم استعمال النقود وشيوع استعمال العقود في المعاملات، فانتقلت هذه الأدوات من مرحلة كانت تحظى فيها بنوع من القدسية إلى مرحلة الاستعمال التطبيقي "الدنيوي"، لأنها أضحت تستعمل من قبل عموم الناس.

16) الحج[1]

لا بأس من التوضيح في مستهل هذا المبحث، بأن حديثي عن الحج (les pèle-rinages) يزكي توجه المؤرخين المعاصرين الذين يجمعون بأن أفراد مجتمع العصر الوسيط لم يكونوا قابعين في بيوتهم كما روج لذلك طويلا المؤرخون القدامى.

فقد جبل أكثرهم على حب السفر والترحال اللذان لم يكونا حكرا على رجال الدين. واحتلت رحلة الحج المقام الأول قبل الرحلة من أجل التجارة، رغم أن بعض الأفراد كانوا يجمعون بين الحج والتجارة في رحلة واحدة

ومن نافلة القول أن الحج كان ينطوي على جهد بدني كبير يقوم به الحاج نظير تحقيق نوع من الطهارة الروحية والتكفير عن الذنوب واستجداء الشفاء من إحدى العلل. ولا يختلف اثنان في القول بأن الحج كان في العصر الوسيط بمثابة كفارة. وهذا ما تجلى خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حيث غمرت هذه الرغبة في الكفارة جحافل من الحجاج انطلقوا في مواكب في اتجاه الشرق والجنوب. وترتب عن تحركاتهم تشكل شبكة من المزارات المتفاوتة الأهمية استقطبت هؤلاء الحجاج.

---

[1] ـ من المفيد الإشارة إلى أن جاك لو كُوف أورد عنوانه في صيغة الجمع (les pèlerinages)، لأن المسيحيين، خلافا للمسلمين، كانوا يحجون خلال العصر الوسيط إلى أكثر من بقعة واحدة مقدسة. ولذلك وجب التذكير بهذا المعطى حفاظا على دلالة العنوان.

احتلت مدينة القدس المركز الأول في هذه الشبكة رغم أن الحج إليها لم يكن في متناول الجميع نظرا لعدة اعتبارات من بينها طول المسافة الفاصلة بينها وبين الحواضر والقرى الأوربية، وطول المدة التي يستغرقها السفر إليها، وارتفاع تكاليفه، فضلا عن الاضطرابات التي كانت فلسطين مسرحا لها، لكونها كانت دائما موضوع صراع بين مختلف قوى العصر الوسيط.

واحتلت مدينة روما المرتبة الثانية في تلك الشبكة لأنها تحتضن رفات أبرز بناة الكنيسة الكاثوليكية : القديس بطرس والقديس بولس، بالإضافة إلى أضرحة عدد آخر من القديسين والرهبان سبق أن قام الباباوات بنقل رفاتهم إلى هذه المدينة المقدسة قبل القرن التاسع. وفضلا عن هذا، كانت تأوي أضرحة عدد من الرهبان تعرضت للتخريب من قبل الغزاة، فتحولت إلى مزارات كان الحجاج يؤمونها للتبرك بها. وبما أن عدد الوافدين على المدينة ظل في تزايد مطرد، فقد حرص الباباوات على إقامة عدد من المرافق وبنيات الاستقبال التي يقتضيها الأمر.

والملاحظ أن معظم حجاج روما كانوا يفدون في بادئ الأمر من ايرلندا ومن الجزر البريطانية، وبعد سنة 1300، تاريخ إقامة أول تظاهرة دينية كبرى في العالم المسيحي (un jubilé) من قبل البابا بونيفاص الثامن (Boniface VIII)، أخذ الحجاج يتوافدون بأعداد غفيرة على روما من سائر أنحاء العالم المسيحي سعيا للتكفير عن ذنوبهم. فكانت هذه المناسبات الدينية تمثل فترات تصل فيها حركة الحجيج الذروة وشكلت في ذات الوقت بذورا للانتقادات التي ستنشأ فيما بعد؛ والتي ستتحول منذ مطلع القرن السادس عشر إلى حركات مناوئة للبابوية ومطالبة بالإصلاح.

عدت كنيسة القديس شانت يقوب، التي سبق الحديث عنها، ثالث مزار كان يحج إليه المسيحيون بعد روما وبيت المقدس. واعتبر هذا المزار من بين أهم المزارات المسيحية رغم أن الوفادة إليه لم تبدأ إلا بعد مطلع القرن العاشر للميلاد.وإذا كانت البابوية قد قامت بدور مهم في إذكاء وتيرة الحجيج إلى روما، فالي دير كلوني (Cluny) الشهير يعزى الفضل في تبوؤ كنيسة شانت يقوب تلك المكانة المرموقة التي حظيت بها بين المسيحيين.

ورغم أن بيت المقدس وروما وشانت يقوب هي التي استقطبت أكبر قدر من الحجاج المسيحيين، فإن ذلك لم يمنع من وجود مراكز دينية أخرى كانت مقصد الحجاج، من بينها مدينة تور التي كانت تأوي ضريح القديس مارتان (Saint Martin) المتوفى سنة 397. ويبدو أن هذا القديس كانت له حظوة كبرى في أوساط طبقة الخاصة، كما في أوساط عامة الناس. فقد حج إلى ضريحه الملوك أمثال

شارلمان وريتشارد قلب الأسد، كما توافدت عليه جماهير غفيرة من عامة المسيحيين من رجال دين ومن لائكيين.

وحظي ضريح القديس ميشال (Saint Michel)، دفين نورمانديا (la Normandie)، بمكانة خاصة هو الآخر. فقد كان يحج إليه عدد من مسيحيي غالة. وحدث أن اندلعت حرب المائة سنة بين فرنسا وأنجلترا سنة 1337. فقامت قطع البحرية الأنجليزية بأكثر من هجوم على المدينة التي امتنعت عليهم. وظل المرابطون بها صامدين لفترة طويلة من الزمن، وكأنهم تزودوا ببركة هذا القديس. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أصبح ضريح القديس ميشال مزارا "وطنيا" يحج إليه مسيحيو غالة من مختلف المناطق. كما كانت تفد إليه مواكب من الأطفال في سياق ما يعرف بحج الأطفال (les pèlerinages d'enfants).

وفي سياق ذي صلة بحج الأطفال، يجدر الذكر أن مريم العذراء أخذت تحظى هي الأخرى بحظوة خاصة ابتداء من مطلع القرن الحادي عشر. فنشأ عن ذلك نوع من الحج هو الحج المريمي (le pèlerinage marial). وتمثل في وفادة المسيحيين على كثير من المواقع التي كانت توجد بها أضرحة قديسات تحمل كل واحدة منهن اسما مركبا يبدأ "بسيدتنا" وينتهي باسم البلدة أو المقاطعة التي يوجد بها ضريحها،من قبيل (Notre-Dame de Boulogne) بفرنسا، و(Notre-Dame de Hal) ببلجيكا الحالية. وكانت هذه الأضرحة منتشرة في أنحاء كثيرة من العالم المسيحي، وخاصة في كل من غالة وإسبانيا وبلجيكا، وأنجلترا، وألمانيا، والنمسا.

واشتهر ضريح "سيدتنا روكامادور" (Notre-Dame de Rocamadour) دفينة مقاطعة (Rocamadour) الواقعة بضواحي مدينة كاهور (Cahors) جنوب غرب غالة، بكونه كان أهم الأضرحة التي شد إليها الحجاج الرحلة من سائر أنحاء العالم المسيحي. ومن بين الذين حجوا إليه ملك انجلترا هنري الثاني الذي حج إليه سنة 1159 وسنة 1170. والغريب في الأمر أن هذا الضريح كان يستقطب كل سنة أعدادا غفيرة من المسيحيين، مع أنهم كانوا يكابدون المشاق في الوقوف على أبوابه لأنه يقع في قمة مرتفع يجب صعود ما ينيف عن 197 وحدة (des marches) من درج طويل يوصل إليه.

17) التجزئة الفيودالية والتمركز الملكي

تميز المشهد السياسي في العالم المسيحي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر بتناقض صارخ. فمن جهة هناك نظام فيودالي شرعت قواعده في أخذ مكانها. وتجسد ذلك في تدهور السلطة المركزية ونهاية دور المؤسسات العمومية واستفحال

التجزئة السياسية. وهناك من جهة أخرى اتجاه نحو التشبث بالسلطة المركزية في بعض المناطق التي ظل سكانها ملتفين حول الملوك، الذين سعوا جاهدين إلى الحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه من مركزية أمام التيار الجارف نحو التجزئة.

ويجدر التذكير في هذا المقام بأن النظرية السائدة في أوساط الباحثين، تفيد بأنه من الصعب الحديث عن وجود تطابق بين السلطة المركزية والنظام الفيودالي. ودون تخصيص حيز لمناقشة هذه النظرية، أميل إلى الاعتقاد بأن استقراء الواقع التاريخي يستدعي تبني موقف لين نسبيا يقتضي الحديث عن نوع من التساكن بين التجزئة والمركزية، لأن الاتجاه نحو التجزئة السياسية لم يحل دون استمرار وجود بعض الملكيات التي ظلت قائمة هنا وهناك، بالإضافة إلى وجود سلطة على رأسها البابا.

والملاحظ أن سلطة البابوية ازدادت قوة وتماسكا خلال هذه الحقبة التاريخية بالذات. بل أرى بأنه لا مبالغة في القول بأنها كانت أقوى الكيانات على الإطلاق، وخاصة في عهد انوسونت الثالث (Innocent III) الذي اعتلى كرسي البابوية بين سنتي 1198 و1216. فخلال عهده أصبح نفوذ البابوية يشمل معظم مناطق العالم المسيحي بفضل حنكته، وبفضل توفر البابوية على مؤسسات كانت تساعد في تدبير الشؤون، فضلا عن توفرها على مداخيل مهمة وقارة كانت تسمح لها بتنفيذ مشاريع مختلفة. وكان من الممكن أن تمارس البابوية السيادة الفعلية على الممالك الأخرى المعاصرة لها لولا أن الإصلاحات الكَريكَورية، التي سبق الحديث عنها، كانت تقضي بوجود فصل بين السلطتين الدينية والدنيوية. ورغم ذلك، كان للبابوية نوع من التأثير في سياسة بعض الملوك.

18) هيبة وضعف الإمبراطور

أعتقد أن وجود بابا على رأس كيان قوي يمنع من الحديث عن تجزئة مطلقة، كما أن استمرار وجود حاكم يحمل اسم الإمبراطور يمنع ذلك أيضا، لأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة استمرت في الوجود خلال مرحلة استفحال التجزئة السياسية.

والحقيقة أن سلطة أباطرة ما بعد القرن الثاني عشر أضحت ضعيفة مقارنة بما كان عليه الأمر زمن حكم الأتونيين الأوائل. ورغم ذلك، ظل بعض ملوك الممالك الفيودالية الناشئة (les monarchies féodales) يدينون بالولاء، ولو نظريا، لشخص الإمبراطور، بينما لم يتردد آخرون في اعتبار أنفسهم أباطرة في الممالك التي كانوا يحكمونها دون أن يتجرأوا على حمل لقب إمبراطور.

19) الملك خلال العصر الوسيط

يكتسي الحديث عن خاصيات شخص الملك خلال العصر الوسيط أهمية قصوى، ليس لفهم هذا العصر، ولكن لأن كثيرا من تلك الخاصيات انتقلت فيما بعد إلى الحكام الجمهوريين أو الديمقراطيين. وظلت مستمرة دوما إما كوظائف أو كصور رمزية وإيحاءات.

من بين أهم خاصيات ملك العصر الوسيط، أنه كان يعتبر ظل الله في الأرض. والواقع أن هذه الخاصية اختفت منذ مطلع القرن التاسع عشر، ولكن القائمين على الأمر في الحكومات والممالك الحديثة والمعاصرة لا زالوا يحتفظون، في الأغلب الأعم، ببعض الامتيازات التي تفيد باستمرار هذه الخاصية كحق منح العفو، أو الحق في عدم المسائلة القانونية.

ومن المعروف أن ملوك العصر الوسيط كانوا يزاولون ثلاث وظائف ذات أصول هندو- أوربية، أولها الوظيفة الدينية التي تتمثل أهم تجلياتها في إقامة العدل بين الناس رغم أن الملك لم يكن بمثابة رجل دين. ثاني هذه الوظائف قيادة الجند لخوض الحروب، على اعتبار أن الملك ينحدر من فئة النبلاء، فهو اذن محارب قبل كل شيء. ولا زالت هذه الوظيفة اليوم من اختصاص رئيس الجمهورية بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة. وثالث هذه الوظائف تحقيق الرفاه الاقتصادي لسكان مملكته. ومن تجليات هذه الوظيفة أن ملوك العصر الوسيط كانوا يكثرون من تقديم الصدقات والأعطيات للفئات الفقيرة من سكان ممالكهم.

وكان ملك العصر الوسيط يسعى جاهدا، الى جانب قيامه بهذه الوظائف الثلاث، لأن يكون له حظ من المعرفة، كما سبق توضيح ذلك عند الحديث عن جهود شارلمان لاكتساب نصيب من المعرفة، لأنها كانت أداة ضرورية في ممارسة السلطة. وعموما، فإن كل ملك من ملوك العصر الوسيط كان يجتهد في طلب العلم حتى لا ينطبق عليه المثل القائل : "ليس الملك الأمي إلا مجرد حمار يحمل على رأسه تاجا".

تميز شخص الملك خلال الحقبة الفيودالية بخاصيات أخرى، إلى جانب الخاصيات السابق ذكرها. ومن بين هذه الخاصيات الحق في السيادة وممارسة السلطة، وهما خاصيتان ورثهما ملوك الحقبة المذكورة عن العصر الروماني. ثم أضافت المسيحية للملوك منذ مطلع العصر الوسيط خاصية الجلالة التي انبثق عنها حق الملك، وحده دون غيره، في إصدار العفو على الجناة. كما أتاحت خاصية الجلالة للملك الحق في ألا يقدح أحد في شخصه.

وانطلاقا من هذه الخاصيات، يمكن القول بأن ملك العصر الوسيط لم يكن حاكما مطلقا. وإذا كان كذلك، فهل كان حكمه ذا صبغة دستورية؟ جوابا على هذا السؤال،

أقر بأن النظام الملكي لم يكن قائما خلال هذه الحقبة على دستور. لأن الباحثين لم يعثروا على أي نص يحمل مواصفات الدستور باستثناء الماجنا كارتا (Magna Carta ou grande charte)، وهي وثيقة ذات صبغة خاصة، تتضمن عدة بنود تقر في معظمها مبدأ الحريات الفردية، فرض نبلاء أنجلترا على الملك هنري الثالث توقيعها سنة 1215. وتعد هذه الوثيقة واحدة من اللبنات التي قامت عليها الأنظمة الدستورية في أوربا.

وأهم ما يمكن التشديد عليه في هذا المقام، هو أن نظام الملك في العصر الوسيط كان نظاما تعاقديا. وكان الملك طرفا في هذا العقد، لأنه كان يتعهد، خلال المراسيم التي تنظم عند المناداة به ملكا وحمله للتاج، بأن يلتزم أمام الله وأمام الكنيسة وأمام الشعب. وما من شك في أن هذا التعهد هيأ الطريق لتبلور نظام رقابة السلطة من قبل الشعب أو من قبل هيئات تمثله. وقبل أن يتحقق هذا التطور الحاسم، فإن الشعب المعني بالالتزام الملكي لم يكن هو عامة الشعب، بل الطبقة الأرستقراطية وحدها هي التي كانت معنية بهذا الالتزام، لأن الملك كان الأرستقراطي الأول ونبيل النبلاء بحكم انتمائه لأسرة نبيلة أبا عن جد.

وكان الملك يتعهد، بمقتضى العقد الوارد ذكره، بإقامة العدالة كما سبق الحديث عنها كوظيفة. ويتعهد بإقرار النظام وإشاعة الأمن في ربوع المملكة. وما من شك، في أن سعي ملوك الممالك الفيودالية إلى إقرار النظام وإشاعة الأمن يمثل مدخلا نحو قيام ما يعرف اليوم بدولة الحق والقانون.

والراجح أن دور الشعب في الرقابة كان لا زال بعيد المنال خلال هذه الحقبة، لأن المسافة بينه وبين السلطة كانت ما زالت بعيدة. ولذلك اختزل الشعب في حقيقة الأمر في الطبقة الأرستقراطية. والى نفس هذه الطبقة كانت تنتمي الأسر المالكة هنا وهناك. ومما لا شك فيه، أن هذا الأمر ساهم في استقرار الممالك، وفي إطالة أمد حكمها. وربما هذه الرغبة في الاستقرار، هي التي كانت وراء إقصاء المرأة من مزاولة الحكم في فرنسا. فمنذ تأسيس أول كيان سياسي بها اقتصر الحكم على الذكور.

20) الممالك الفيودالية

يجب التنبيه الى أن الممالك الفيودالية لم تكن كلها قوية متماسكة يسودها الاستقرار. وبعبارة أخرى، لم تكن كلها على قدم المساواة. تتوفر في كل واحدة منها المقومات التي ستخول لها الانتقال إلى مرحلة الدولة الحديثة بما يحمله مفهوم "الدولة" من دلالات. ومن هذا المنطلق، لا يمكن المقارنة بين أنجلترا وفرنسا ومملكة

قشتالة التي كانت متماسكة موحدة، وبين ألمانيا وايطاليا اللتان كانتا مجزئتين إلى عدة كيانات سياسية.

أ) أنجلترا

شهدت أنجلترا أحداثا جسيمة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، كان يمكن أن تخرج منها ضعيفة. ولكن حدث أن تجاوزتها بسلام بفضل صلابة مؤسساتها التي أرسى دعائمها الملك ألفريد العظيم منذ القرن التاسع. ثم زاد من تقويتها الملك ايدوارد الذي حكم بين سنتي 1042 و1066. وتأكدت قوة أنجلترا حين تمكنت من الخروج بخسائر محدودة على اثر الغزو الذي تعرضت له من قبل دوق نورماندي غليوم.

ويمكن القول، استنادا إلى كتاب يوم الحساب، المعروف "بكتاب الدوميسديي" (le Domesday Book)، بأن سر قوة أنجلترا، يكمن فيما كانت تتوفر عليه من ثروات بوأتها المقام الأول اقتصاديا من بين ممالك أوربا. فضلا عن توفرها على سلطة مركزية على رأسها ملوك أقوياء، وعلى إدارة منظمة فاعلة قل نظيرها.

وحدث عقب وفاة الملك هنري الأول سنة 1135 أن شهدت المملكة بعض الاضطرابات، ينطبق عليها، بالنظر إلى ما آلت إليه من نتائج، المثل القائل: "رب نقمة في طيها نعمة". فقد انتهت تلك الاضطرابات فعلا بزواج المدعو جوفروا بلانتجوني (Geoffroi Plantagenêt) قمط أنجو(Anjou) بماتيلدا ابنة الملك المتوفى. وبما أنها كانت وريثة العرش الوحيدة، فقد أضحى جوفروا ملكا على أنجلترا. ورغم ما استتبع ذلك من اعتراضات وقلاقل، فقد رزق جوفروا بمولود ذكر. فحسم الأمر بأن عين هذا الولد ملكا بالوصاية، ثم ملكا فعليا ابتداء من سنة 1154 باسم هنري الثاني.

وأهم ما في الأمر، هو أن هنري الثاني أصبح يحكم أكبر مملكة في غرب أوربا شمل نفوذها أنجلترا وأجزاء كبيرة من التراب الفرنسي. فغدت "أول مملكة حديثة في العالم المسيحي".

ب) فرنسا

تعتبر غالة، أو فرنسا كما تسمى حاليا، ثاني مملكة في غرب أوربا، بعد أنجلترا، حافظت على استقرارها لفترة طويلة بفضل استمرارية الحكم فيها بيد أسرة واحدة منذ سنة 987. وقد تمثلت هذه الأسرة فيما يعرف عند الإخباريين بآل كابت (les Capétiens) التي تعاقب فيها الذكور على الحكم. وشاءت الأقدار ألا يرزق هؤلاء الملوك الذكور إلا بالذكور مما حقق استمرارية الحكم في أوساطهم بدون انقطاع. ولم يكن لهم من معارض سوى نفر من كبار أفراد الأرستقراطية الذين استطاعوا

احتوائهم، وفي نفس الوقت، ألبوا ضدهم ثلة من رجال الدين، اتخذوهم كمستشارين لهم. كما ألبوا ضدهم أفراد الشريحتين الوسطى والسفلى من الطبقة الأرستقراطية.

ويبدو أن طابع الاستمرارية كان أبرز سمات نظام الحكم في غالة. وقد تجلت هذه الاستمرارية في أربعة مظاهر. أولها، هو أن الحكم في غالة ظل بيد أسرة واحدة. وثانيها، هو أن باريس اتخذت عاصمة للمملكة بصفة نهائية. فكان ذلك إيذانا ببداية ما سيعرف بأوربا العواصم. ويبدو أن الاختيار كان صائبا، لأن باريس تعد موطن دير سان دوني (Saint Denis) الواسع النفوذ، والذي كان رجالاته من أقوى المساندين لآل كابت على الدوام.

وتمثل ثالث المظاهر الدالة على الاستمرارية في عملية تتويج الملوك، من آل كابت، حيث كانت تتم دوما بمدينة ريمس (Reims) التي احتضنت مراسيم تتويج أول ملك في تاريخ غالة وهو كلوفيس.

وتجلى رابع المظاهر في اتخاذ الملوك، من آل كابت، لزهرة الزنبق (la fleure de lys)، التي ترمز لمريم العذراء، شعارا لهم. واتخاذهم الأزرق لونا كان يصبغ به معطف الملوك. كما كانت ترسم بذات اللون زهرة زئبق على الخاتم الملكي.

ج) قشتالة

ظهرت مملكة قشتالة للوجود في سياق حرب الاسترداد التي خاضها مسيحيو شبه جزيرة ايبيريا ضد المسلمين. ومن المفيد التذكير في هذا الإطار بأن عدة ممالك مسيحية ظهرت خلال نفس الفترة الزمنية بشبه جزيرة أيبيريا. وكانت رقعتها الجغرافية تتسع، ونظمها السياسية تتبلور بالموازاة مع تطور حرب الاسترداد وتراجع المسلمين نحو الجنوب. وقد قدر لمملكة قشتالة أن تكسب رهان التوسع والتبلور، وخاصة بعد اتحادها مع مملكة ناڤار. وقد أمد هذا الاتحاد ملوك قشتالة بقوة استثمروها في السيطرة على مملكة ليون ابتداء من سنة 1017. فأصبحت المملكة مؤلفة من قسمين. لتغدو بعد سنة 1230 مملكة واحدة هي مملكة قشتالة وليون.

وقد تميز نظام الحكم في هذه المملكة باعتماد ملوكها سياسة تقوم على نوع من التوازن بين القوى المؤثرة في عالم الأرياف والقوى الفاعلة في المراكز الحضرية. فكسبوا ود الأرستقراطية العقارية وود الأوليغارشية الحضرية. إذ سمحوا للفئة الأولى بحيازة كثير من الأراضي المسترجعة، بينما منحوا للفئة الثانية، ولسكان الحواضر عموما، مزيدا من الحريات وسمحوا لهم بإقامة الجمعيات (les cortes).

د) النورمان

كان من الممكن الاكتفاء بالحديث عن هذه الكيانات الثلاث التي تطورت فيها المؤسسات السياسية، وأضحت تجسد أوربا الممالك، ولكن يمكن أن تدرج إلى جانبها

مملكة رابعة "بلغت مستوى من النضج بصورة مفاجئة لم تخطر على بال أحد". إنها مملكة النورمان التي أنشأها "الشتات" المؤلف من الوافدين من العالم الإسكندنافي.

والواقع أن هؤلاء الوافدين أسسوا عدة ممالك لم يكتب لها أن تعمر طويلا. فقد أنشأوا مملكة في اسكندنافيا وأخرى في منطقة نورمانديا الفرنسية. واستطاعت جموع غفيرة من هذا "الشتات" تأسيس مملكة في جنوب ايطاليا شمل نفوذها منطقة كلابريا، التي انتزعوها من البيزنطيين، بالإضافة إلى مدينة نابولي وجزيرة صقلية.

وبعد فترة صراع مع البابوية، زمن حكم روجر الأول (Roger I)، الذي نعت "بالملك المستبد" على غرار بعض ملوك العصر القديم، دخلت هذه المملكة في علاقات ودية مع البابوية. وغدت، منذ حوالي سنة 1100، إحدى أقوى الممالك المسيحية في حوض البحر المتوسط. وتعاقب على حكمها عدد من الملوك حافظوا على استقرارها وعلى توجهها نحو العالم المسيحي. وكان من بين هؤلاء الملوك فردريك الثاني (Frédéric II) الذي واصل الاصلاحات التي باشرها اسلافه، فأضحت المملكة في عهده إحدى الكيانات الفيودالية المتطورة. وغدت عاصمتها باليرمو أكثر عواصم أوربا قدرة على منافسة مدن العالمين البيزنطي والإسلامي في ميادين الثقافة والفن. كما تحولت إلى مركز عالمي للترجمة، حيث استقر بها عدد من المفكرين والمهتمين بالترجمة من يهود ومسيحيين ومسلمين.

ولكن التطورات اللاحقة لم تتح لهذه المملكة إمكانية الاستمرار في هذا الاتجاه. فقد تعرضت للغزو من قبل الغاليين، الذين لم يتمكنوا من السيطرة عليها سوى لفترة قصيرة ليتركوا مصيرها بين أيدي الأراغونيين الذين غزوها بدورهم حوالي سنة 1282.

ويمكن أن نتصور أي اتجاه كان يمكن أن تسلكه هذه المملكة الأصيلة، التي نشأت في المجال المسيحي المتوسطي، لو لم ينته مصيرها على النحو الذي ذكر. فقد كان من الممكن أن تصبح كيانا مستقلا أو لكانت قد اندمجت في العالمين البيزنطي أو الإسلامي. وأرى من هذه الزاوية بالذات بأن أوربا "ككيان موحد" لم تكن "مسجلة" على الدوام في ديوان الجغرافيا أو في ديوان التاريخ.

21) حضارة أوربا خلال القرن الثاني عشر

بلغت التحولات الكبرى التي شهدتها أوربا خلال القرن الحادي عشر مستوى رفيعا من النضج خلال القرن الموالي اصطلح المؤرخون على نعته بالنهضة.

ولكن تلك التحولات لم تكن مجرد عملية إحياء لثقافة العصر القديم، كما يوحي بذلك مفهوم النهضة، وإنما كانت تتضمن عطاءات جديدة في عدة مجالات. وإن الأفراد الذين كانوا وراء تلك العطاءات توخوا حجبها بغطاء لتبدو دوما في ثوب قديم.

وبما أنه من الصعب التوقف عند جميع العطاءات في مختلف المجالات، سأكتفي بتناول جوانب معينة من الثقافة ومن المواقف الذهنية التي أعدها من بين المجالات التي شهدت عطاءات جديدة. يتمثل الجانب الأول في اتجاه المسيحية نحو التأنيث وتغليب فكرة الألم؛ وهو اتجاه تجسد في صحوة غير مسبوقة لظاهرة تقديس مريم العذراء. كما تجسد أيضا في تحول شاب ظاهرة تقديس المسيح، حيث تحول "بطلها" من مسيح منتصر على الموت إلى مسيح يتأوه من شدة الألم. ويتمثل الجانب الثاني في نشأة حركة إنسية مسيحية جديدة ذات صبغة ايجابية. شهدت هذه الحركة تطورا بعد النشأة وأصبحت تشكل طبقة من بين طبقات الحركة الإنسية الأوربية التي نشأت واستغرقت وقتا طويلا لتتبلور أكثر فأكثر. وفي ضوء هذه الحركة الإنسية الناشئة أصبحت ذات الإنسان تتأكد بصورة أفضل. ولم يعد ذلك المخطأ الذي يرزح تحت وطأة الشعور بالخطيئة. كما حدث تغير ملحوظ فيما يتصل بمسألة الإيمان لدى فئات المجتمع، ولكن دون أن يمس هذا التغير جوهر الإيمان الذي ظل قويا وحيويا. وبموازاة ذلك أعيد النظر في دلالات مفهومين أساسيين يؤطران الفكر الأوربي برمته وهما : مفهوم الطبيعة ومفهوم العقل.

وسأحاول في الأخير إثراء هذا الملف بتخصيص حيز منه لمناقشة وجهة نظر الباحث الأنجليزي روبير أيان مور (Robert Ian Moore)[1] الذي يرى بأن تحولات القرن الثاني عشر تمثل "ثورة أوربية أولى"، تجسدت إيجابا في ازدهار اقتصادي واجتماعي ومعرفي، تم في إطار عودة استتباب النظام الذي جعل أوربا تبدو في صورة القارة التي تضطهد والتي تقصي كما سيتم توضيح ذلك.

22) ازدهار ظاهرة تقديس مريم العذراء

---

[1] - استعرض روبير أيان مور وجهة نظره، التي سيتوقف جاك لو كُوف عند بعض جوانبها في الفقرات اللاحقة، في كتابين هما :

- The First European Revolution, c. 970–1215, 2000, trad. fr. La première révolution européenne, Paris, Seuil, 2001.
- The Formation of a Persecuting Society: Power and Deviance in Western Europe, 950–1250, Blackwell, 1987, trad. Fr. La persécution. Sa formation en Europe, 950-1250, Paris, Les Belles Lettres, 1991 ; seconde édition augmentée, The Formation of a Persecuting Society: Authority and Deviance in Western Europe, 950–1250, Blackwell, 2007.

شهدت الديانة المسيحية تحولا جذريا بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر على اثر الصحوة الكبرى التي همت ظاهرة تقديس مريم العذراء.

والحقيقة أن ظاهرة تقديس مريم العذراء، بوصفها "أما لإلاه"، نشأت وتطورت منذ وقت مبكر في أوساط معتنقي المسيحية الإغريقية الأرثوذكسية ثم أخذت تتسرب شيئا فشيئا إلى الغرب المسيحي. غير أن هذا لا يعني البتة بأن الظاهرة لم يكن لها وجود قبل الفترة الكارولنجية. ولكن حدث ابتداء من مطلع القرن الحادي عشر أن أخذت تحتل موقعا متميزا بين معتقدات مسيحيي الغرب وضمن طقوسهم وشعائرهم.

واستتبع ذلك أن أضحى هذا التقديس موضوع إصلاحات قامت بها البابوية بين أواسط القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وقد ارتبط هذا التقديس بتطور التفاني في حب المسيح وتنامي العبادة القرابينية. وبما أن العذراء عنصر مهم في مسألة التجسد، وتضطلع بدور مهم في العلاقة بين الناس والمسيح، فقد غدت بمثابة محام فوض الناس له وحده حق تمثيلهم أمام ابنها الإلهي. وفي الوقت الذي اختص فيه معظم القديسين والقديسات في معالجة المصابين بالأمراض والعلل، فإن العذراء أضحت "مختصة" في الكرامات التي تفيد جميع الناس. فهي وحدها المؤهلة لحل مشاكل الرجال والنساء. ومن ثم، غدا لها دور قوي ومركزي في خلاص الناس من الخطيئة، بمن فيهم المجرمون والمذنبون، الذين تلتمس لهم الثواب والمغفرة من لدن المسيح.

وأعتقد بأن العذراء ارتقت، في ظل هذا الوضع، الى مرتبة رفيعة فغدت بمثابة الشخصية الرابعة في الثالوث المقدس (الأب، الابن، الروح القدس). وتجسدت هذه المرتبة في كون مسيحيي غرب أوربا كانوا يخصونها بثلاثة أعياد ذات قيمة كبرى في المسيحية هي : عيد التطهير، وعيد البشارة، وعيد الصعود (أو الارتقاء).

جرت عادة المسيحيين بتخليد عيد التطهير في اليوم الثاني من شهر فبراير. وقد حل هذا العيد محل عيد وثني كان يحتفى به من قبل. ويحيل عيد التطهير إلى مسألة وجود المسيح الطفل في معبد القدس. ولكن المقصود من وراء إحيائه هو ابتغاء التطهير. رغم أن هذا المبتغى شكل موضوع جدال في أوساط رجال الدين، وبين عموم المسيحيين، فترة طويلة من الزمن تمحور حول علاقة مريم بالخطيئة. وتمت صياغته على النحو الآتي : بما أن مريم أنثى حملت ووضعت مولودا، ألا يمكن أن تكون قد وقعت في الخطيئة الكبرى؟ ولم تنتصر الفكرة التي مفادها أن مريم كانت عذراء عندما وضعت مولودا إلا منذ مطلع القرن التاسع عشر. ورغم ذلك، ظل مسيحيو الغرب الأوربي الوسيط يكنون التقدير لمريم العذراء ويبوئونها مكانة راقية تكاد تضاهي مكانة ابنها الإله.

أما عيد البشرى، فكان يتم تخليده يوم 25 مارس من كل سنة. وفي هذا اليوم

بشرت مريم، ومن خلالها الإنسانية كلها، بمسألة تجسيد الابن الإله. وتحيل هذه المناسبة إلى حدث الحوار الرسولي بين العذراء والملاك جبريل الذي يعد من بين أعظم الأحداث التي شهدها تاريخ الإنسانية. وقد شكل هذا الحدث موضوع أبحاث كثيرة ومصدر الهام للعديد من الرسامين الذين جسدوه في لوحاتهم منذ سنة 1344. وقد كانت تلك اللوحات بداية عهد الرسومات المنظورة المتعددة الأبعاد.

يمثل عيد ارتقاء مريم إلى السماء ثالث الأعياد التي يخلدها المسيحيون على شرف مريم العذراء. وكان يحتفى به يوم 15 غشت. ويعتقد المسيحيون وهم يخلدونه بأن مريم العذراء، حين توفيت ككائن بشري، لم ترتق فقط إلى السماء، أو إلى الجنة، وإنما ارتقت إلى جوار الله تعالى والى جوار ابنها الذي قام بتتويجها.

وعموما، فقد كان عامة المسيحيين يشتركون في إحياء هذه الأعياد. واشترك معهم رجال الدين بطبيعة الحال كمسيحيين عاديين، ولكن أيضا كمؤطرين وكرجال علم. ومن هذا المنطلق خص عدد منهم مريم العذراء بعدة مصنفات تكريما لها، منها ما يعرض لجوانب من ظاهرة التقديس، ومنها ما يعرض لنماذج من الكرامات المتصلة بها، ويتضمن أيضا بعض المقاطع التي كان المسيحيون يرتلونها بمناسبة الأعياد السالف ذكرها.

وبالإضافة إلى المؤلفات الكثيرة، تم تكريم مريم العذراء بكثير من الأعمال الفنية، تمثلت في رسومات وجداريات وأشكال منحوتة وغيرها تعبر عن مشاهد كثيرة من حياة مريم في علاقتها بالمسيح، بين مشاهد تجسدها أما جالسة تحمل المسيح غضا صغيرا على ركبتيها كما تفعل سائر الأمهات، ومشاهد تمثلها جالسة تحمل جثمانه على ركبتيها.

وقد ظلت ظاهرة تقديس مريم العذراء تشغل عقول وقلوب المسيحيين كثيرا رغم الإصلاحات الدينية التي قامت بها البابوية بهدف التقليل من هذه الظاهرة التي تجاوزت الحدود أحيانا. ويمكن استغلال التأكيد على هذا المعطى للتساؤل عما إذا كانت ظاهرة تقديس مريم تعكس تحسنا في وضعية المرأة على أرض الواقع؟ ويبدو من الصعب تقديم جواب مقنع عن هذا السؤال، نظرا لاختلاف المؤرخين. ويعود هذا الاختلاف إلى تناقض صورتي المرأة في أذهان هؤلاء المؤرخين بين صورة تمثلها مريم العذراء وصورة تمثلها حواء. ولكن هذا الأمر لا يمنع من القول بأن ظاهرة تقديس مريم العذراء دفعت إلى التحسيس بوضعية المرأة. كما أن الحب العذري، الذي سبق الحديث عنه، دفع هو الآخر في هذا الاتجاه لأن "سيدتنا" التي يتواجد ضريحها في جميع أنحاء العالم المسيحي تمثل أعلى مستويات الرقي التي وصلت إليها المرأة.

وتمثل أيضا المرأة التي تعلق بها الفارس. وتمثل في نهاية المطاف المرأة التي أغرم بها رجال العصر الوسيط بشكل عام.

وبغض النظر عما يمكن أن يقال في الموضوع، فإن ثمة حقيقة لا يمكن إنكارها، وهي أن ظاهرة تقديس مريم واكبها تغير فيما يتعلق بالزواج الذي أصبح ينظر إليه كرباط مقدس، كما واكبها تغير فيما يتعلق بوضعية الطفل ووضعية الأسرة النواتية اللذين أضحيا يحظيان بالاعتبار.

23) تغليب الألم في التفاني في حب المسيح

واكب ظاهرة تقديس مريم العذراء، التي تفيد بانجذاب التقوى لدى المسيحيين إلى نوع من التأنيث، اتجاه هذا التقوى نحو تغليب الشعور بالألم (la dolorisation). فقد جرت العادة، منذ العصر الروماني، بأن ينظرالمسيحيون إلى المسيح كنظرتهم للأبطال. وبذلك كانوا يتصورونه بطلا تغلب على الموت وخرج منتصرا. ولكن حدث أن اختفت هذه الصورة وحلت بدلها صورة تقدمه متألما.

يبدو من الصعب تحديد أسباب هذا التحول ومعرفة حيثيات نشأته. وأقترح لحل هذا الإشكال بعض الفرضيات منها :

- أولا. لم تعد البطولة مطلبا ملحا، ومن ثم، تراجعت صورة المسيح البطل.

- ثانيا. حدث تغير في أدوار العناصر التي يتألف منها الثالوث المقدس (الأب، الابن، الروح القدس) بالإضافة إلى مريم كعنصر رابع. وفي ضوء هذا التغير، فإن "الله الأب" هو الذي أصبح يحظى بالجلالة في المقام الأول. وقد حدث ذلك في سياق التحولات السياسية في أوربا، والتي بموجبها أصبح على رأس السلطة ملوك دنيويون لا يحبذون أن تعلو أية سلطة فوق سلطتهم.

- ثالثا. انتشرت طوائف الفقراء في العالم المسيحي. فانبرى كثير من المسيحيين للقيام بأعمال البر والإحسان وتقديم الأعطيات والصدقات، مما أثر على توجهات الكنيسة التي اضطرت للتفاعل مع هذه الحركة. فأخذت ترعى الفقراء والمعوزين والمرضى وتروج في أوساط المسيحيين شعار "اقتف عاريا أثر المسيح العاري". وتجسد هذا الشعار في صورة أضحت منذئذ شائعة في أوربا، وهي صورة المسيح المصلوب التي يجسدها ذلك الصليب المكون من قطعة عمودية طويلة أكثر قليلا من قامة الإنسان تقطع جزءها العلوي قطعة أخرى قصيرة أفقية. وإن هذا الصليب الذي يحمل إسم "كروسيفيكسوس" (crucifixus) أو (crucifux)، هو الذي أصبح معروفا منذ القرن الحادي عشر بدل الصليب ذي هيأة علامة زائد (la croix).

وبناء على ما تقدم، اختفت صورة المسيح البطل وحلت مكانها صورة تمزج بين البعدين الرمزي والحقيقي، هي صورة المسيح الذي يتأوه من شدة الألم. واستتبع ذلك أن فتحت هذه الصورة الباب أمام شيوع ظاهرة التدبر في المعاناة، وفي كل ما له صلة بجثة الميت وبالموت، وهي صورة شاءت الأقدار أن تنتشر في أوربا منذ مطلع القرن الرابع عشر. وانبثقت، تبعا لذلك، في سائر أنحاء العالم المسيحي أوربا الجثة، ثم الرأس فيما بعد.

24)الإنسان في صورة اله

الإنسية المسيحية

سمح تطور الديانة المسيحية ابتداء من مطلع القرن الثاني عشر بإمكانية إعادة تشكيل صورة الإنسان في علاقته بالله. فالإنسان لم يكن له وجود يذكر خلال العصر الوسيط الأعلى. وفي أحسن الأحوال كان يرمز له بأيوب الخانع المذلول الذي تحدث عنه كَريكَوار الأكبر في القرنين السادس والسابع. وبعد سنة 1033 أصدر الراهب وعالم اللاهوت أنسلم الكنتربيري (Anselme de Cantorbéry) كتابه "لماذا جعل الله من نفسه إنسانا؟" (Cur deus homo)[1]، فأخذت تتشكل صورة جديدة للإنسان تمخضت عن إعادة قراءة الكتاب المقدس، والنصوص المتعلقة بالخلق. فأخذ أنسلم وغيره، من القائمين بتلك القراءة الجديدة، يروجون لفكرة مفادها أن الله خلق الإنسان في صورته وجعله مشابها له. ومنذئذ قدر لصورة الله هذه، في ثوبها الإنساني، أن تظل سارية المفعول. وأصبح الخلاص الذي يسعى إليه الإنسان مسبوقا بمجهود يقوم به لكي يرتقي من موقعه على الأرض إلى هذا الشبه مع الله.

وبناء عليه، فقد أصبحت الإنسية المسيحية تقوم منذ هذا الوقت على هذا التماثل. واقتضت صياغتها توظيف عنصرين كان يكتنفهما غموض منذ القرون المسيحية الأولى وهما : الطبيعة والعقل.

---

[1] - أنسلم الكنتربيري راهب ايطالي ينتمي لطائفة البندكتيين. ولد سنة 1033 وتوفي سنة 1109. ينحدر من أسرة نبيلة ثرية. انتقل بين ايطاليا وغالة وأنجلترا. التحق سنة 1079 بأحد الأديرة البندكتية كراهب ثم ترقى، فغدا سنة 1093 على رأس أسقفية كنتربري. كما شغل منصب مستشار ملك انجلترا.

لم تصرفه انشغالاته الدينية والدنيوية عن البحث والتاليف في حقلي الفلسفة واللاهوت، حيث انخرط، بتلك الأبحاث والمؤلفات، في الجدل الدائر بين مفكري عصره حول دلائل اثبات وجود الله، وحول العلاقة بين الايمان والعقل. ويندرج المؤلف الوارد ذكره في المتن في هذا السياق. وقد صاغه على شكل حوار بينه وبين أحد تلامذته. فوضح فيه تجانس العناصر التي تتألف منها العقيدة المسيحية. وخصص فصولا منه لانتقاد القائلين بأن تلك العقيدة تتناقض والعقل.

اهتم بهذا الكتاب، وبغيره من مؤلفات أنسلم، الباحثون القدامى والمحدثون، كما تم نقله الى مختلف اللغات الأوربية.

يمكن القول بخصوص العنصر الأول، أن فكر العصر الوسيط الأعلى غلب عليه التصور الرمزي للطبيعة. وقد ذهب القديس أوغسطين، أحد أقطاب الفكر آنذاك، إلى جعل ما فوق الطبيعة كلا والطبيعة جزءا من هذا الكل. وعلى غرار مفكري هذه الحقبة، ظل عدد من رجال القانون خلال القرن الثاني عشر لا يميزون بين الطبيعة والله. ورغم ذلك، بدأ نفر منهم يميز بين مفهوم الطبيعة ومفهوم ما فوق الطبيعة خلال هذه الفترة بالذات. وأخذ مفهوم الطبيعة، في دلالته، كعالم فيزيائي وكوسملوجي يتبلور شيئا فشيئا. ولا أنكر أن دور التراث الإسلامي والتراث اليهودي كان حاسما في هذا المقام، لأنهما انتقلا إلى أوربا، فاطلع مفكرو الغرب من خلالهما على مؤلفات مفكري الإغريق، من أمثال أرسطو، التي لم يكونوا يعيرونها أي اهتمام.

ومهما يكن من أمر، فقد أفضى هذا الاجتهاد إلى شيوع المفهوم الجديد للطبيعة في أوساط المفكرين. وتغير في ضوئه سلوك الأفراد كما يتجلى ذلك، على سبيل المثال، في التنديد بالمثلية الجنسية التي اعتبرت "خطيئة منافية للطبيعة".

وعلى غرار مفهوم الطبيعة، كان مفهوم العقل فضفاضا وغامضا هو الآخر خلال العصر الوسيط الأعلى. وابتداء من مطلع القرن الثاني عشر شرع المفكرون في إعادة ضبط دلالاته. وقد كانت إسهامات القديس أنسلم حاسمة في هذا الاتجاه، حيث دعا إلى تبني مبدإ "الايمان يسبق الفهم، وبعد ذلك يجب على المرء أن يفهم ما آمن به". ثم أعاد الأسقف الفيكتوري هيوغ (Hugues de Saint-Victor)[1] طرح المسألة. فميز في العقل بين "عقلين" : عقل أعلى مختص بالحقائق المتعالية، أو "الترنسندنطالية"، وعقل أسفل مختص بالقضايا المادية الدنيوية.

ومما لا شك فيه، أن تجديد السؤال بخصوص هذه القضايا يفيد بأن اللاهوت دخل مجال التطور وإعادة النظر في كثير من المسلمات. ويمكن الاستشهاد في هذا الشأن بما أورده الأب شوني (le Père Chenu)[2] الذي يذكر بأن علم اللاهوت تطور

---

[1] - عالم لاهوت وفيلسوف. ولد سنة 1096 بمقاطعة ساكس على الأرجح. بدا حياته كراهب في دير القديس ڤيكتور (بالقرب من باريس) الذي التحق به سنة 1118.

درس اللاهوت والفلسفة، وتأثر كثيرا بالقديس أوغسطين. واهتم، كغيره من مفكري عصره، بالقضايا الدينية والفلسفية. وزاد عن اكثرهم في اهتمامه بالعلوم البحتة والفنون، انطلاقا من مبدأ تبناه مفاده أن "ثمة وحدة بين المعارف والكائن الانساني.حدث أن انفرطت تلك الوحدة، ويتوجب اعادتها الى وضعها السابق". وهذا ما يبرر تنوع المؤلفات التي وضعها قبل وفاته سنة 1141.

[2] - يتعلق الأمر بالأب ماري-دومينيك شوني (Marie-Dominique Chenu) أحد الوجوه البارزة في الكنيسة الأوربية المعاصرة.

ولد يوم 7 يناير 1895 ببلدة سواسي (Soisy) قرب باريس. وتوفي يوم 11 فبراير 1990.

تلقى تعليمه الإعدادي بمؤسسة كاثوليكية بلجيكية، ثم انخرط منذ بلوغه سن الثامنة عشرة في طائفة المسيحيين الدومينيكان. ورحل بعد مدة الى روما التي درس بها اللاهوت والفلسفة. وبعد عودته الى بلجيكا عكف على الوعظ

مقتفيا في ذلك التطور العام الذي حصل في مناهج تحليل نصوص النحو، والمنطق، والجدل. وكان معنى ذلك، في نهاية المطاف، أن المسيحية أخذت تسلك طريق المدرسية (la scolastique).

قامت الإنسية المسيحية على عنصري الطبيعة والعقل اللذين أعيد النظر في دلالاتهما حسبما تم توضيح ذلك. كما قامت أيضا على إعطاء الاعتبار لذات الإنسان الباطنية، أي لكنهه وللجانب الحميمي فيه. وحدث ذلك بالرجوع إلى نظرية أرسطو في هذا الشأن، حيث أعيدت صياغتها في قالب مسيحي تحت شعار: "اعرف نفسك بنفسك أيها المسيحي". فأفضى تبني هذا الشعار إلى صياغة جديدة لمفهوم الخطيئة الذي أضحى يقوم على مبدإ حسن النية والقصد. وتحول هذا المبدأ الخاص بدوره إلى مبدإ عام هو "مسائلة الذات" (introspectus) و(l'introspection) الذي تم إقراره في المجمع الديني الذي التأم بموقع لتران (Latran) بمدينة روما سنة 1215.

قصارى القول، قامت الإنسية المسيحية على مبدأ مراجعة وإعادة صياغة مفاهيم قديمة تم إثراؤها خلال القرن الثاني عشر. ولذلك اتخذت هذه الإنسية أحيانا أشكالا مختلفة أو متناقضة كما هو واضح في طروحات أعلام فكر القرن الثالث عشر، أمثال القديس أبيلار والقديس بيرنار والقديس يوحنا السارسبرنسي (Joannis Saresberiensis) (Jean de Salisbury).

والأهم من ذلك، هو أن الإنسية المسيحية تبلورت في سياق تحولات كبرى وعميقة تحدث عنها معظم المهتمين بتاريخ العصر الوسيط، ومن بينهم روبير أيان مور (Robert Ian Moore) الذي يرى في تلك التحولات "ثورة أوربية أولى" حدثت بين القرنين العاشر والثالث عشر. والذي يدافع عن فكرة مفادها أن أوربا نشأت خلال الألفية الثانية وليس خلال الألفية الأولى.

وتعقيبا على وجهة نظر روبير أيان مور، يمكن القول بأن هذا الأخير يحبذ التركيز على الفترة الممتدة بين القرنين العاشر والثالث عشر على حساب العصر الوسيط الأعلى، في حين أرى شخصيا بأن العصر الوسيط الأعلى يشكل طبقة لا تقل أهمية عن الطبقة التي تشكلها الحقبة الممتدة بين سنتي 1000 و1300. بل أميل الى التأكيد بأنهما يمثلان معا طبقتين حاسمتين في عملية بناء أوربا.

والتدريس بمدرسة سولشوار (Saulchoir) التابعة لطائفة الدومينيكان .واهتم بالتأليف في اللاهوت الذي خصه بمجموعة مؤلفات من بينها :

- La théologie au XIIe siècle, Paris, Vrin, 1957.
- La théologie comme science au XIIIe siècle, Paris, Vrin, 2002, (3e édition).

وعموما، يرى روبير أيان مور بأن "عملية المزج بين القدرة والفضول والبراعة هي التي كانت وراء انكباب الأوربيين بشكل مكثف على استثمار الأراضي واستثمار الجهد العضلي، وعلى استغلال أمثل لقوة مؤسساتهم، مما سمح بخلق الظروف اللازمة من أجل تطوير رأسمالهم، وصناعاتهم، وإمبراطورياتهم بغض النظر عن الحصيلة. وهذا ما يمثل، الحدث المركزي، ليس في تاريخ أوربا فحسب، بل في تاريخ العالم الحديث برمته".

وأعتقد بأن ما يقول به روبير أيان مور يكتسي قيمة بالغة، لأن فيه تأكيد على المنعطف الكبيرالذي شهدته عملية بناء أوربا، رغم بعض المبالغات التي تتضمنها القولة. وستتم العودة للحديث عن هذا المنعطف في الفصل الموالي من الكتاب الذي سيخصص للقرن الثالث عشر، لأن هذا القرن يمثل الحقبة المثالية التي يمكن أن نقف من خلال النظر إليها إلى عظمة البناء الذي استند على المدن بشكل خاص. رغم أن هذا الحيز الزمني بالذات، شهد بداية توقف المد القوي الذي تحقق خلال القرن الثاني عشر.

25) ميلاد أوربا الاضطهاد

أعتقد أن الوقت حان لاستعراض بعض الظواهر السلبية التي أسفر عنها ذلك المد. وأحيل القارئ بخصوص هذا الجانب على روبير أيان مور مجددا، لأنه استطاع وضع الأصبع على ما يسميه نشأة "مجتمع الاضطهاد". فماذا حدث اذن؟ لقد عاش مسيحيو الغرب فترة طويلة من الزمن ضعافا، يسيطر عليهم إحساس بالخوف. ثم ساد بينهم فيما بعد شعور بالطمأنينة المادية والفكرية والدينية. ورغم أن الكمال لم يتحقق، فقد أصبح المسيحيون واثقين من أنفسهم. وتبعا لذلك تحولوا إلى توسعيين، بل إلى عدوانيين، لأنهم أرادوا استئصال كل جرثومة مولدة للنجاسة في مسيحية قوية وناجحة. فنتجت عن ذلك سلسلة حركات كانت من ورائها الكنيسة والسلطات الدنيوية بهدف تهميش، أو إقصاء، رؤوس الفتنة والدنس. وكان من أبرز ضحايا عمليات "الاضطهاد": الهراطقة (أو الخارجون عن الدين) أولا، ثم اليهود، والمثليون (من الرجال) والمصابون بالجذام.

26) الهراطقة

واكبت الهرطقة تاريخ المسيحية منذ نشأتها. ومن المعروف أن هذه الديانة الجديدة أقرت، من خلال سلسلة مجامع دينية، عقيدة رسمية تبنتها الكنيسة وأضحت بمثابة أرثوذكسية. وكان من المنتظر أن تنشأ إزاء هذه الأرثوذكسية عدة

"اختيارات" (des choix). ومن ثم، نشأت كلمة "هرطقة" (une hérésie) التي تعني في الأصل اختيار(un choix).

وكان من الطبيعي أن تندد الكنيسة بالهرطقة، لأنها كانت تتعلق بقضايا تمس جوهر العقيدة، مثل قضية الموازنة في المرتبة بين الأشخاص الثلاث الذين يؤلفون الثالوث المقدس، وقضية المسيح، الذي لم يعترف أقطاب الهرطقة بطبيعته الإلهية أو البشرية.

وتشعبت الهرطقة بطبيعة الحال لتأخذ أحيانا منحى اجتماعيا، كما حدث مثلا في شمال إفريقيا من خلال الحركة الدوناتية التي عارضها بشدة القديس أوغسطين. ورغم ذلك، لم تخرج الهرطقة عن نطاق قضايا العقيدة. وظلت محدودة نسبيا حتى مطلع القرن العاشر، حيث اندلعت موجة عارمة من الحركات الهرطقية ميز فيها الباحثون بين حركات عالمة وحركات شعبية[1]. وعموما، فقد كان بعضها يعبر عن تطلع عدد من المسيحيين إلى صفاء أكثر للسلوك، بينما كان بعضها الآخر يعبر عن رغبة عامة في مباشرة الإصلاح. وهذا النوع هو الذي مهد في واقع الأمر للإصلاح الكْريكْوري الذي سبق الحديث عنه.

من المفيد القول لتوضيح الأمر أكثر بأن الهدوء الذي شهدته الحقبة الكارولنجية، تلته اضطرابات وقلاقل كانت من ورائها الكنيسة واللائكيون في ذات الوقت، لأن كل طرف منهما كان يسعى للإفلات من سيطرة الطرف الآخر. بينما يفيد الواقع بأن الكنيسة كانت دائما الطرف المسيطر، معنويا وماديا، منذ نشأة الديانة المسيحية. ويبدو أن الحركات الهرطقية التي كانت ترفضها الكنيسة، هي تلك الحركات التي كانت تحاول المساس بهذه السلطة. وقد انتشرت في كل من أورليان (Orléans) وأراس (Arras) وميلانو ولومبارديا. وكانت عموما أقل تطرفا من الحركات التي انتشرت في كل من لوثارانجيا (la Lotharingie) وجنوب غالة وشمال ايطاليا. فبدا الوضع ينذر بميلاد "أوربا الاحتجاج". ولكن الكنيسة بدت غير قادرة على التطور بين ضرورة القيام بإصلاح في أوساط رجال الدين، والعمل على قمع تلك الحركات التي استشرت في مجال واسع.

كان الإصلاح يقتضي محاربة عمليات بيع الأسرار(les sacrements)، والمناصب الدينية، والتصدي لظاهرة زواج الرهبان ومعاشرة النساء، وإعادة الثقة في

---

[1] - لتكوين فكرة عن هذا التمييز يمكن العودة إلى أعمال المؤتمر العلمي الذي احتضنه دير رايومون (Rayaumont) السيستيرسي في شهر مايو 1962. وقد صدرت تلك الأعمال سنة 1968 في مؤلف بعنوان :
Hérésies et sociétés dans l’Europe pré-industrièlle XI-XVIIIe siècle, Paris-La Haye, Mouton.

أوساط كثير من عامة المسيحيين الذين كانوا يرفضون تلقي ما يسمى بالأسرار، المفضية للخلاص، من قبل كهنة مشكوك في سلوكهم.

وكان عدد من الهراطقة يرفضون تقديس الصليب بنوعيه، أو القيام ببعض المناسك التي أقرتها الكنيسة تحت تأثير بعض التنظيمات القوية مثل دير كلوني. ومن بين تلك المناسك إقامة الصلوات على أرواح بعض رجال الدين، أو تقديم مقابل للكهنة والرهبان الذين يقومون بذلك، أو تقديس بعض المدافن.

ويبدو أن النقطة التي أفاضت الكأس، تمثلت في اتهام المعارضين للكنائس ولرجال الدين بالاغتناء الفاحش. فأخذ رجال الكنيسة يشعرون بكونهم أضحوا يقيمون في قلعة يحاصرها الأعداء من كل جانب. فكان لا بد من إيجاد مخارج. فلجأوا إلى أساليب متجاوزة، وغير منسجمة مع مستجدات العصر كنعت المعارضين بألقاب تنتمي للعصر القديم المتأخر من قبيل "المانويين" أو "المتطرفين" الذين يضعون حدا فاصلا بين الخير والشر.

واتخذ دير كلوني، بوصفه المؤسسة الدينية المسيطرة على الكنيسة، على عاتقه مسؤولية التصدي للهراطقة. فوضع بطرس المبجل (Pierre le Vénérable)، الذي تزعم إدارة الدير، ابتداء من سنة 1122، ثلاثة مؤلفات استعرض فيها التحديات التي تواجهها الكنيسة. فعدت منذئذ بمثابة "مؤلفات تربوية" خاصة بالأرثوذكسية المسيحية.

خص الأول منها لدحض طروحات بيير دي بريس (Pierre de Bruys) أحد أقطاب الهراطقة الذي ألب كثيرا من مسيحيي إحدى القرى بجبال الألب ضد الشعائر المتصلة بالأسرار، وضد الصلوات على أرواح الموتى، وضد تقديس الصليب. وخصص الثاني للحديث عن رسول الإسلام الذي وصفه بكونه مشعوذ. بينما خصص المؤلف الثالث للحديث عن اليهود الذين نعتهم بكونهم "قتلة الله"، لأنهم قاموا بصلب المسيح[1].

شكلت سنة 1140 بداية انطلاق هجوم كاسح ضد الهرطقة التي وصفتها الكنيسة، من منطلق الدلالة الجديدة التي أعطيت لمفهوم الطبيعة، بكونها مرض كالجذام أو طاعون. وحذرت، عموم المسيحيين، بأن الأمر يتعلق بمرض معدي.

---

[1] - المؤلفات المشار إليها هي :

- Contra Petrobrusianos hereticos (vers 1141), édi. par James Fearns, Turnhout (Belgique), Brepols, coll. "Corpus Christianorum Continuatio Mediaevalis", 1968. Contre les Pétrobrusiens, disciples de Pierre de Bruys précurseurs de l'Église vaudoise.
- Contra Sarracenos, édi. par J. Kritzek, Peter the Venerable and Islam, Princeton University Press, 1964.
- Adversus judaeorum, édi. par Y. Friedman, Turnhout, Brepols, 1985

ويبدو أن المهمة لم تكن سهلة، لأن الهرطقة كانت قد استشرت في عدة مناطق وأصبح لها كثير من الأتباع. ففي جنوب غالة انتشرت في صفوف عدد كبير من سكان قمطية تولوز الذين نجحوا سنة 1167 في عقد مجمع ديني تحت أنظار القمط. بل الأدهى من ذلك أن عددا من الأسر النبيلة انخرطت في هذه الحركة، لأنها كانت تعارض مبدأ الكنيسة القاضي بمنع الزواج بين ذكور وإناث من نفس القرابة. وقد ترتبت عن هذا المنع تجزئة استغلاليات كثير من تلك الأسر.

وأخذت هرطقة جنوب غالة تتجه لتأخذ شكل مانوية حقيقية عرفت "بالتقطيرية" (le catharisme)[1]. فكان معتنقوها يمتنعون عن كل الماديات والشهوات، ويمارسون طقوسا مختلفة كثيرا عن طقوس الكنيسة المسيحية. و تميز بعضهم بكونهم آثروا حياة العفة والسمو بالنفس عن الملذات، فكانوا يحظون بنوع من التقديس عندما يتقدم بهم العمر. وأعتقد أن "التقطيرية" لم تكن هرطقة مسيحية، وإنما كانت ديانة أخرى. وقد اكتسبت كل هذه الأهمية التي أحاطت بها لأن الكنيسة بالغت من خطورتها بهدف القضاء عليها؛ ولأن بعض مناضلي، القرن العشرين، المنتمين لموطنها مجدوها، باعتبارها إرثا محليا. وعلى كل، فهذا لا يعني التقليل من قوة العنف الذي جوبهت به الحركة، كما أنه ليس تقييما لمدى نجاحها لأنه أمر بالغ الصعوبة. ولو قدر لها أن تنجح لأصبحت أوربا قارة أصولية.

ظهرت في غالة، إلى جانب الحركة التقطيرية، السابق ذكرها، هرطقة تزعمها شخص تاجر، لم يكن برجل دين، يدعى بيير ڤالديس (Pierre Valdès). وزع ما

---

[1] - من المفيد الإشارة إلى أن الباحثين العرب القلائل الذين تناولوا بإيجاز تاريخ هذه الحركة الدينية، تحدثوا عنها باسم "الكاثارية" الذي رأوا أنه التسمية المقابلة للتسمية الأنجليزية "catharism". وخلافا لهم، فإننا نحبذ تسميتها بالحركة "التقطيرية" لأن كلمة catharism (بالأنجليزية) أو catharisme (بالفرنسية) مشتقة من كلمة "katharós" ذات الأصل الإغريقي، وتعني الشيء الصافي أوالطاهر(pur). وقد سعى أقطاب الحركة، عند ظهورها، إلى تطهير ← المسيحة مما رأوه شوائب شابتها منذ نشأتها، وكذلك تطهير أرواح المسيحيين. فقاموا بما يشبه عملية "تقطير" للمسيحية، كالعملية التي يقوم بها من يريد استخلاص سائل، أو عطر. فهو يقوم بعملية تقطير لاستخلاص السائل أو العطر، أو ماء الورد.

وقد حظيت الحركة باهتمام عدد كبير من الباحثين، حتى ان بعضهم قضى ردحا من حياته في التأليف فيها. ومن بين هؤلاء جون دوڤيرنوا وروني نيلي. اللذين يمكن العودة الى مؤلفيهما :

- Jean Duvernoy, Le Catharisme : La Religion des Cathares, Toulouse, Les Éditions Privat, 1976.

Le Catharisme : L’Histoire des Cathares,Toulouse, Les Éditions Privat, 1979.

- René Nelli, Les Cathares, Paris, Les Éditions Marabout, 1972.

:

تبقى له من ثروة على الفقراء، ونادى بالتقشف اقتداء بالمسيحيين الأوائل، وبعيش حياة بسيطة وفق ما تنص عليه تعاليم الكتاب المقدس. وقد لاقت دعوته صدى كبيرا وانخرط فيها كثير من سكان مدينة ليون (Lyon).

وأعتقد أن "الڤالديسية" لم تكن في الأصل هرطقة مناوئة للكنيسة، وإنما كانت عبارة عن حركة تروم القيام بإصلاح يكون فيه اللائكيون طرفا فاعلا.

ظلت الكنيسة صماء وآثرت إتباع سياسة "العصا الغليظة" تجاه الهراطقة. وذلك ما تحقق سنة 1184 حين استصدر البابا لوسيوس الثالث (Lucius III)، بتواطؤ مع الإمبراطور فردريك، ظهيرا يقضي بملاحقة الهراطقة في كل مكان دون هوادة. وواصل البابوات الذين اعتلوا عرش البابوية بعده سياسة الملاحقة، والتنكيل بالهراطقة، ومصادرة ممتلكاتهم. فتحولت تلك السياسة إلى ما يشبه الحرب الصليبية، ولكنها حرب داخل أوربا. استنفرت الكنيسة أعدادا من "الصليبيين اللائكيين" لخوضها.

وبما أن مناطق جنوب غالة كانت موطن أهم الحركات الهرطقية، فقد كانت كذلك أهم ساحة احتضنت حرب الكنيسة ضد هذه الحركات. وجرت وقائع تلك الحرب في قمطية تولوز بشكل عام وفي بلدة بيزيي بشكل خاص، حيث عاث فيها أنصار الكنيسة فسادا ونكلوا بأهلها. فنعتت وقائعها بكونها كانت بحق "حربا صليبية" ضد القطاريين.

وانضم ملوك وأمراء كيانات غرب أوربا إلى هذه "الحرب الصليبية" بموجب مرسوم، صدر عن مجمع لتران المنعقد سنة 1215، يقضي بالتزام هؤلاء الملوك والأمراء بالمشاركة في الحرب ضد الهراطقة. كما يقضي بأن يقوم اليهود بتثبيت قطعة ثوب دائرية الشكل وحمراء اللون على ملابسهم لتمييزهم عن سائر الناس. وبموازاة هذه الإجراءات تم تنصيب محكمة تابعة للكنائس وللبابوية يقدم إليها كل مشتبه في انتمائه إلى إحدى الجماعات الهرطقية. واستبدلت هذه المحكمة منهج الاتهام الذي كان معمولا به بمنهج "التفتيش"(l'inquisition) عن طريق الاعتراف بالذنب. وغالبا ما كان الاعتراف بالذنب ينتزع من الشخص انتزاعا عن طريق التعذيب الذي لم يعد أسلوبا معمولا به منذ العصر الوسيط الأعلى إلا في حالات نادرة. لأن العبيد وحدهم هم الذين كانت تمارس في حقهم شتى أصناف العقوبات الجسدية. وقد كان روبيرأيان مور محقا حين ذهب الى القول بأن التفتيش مثل أبشع مظاهر أوربا الاضطهاد. إذ بموجبه أعدم حرقا عدد كبير من الذين انتزعت منهم اعترافات بالانتماء لجماعات الهراطقة، رغم أنه من الصعوبة بمكان تقديم رقم تقريبي عن عدد الأفراد الذين حوكموا بالإعدام. وكان تنفيذ الحكم يوكل للسلطات الدنيوية، التي تقوم بذلك

بوصفها الذراع السياسي والعسكري للكنائس وللبابوية. وتبعا لقسوة المصيرالذي كان ينتظركل من" اشتمت فيه رائحة" الانتماء إلى الجماعات الهرطقية، فقد تقلص عدد معتنقي "التقطيرية" منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وانحصر في مجموعات قليلة اعتصمت بالجبال والمرتفعات. مثل سكان قرية مونتايو (Montaillou) الواقعة بمنطقة أرييج (l'Ariège) الذين خصهم إيمانويل لو روا لادوري (Emmanuel Le Roy Ladurie) بكتاب نموذجي رائع[1].

27) اضطهاد اليهود

مثل اليهود الطائفة الثانية التي شملها الاضطهاد من قبل الكنيسة والقائمين على الأمر في الممالك الأوربية. والواقع أن اليهود لم يكونوا أبدا مصدر إزعاج بالنسبة للمسيحيين وحتى مطلع القرن العاشر كان عددهم قليلا في غرب أوربا. وكانوا، الى جانب بعض المشارقة، من لبنانيين وسوريين وغيرهم، يمتهنون التجارة التي كانت وقتئذ محدودة بين العالم المسيحي والمشرق. ولم تتخذ الكنيسة موقفا متشددا من علاقة اليهود بالمسيحيين خلافا لكنيسة القوط الغربيين بشبه جزيرة أيبيريا، التي كانت متشددة تجاه اليهود حتى تاريخ سيطرة المسلمين على الأندلس.

وظلت علاقة المسيحيين باليهود علاقة عادية زمن حكم الأسرة الكارولنجية، رغم أن بعض رجال الدين المسيحيين لم يكونوا ينظرون بعين الرضى لليهود. وحين انتشرت الفيودالية في غرب أوربا وقع معظم اليهود في شرك القنانة. فوضع بعضهم تحت حماية السنايير، بينما وضع أكثريتهم تحت حماية الأمراء والملوك.

ومن المفيد التذكير بأن عدد اليهود كان يناهز الأربعة آلاف شخص في ألمانيا حوالي سنة 1000. وتكاثروا ليبلغ عددهم عشرين ألف نسمة في غضون قرن من الزمان. ويبدو أنهم كانوا يتمتعون ببعض الحظوة لأن الأمراء كانوا يفضلون الاعتماد على خدماتهم بدل المسيحيين.

ويعزى ارتفاع أعداد اليهود، المستقرين بألمانيا وبعموم ممالك غرب أوربا، لتحسن الأوضاع الاقتصادية بعد مطلع القرن الحادي عشر. كما أن هذا التحسن ذاته كان وراء ظهور ملامح سياسة الاضطهاد التي أصبحوا عرضة لها. ولكن قبل ظهور هذه الملامح، كانت علاقة المسيحيين باليهود عادية. وكانت اليهودية هي الديانة

---

[1] - المقصود هنا كتاب :
Montaillou, village occitan de 1294 à 1324, Paris, Gallimard, 1975.

الوحيدة التي اعترف بها الأمراء والملوك المسيحيون، وسمحوا لمعتنقيها بإقامة المعابد والمدارس.

ويبدو أن تحسن الأوضاع الاقتصادية، الذي دفع المسيحيين لخوض الحروب الصليبية ونجاحهم في الاستيلاء على بيت المقدس سنة 1099، قلب الأوضاع رأسا على عقب. فقد أحيت معاينة المحاربين والحجاج لبيت المقدس عن كثب شعورا دفينا لديهم بالحقد على اليهود الذين كانوا، في نظرهم، وراء المصير الذي انتهت إليه حياة المسيح. فاخذ هذا الشعور ينمو بوتيرة سريعة. وتحول خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر إلى عمليات تنكيل وملاحقة لليهود من قبل عامة المسيحيين. وكانت وراء عمليات التنكيل الأولى إشاعات راجت في أوساط العامة، مفادها أن اليهود قتلوا يوما شابا مسيحيا واستعملوا دمه في طقوسهم. وأسفرت تلك العمليات عن سفك دم عدد من اليهود. وراجت أول إشاعة من هذا القبيل في مدينة نورتش (Norwich) بأنجلترا سنة 1144. وتلتها اشاعات أخرى خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر والنصف الأول من القرن الموالي،كما حدث مثلا في مدينة لينكولن(Lincoln) سنة 1255، حيث شاع في أوساط سكانها أن مجموعة من اليهود عذبوا شابا مسيحيا حتى الموت. فتم القاء القبض على 19 يهوديا سيقوا الى لندن التي اعدموا فيها شنقا. وكان من الممكن أن تكون الحصيلة أكثر، لولا تدخل أخ الملك الذي أنقذ أرواح 90 نفرا من اليهود. وتوالت مثل هذه الاشاعات خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وراجت في سائر أنحاء الغرب المسيحي، باستثناء مملكة غالة، التي لم تحدث فيها أية عملية تنكيل باليهود الا بعد سنة 1270.

ولم تتوقف دواعي التنكيل باليهود عند حد اتهامهم بقتل شباب مسيحيين، بل أخذت تتنوع حين راجت شائعة تفيد بأن اليهود يدنسون الخبز، الذي كان يحضر نوع منه ليقدم كصدقة (l'hostie). فأخذت الكنيسة تتهمهم بالمس بالشعائر والطقوس لتأليب المسيحيين ضدهم.

وكانت تلك الاشاعات، وما ترتب عنها من عمليات تنكيل وتقتيل طالت أعدادا من المتهمين، مدخلا لبداية موجات تهجير جماعي لليهود من معظم ممالك غرب أوربا. حدثت أولاها في أنجلترا سنة 1290، ثم في فرنسا سنة 1306، وتوالت عمليات تهجير اليهود خلال القرن الرابع عشر بالموازاة مع اشتداد الأزمة الاقتصادية، وانتشار الطاعون الأسود، واتهام اليهود بكونهم هم المسؤولين عن تفشي العدوى، وبكونهم يقفون وراء المصائب التي أصبح يتخبط فيها المسيحيون. وتم تشديد الخناق على الأعداد القليلة من اليهود الذين ظلوا مستقرين بممالك غرب أوربا. فقد منعوا من حق امتلاك استغلاليات، ومن حق مزاولة أية حرفة أو نشاط اقتصادي. كما

خصصت لهم أحياء كانوا يقيمون بها. ورغم ذلك، ظلت أعداد مهمة منهم مستقرة في بعض مقاطعات ألمانيا، وبعض المناطق الواقعة تحت نفوذ البابوية. كما لم يستطع الملوك الاستغناء عن خدمات بعضهم كأطباء لهم في القصور، أو كممولين لهم بما كانوا يتوفرون عليه من ثروات نقدية.

وانطلاقا مما تقدم، يمكن القول بأن اضطهاد اليهود شكل بدوره مظهرا بشعا من مظاهر أوربا الاضطهاد إلى جانب محاكم التفتيش التي سبق الحديث عنها. والملاحظ أن اضطهاد اليهود استمر بعد العصر الوسيط. واصطبغ خلال الأزمنة الحديثة والمعاصرة بصبغة عنصرية لم تكن معروفة من قبل. ولكن العصر الوسيط يمثل الحيز الزمني الذي بدأت فيه بوادر التفاضل بين الأجناس.

28) المثلية الجنسية

يمثل الذكور الذين يمارسون الجنس مع أمثالهم الفئة الثالثة التي شملها الاضطهاد. وقد كان هؤلاء موضوع مضايقات شديدة من منطلق بعض التعاليم الواردة في كتاب العهد القديم التي تندد بهذا السلوك وتعتبر مرتكبيه مذنبين ومنحرفين.

والغريب في الأمر أن نوعا من غظ الطرف شمل ظاهرة المثلية الجنسية التي كانت متفشية نسبيا في أوساط بعض رجال الدين. ولكن ابتداء من مطلع القرن الثاني عشر عمت "رياح الإصلاح" هذه الظاهرة بالموازاة مع تبني الدلالات الجديدة لمفهوم الطبيعة. فغدا "الشذوذ الجنسي" في أعين الكنيسة خطيئة لأنه سلوك منافي للطبيعة.

والملاحظ أن موقف الكنيسة من هذا السلوك، شابه نوع من الغموض والاضطراب في ذات الوقت. فتراوح بين الصرامة أحيانا، والصمت وغض الطرف في أحايين أخرى. فقد أغفلت الكنيسة ظاهرة السحاق بين النساء، بينما عاقبت فئات من الرجال بعينهم، كما حدث مثلا في حق المدعو جاك دي مولاي (Jacques de Molay)، زعيم طائفة الرهبان المحاربين، باسم معبد سليمان (les Templiers)، الذي اتهم بارتكاب هذه الخطيئة، فصدر في حقه حكم بالإعدام حرقا. وبالمقابل غضت الكنيسة الطرف عن عدد من الرجال المنتمين للطبقة الأرستقراطية الذين كانوا يمارسون الجنس مع أمثالهم.

29) غموض بخصوص داء الجذام

مما لا شك فيه أن أمر إدراج المصابين بالجذام ضمن لائحة الفئات التي طالها الاضطهاد يبدو غريبا. خاصة وأن موقف المسيحيين من هؤلاء اتسم بالتناقض الصارخ، إذ تأرجح بين الرأفة والاضطهاد.

شكل موقف المسيح من المصابين بالجذام مرجعية في تبني موقف الرأفة. فقد كان يأخذ بيد المصابين بهذا الداء. وحدث يوما أنه قبل أحدهم. وهكذا دأب عدد من رجال الدين على الاقتداء بالمسيح في هذا الشأن منذ القرن الرابع، تاريخ انتشار هذا الداء بأوروبا. واستمر الأمر على نفس المنوال بعد القرن الحادي عشر، حيث ظل عدد من رجال الدين يقومون برعاية هؤلاء المصابين ويقدمون لهم ما يسد رمقهم. وقد شاع ذكر بعضهم في هذا المجال، أمثال القديس فرانسوا الأسيزي (Saint François d'Assise) والقديس لويس (Saint Louis).

وخلافا لرجال الدين النظاميين، تبنى معظم المسيحيين موقف الازدراء والاشمئزاز من المصابين بالجذام. وبما أنهم كانوا يعتبرون شكل الجسم صورة لطبيعة الروح، فقد ساد الاعتقاد بأن تفشي الداء في جسم الفرد يعد من علامات الخطيئة. وأن المصابين هم عموما أبناء أبوين لم يحترما الفترات التي يتوجب فيها على الزوجين الامتناع عن ممارسة الجنس.

والملاحظ أن المؤلفات الأدبية زادت من تزكية موقف العامة بما نشرته من حكايات مسيئة عن الداء وعن المصابين به. وكان من تداعيات انتشار داء الجذام واستمرار الموقف المتقزز منه، أن أخذ القائمون على الأمر ابتداء من مطلع القرن الثاني عشر في إقامة منشآت بضواحي المدن لإيواء المصابين. تميزت هذه المنشآت بكونها كانت مستشفيات وسجونا في نفس الوقت.

وعموما، كان الجذام داء متميزا خلال العصر الوسيط لما ظل يكتنفه من مواقف وصور وإيحاءات ورموز تعاظم أمرها أكثر عند مطلع القرن الرابع عشر، مع تفشي الأمراض والأوبئة وانتشار القلق والتذمر في أوساط المسيحيين الذين اتهموا المصابين بالجذام بتسميم الآبار. ولكن سرعان ما تراجع الجذام إلى المرتبة الثانية في لائحة الأمراض الكبرى حين تفشى الطاعون الأسود الذي أصبح يحتل موقع الصدارة.

3) الشيطان في فورة

عدت جميع الفئات التي طالها الاضطهاد بمثابة كائنات مبيدة، ولذلك انتهى الأمر بأن شكلت "مجتمعا مضادا" يهدد الأسوياء والمسيحيين الأوفياء في نقاوتهم وفي مسعاهم نحو الخلاص. واعتبر الشيطان قائدا لهذا المجتمع المضاد إما لكونه يمتلك بعض الأفراد ويسكن ذواتهم، وإما لأنه يتحكم في البعض الآخر

ولا بأس من التذكير بأن الشيطان دخل إلى أوربا مع مقدم المسيح إليها. وكان تحت إمرته وقت دخوله فيالق مؤلفة من مختلف أنواع الجن المنحدرين من الوثنية الإغريقية- الرومانية، ومن المعتقدات الشعبية.

ويبدو أن تحولات ما بعد القرن الحادي عشر جعلت الشيطان يرتقي إلى منصب "القائد الأعلى" لجميع التشكيلات التي يتألف منها الشر. وأصبح منذئذ يقود جوقة المعذبين. والحقيقة أن كثيرا من الرجال ومن النساء استطاعوا الإفلات من قبضته. ولكنهم ظلوا رغم ذلك مهددين أو قابلين للإغراء.

وبما أن المسيحية كانت متحدة، فإن عدو الجنس البشري، أي الشيطان، امتلك هو الآخر سلطة موحدة. واتخذ من الهرطقة أداته القاتلة، بينما اتخذت الكنيسة من التفتيش (l’inquisition) سلاحا لمواجهته. واحتدمت المواجهة، وطال أمدها، ورغم ذلك ظل الشيطان صامدا وقادرا على الرد. ولذلك صدق من قال بأن أوربا الشيطان قد ولدت.

31) أطراف أوربا الفيودالية

أصبحت المؤسسات الفيودالية طاغية على المشهد في جميع أنحاء العالم المسيحي عند نهاية القرن الثاني عشر. أما فيما يتعلق بمستوى تبلور هذه المؤسسات، فيمكن القول على غرار عدد من الباحثين، بأن بعض هذه الفيوداليات ظلت هامشية في المناطق الطرفدارية رغم انخراطها في الفيودالية المسيحية ككل. ينطبق هذا الأمر على إرلندا، رغم كونها كانت إحدى أهم المراكز الدينية والحضارية خلال العصر الوسيط الأعلى. فقد احتفظ سكانها بخصوصيتهم الدينية على الأقل، مما جعل ثقافتهم المحلية الأصيلة تظل محتفظة بحيويتها. بل امتد إشعاعها خارج إرلندا فشمل غالة وانجلترا التي كان سكانها يمقتون الإرلنديين وينعتونهم بالمسيحيين المتبربرين. بل كثيرا ما فكروا في غزو بلادهم وإبادتهم. ورغم ذلك فلا زالت إرلندا تنتمي لأوربا.

وينطبق ذات الأمر،إلى حد ما على بروطانيا (la Bretagne). فقد احتلها البروطانيون الوافدون من أنجلترا منذ القرن الرابع. واستطاع سكانها التحرر من قبضتهم. وأنشأوا خلال الحقبة الكارولنجية كيانا شبه مستقل خاص بهم. ثم تحول هذا الكيان إلى دوقية (un duché) خلال فترة حكم أسرة آل كابت. واستطاع الأدواق الذين تعاقبوا على السلطة من الحفاظ على نوع من الاستقلال بفضل سياسة التوازن التي انتهجوها في علاقتهم بالفرنسيين والانجليز.

ويبدو أن هذه السياسة كانت ناجعة، بدليل أن أدواق القرن الخامس عشر استطاعوا الاستقلال تماما عن الفرنسيين، مستغلين لتحقيق ذلك موقع الدوقية الجغرافي، وتوفرها على منفذ بحري حولوه إلى قاعدة بحرية وتجارية نشيطة.

وفي أقصى جنوب أوربا، بعيدا عن العالم السلتي، شكل القرن الثاني عشر فترة حاسمة بالنسبة للممالك المسيحية في شبه جزيرة أيبيريا وكذلك بالنسبة لصقلية وايطاليا.

ففي شبه جزيرة أيبيريا ارتفعت وتيرة حرب الاسترداد. ودخلت منعطفا حاسما بنجاح ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة في استرداد مدينة طليطلة التي كانت ملتقى المفكرين والمترجمين من مختلف الأديان. وظلت عقب استردادها أحد مراكز النهضة الفكرية التي شهدتها أوربا فيما بعد.

وفي صقلية وجنوب ايطاليا، انتهت فترة حكم الملوك النورمان وحل بدلهم ملوك ألمان، من بينهم هنري السادس وفردريك الثاني، فشكل ذلك نقلة في تاريخ صقلية وأقاليم جنوب ايطاليا التي عادت لحضيرة أوربا، مما انعكس إيجابا على مدينة بالرمو التي أضحت عاصمة التعدد الثقافي.

وإذا ما وجهنا أنظارنا نحو أوربا الوسطى والشمالية، تستوقفنا هنغاريا التي غدت، بفضل انضمام كرواتيا إليها، إحدى أقوى المالك المسيحية. وشاءت الأقدار أن يعتلي عرشها، بين سنتي 1172 و1196 الملك بيلا (Béla) الذي كانت تربطه بالبيزنطيين علاقات وطيدة. فارتأى التقرب أيضا من ملوك الغرب المسيحي، فاتخذ لتحقيق ذلك ابنة ملك فرنسا لويس السابع زوجة ثانية له.

وقريبا من هنغاريا، كانت دوقية بوهيميا تسعى لتحقيق القوة السياسية-العسكرية والرفاه الاقتصادي. فارتأى أدواقها إتباع النموذج الغربي المسيحي لتحقيق هذا المسعى. فحرصوا على تمتين علاقاتهم مع الإمبراطور. وسمحوا للمسيحيين بإقامة الأديرة. وقاموا بتقديم أفياف (أراضي) اقتطعوها من الأراضي التي كانت في حوزة الأسرة الحاكمة بمنطقة موراڤيا.

وعلى غرار أدواق بوهيميا، حاول ملوك بولندا القيام بإصلاحات دينية. سمحوا في إطارها بإنشاء أديرة تتبع الطريقة البندكتية. كما قاموا بإصلاحات اقتصادية لتحقيق إقلاع مماثل للذي حدث في ممالك غرب أوربا. وواصل بولسلاس الثالث (Boleslas III)، الذي حكم بين سنتي 1086 و1138، سياسة الإصلاحات الدينية والاقتصادية. وعمل على توسيع مملكة بولندا بأن ضم إليها إقليم بوميرانيا (la Poméranie)، وحول سكانه إلى المسيحية. ولكن انجازاته ذهبت أدراج الرياح حين تم تقسيم المملكة

بين أبنائه الأربعة، بموجب الوصية التي حررها قبيل وفاته. فكان هذا التقسيم بداية ضعف المملكة.

ويعتقد بعض المؤرخين بأن انهيار الاتحاد السوڤياتي سنة 1989 سمح بعودة ظهور أوربا الوسطى التي كانت قد تشكلت خلال العصر الوسيط. ومن بين هؤلاء المؤرخين الباحث الهنغاري ڭابور كلانيكزاي (Gabor Klaniczay) الذي ساهم في إنشاء قسم التاريخ الأوربي الوسيط بجامعة أوربا الوسطى الجديدة ببودابست (Budapest). وأدرج ضمن برنامجه مادة الدراسات المقارنة بين العوالم المسيحي اللاتيني، والإغريقي، والسلاڤي، والشرقي. وتركز هذه المادة على الانتشار التدريجي للحضارة الأوربية في هذه المناطق. وانطلق كلانيكزاي في مشروعه من فكرة مفادها أن أوربا الوسطى هي اليوم، كما كانت في العصر الوسيط، مجالا متنوعا، خلاقا، ومفتوحا أمام التأثيرات الوافدة من الغرب في اتجاه الشرق. مما يسمح بالحديث عن "يوثوبيا" (une utopie) أوربية حقيقية.

وبعيدا عن أية نظرة طوباوية هذه المرة، فإن الواقع التاريخي في منطقة اسكندنافيا يفيد بأن هذه المنطقة كانت منتظمة في المجال المسيحي رغم أن الأوضاع السياسية في الوحدات الثلاث التي كانت تتألف منها لم تكن مستقرة. كما أن نظمها الإدارية لم تكن متطورة. وقد تقوى الدانيون خلال القرن العاشر، وحاولوا فرض هيمنتهم على النرويج والسويد. بل سعوا الى السيطرة على أنجلترا.

وتميز القرن الثاني عشر في العالم الإسكندناڤي بظهور بعض الزعامات في كل من النرويج والسويد. ولكن عدم استقرار الأوضاع فيهما حال دون تطورهما. وما يجسد هذا الأمر هو أن خمسة ملوك اعتلوا عرش السويد تم اغتيالهم في فترة وجيزة بين سنتي 1156 و1210. ولكن عدم استقرار الأوضاع لم يمنع من تبلور طبقات أرستقراطية محلية في العالم الإسكندناڤي، ومن انتشار المسيحية في مختلف وحداته السياسية. وقد أتاح انتشار هذه الديانة إمكانية انفتاح هذا العالم على الثقافة اللاتينية. بل إن بعض الأسر أخذت تبعث أبناءها لتلقي العلم، والتشبع بالثقافة اللاتينية، في المدارس الألمانية، والأنجليزية، والفرنسية.

32) أوربا والحرب الصليبية

شهدت أوربا المسيحية بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر حدوث ظاهرة فريدة، هي ظاهرة الحرب الصليبية، التي ما زالت تحتل موقعا متميزا في الكتب المدرسية.

ومن المفيد التذكير بأن التسمية التي اشتهرت بها تلك الحرب تعود لنهاية القرن الخامس عشر، رغم أن الكلمات القريبة من لفظة صليبية كانت معروفة منذ القرن الثاني عشر. وأصبحت تطلق عند الشروع في استعمالها على سلسلة الحروب التي خاضها المسيحيون في فلسطين لبسط سيادتهم على مدفن المسيح وعلى سائر المناطق التي لها صلة بالمسيح وبالمسيحية. وكان المسيحيون الذين خاضوا وقائع تلك الحرب يعتبرونها بمثابة حرب استرداد، كتلك التي حدثت فصولها في شبه جزيرة أيبيريا.

والحقيقة أن الوقائع تبرر هذا التصور لأن القدس كانت تحت حكم الرومان ثم أصبحت تحت سيادة البيزنطيين. وتعتبر المنطقة المسيحية الوحيدة التي أضحت تحت سيطرة المسلمين فيما بعد. ولم تكن تتوفر فيها، مع ذلك، أية مؤسسة سياسية مسيحية تعنى بشؤون البقاع المسيحية المقدسة.

ومهما يكن من أمر، فالأهم هو أن المسيحيين شدوا الرحال إلى مدينة القدس منذ وقت مبكر. وكانت المزار الأول بالنسبة للحجيج كما سبقت الإشارة إلى ذلك في موضع سابق. ورغم سيطرة الأتراك العثمانيين على هذه المنطقة منذ القرن العاشر، لم يتغير موقف المسيحيين. فبدا وكأنه لم يكن ثمة مفر من حدوث الاصطدام بين المسلمين والمسيحيين نظرا للاختلافات الأيديولوجية والدينية. ولكن هذا الاصطدام جاء في حقيقة الأمر حصيلة تطور بعيد الأمد اكتسى مظهرين متضاربين.

يتمثل المظهر الأول في تبني المسيحيين لمبدإ الحرب بعد مرور فترة طويلة على ظهور المسيحية. فحين ظهرت هذه الديانة كانت مناهضة للحرب. وقد اشتهر المسيح بكونه كان يجنح دوما للسلم. وسار على منواله المسيحيون الأوائل حتى إن عددا منهم أعدموا من قبل الأباطرة الرومان لأنهم كانوا يرفضون القيام بالخدمة العسكرية.

وبدأ الوضع يتغير منذ القرن الرابع حين أضحت المسيحية دينا رسميا للإمبراطورية. فغدا لزاما على المسيحيين المشاركة في الحروب التي يخوضها الإمبراطور. ورغم ذلك، ظل كثير منهم يمقتون الحرب. كما ظل رجال الدين، منذ القديس أوغسطين، متشبثين بمبدإ أن الحرب لا يجب خوضها الا اذا كانت دفاعية لدرء هجمات الوثنيين،أو المسلمين، الذين كانوا يعدون وثنيين هم أيضا. وفي إطار هذه الحرب الدفاعية سمحت الكنائس بإنشاء طوائف المحاربين الذين كانت توكل إليهم مهمة الدفاع عن المؤسسات الدينية.

ويتمثل المظهر الثاني في إضفاء صبغة المسيحية على الحرب (la christianisation de la guerre). والراجح، في هذا المقام، هو أن التحولات التي شهدتها أوربا ابتداء من مطلع القرن الحادي عشر هي التي غيرت وجهة نظر

المسيحيين تجاه الحرب. فقد حدث نمو ديموغرافي ترتب عنه تزايد في أعداد الشبان المنتمين لفئة الفرسان من دون أرض. كما ضاقت الأراضي بأهلها، وفي نفس الوقت تزايدت ثروات أفراد الأرستقراطية الذين أصبحوا يمتلكون موارد تسمح لهم باقتناء الأسلحة والقيام بحملات عسكرية.

وكان من نتائج هذه التحولات أن تبلور نوع من التوجه الحربي في الديانة المسيحية. وكانت بوادر هذا التوجه قد ظهرت منذ حروب القرن التاسع التي خاضها المسيحيون لنشر المسيحية في أوساط الوثنيين، وهي حروب تم فيها تعميد السيف الذي غدا "يؤدي وظيفته" بمباركة من الكنيسة. وحدث بعد مطلع القرن الحادي عشر أن تسارعت وتيرة هذا التوجه تحت تأثير التحولات المشار إليها، وتحت ضغط الاضطرابات الاجتماعية التي اندلعت هنا وهناك، والتي لم تفلح الإجراءات المتخذة في إطار "هدنة الله"، التي سبق الحديث عنها، من وضع حد لها. فكان لا بد اذن من اقتراح حلول بديلة وإيجاد منافذ لتصريف هذه الطاقات المتنامية.

وتحملت البابوية مسؤولية البحث عن مخارج. ووجدت المخرج في خوض حروب في الخارج. فعادت إلى أدبياتها لتجدد ما يبرر هذا المشروع. ومن هنا بدأت تروج في أوساط المسيحيين صيغة "الحرب المقدسة" التي نقلتها عن المسلمين الذين اعتبروا الحرب منذ نزول القرآن "جهادا"، أي حربا مقدسة من واجب كل المؤمنين خوضها. واختارت البابوية الصليب المصنوع من قماش، والملصق على صدور المحاربين، رمزا لهذه الحرب.

لا أنوي استعراض فصول هذه الحرب. ولكن لا بأس من التذكير بأن حملتها الأولى انتهت بسيطرة المسيحيين على مدينة القدس سنة 1099، وبمصرع عدد كبير من المسلمين،وإنشاء عدة ممالك مسيحية بهذه البقاع، من أبرزها المملكة اللاتينية ببيت المقدس.

وأدت استعادة المسلمين لمملكة الرها إلى اندلاع حملة صليبية ثانية سنة 1144. وقاد المسيحيين فيها الإمبراطور كونراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع. ولم تحقق أية نتيجة تذكر لصالح المسيحيين، بل استطاع السلطان صلاح الدين إلحاق الهزيمة بالمسيحيين في وقعة حطين سنة 1187، واستعادة بيت المقدس.

واندلعت الحملة الصليبية الثالثة التي تزعم المسيحيين المشاركين فيها الإمبراطور فردريك بربروسا (الذي توفي غرقا في أحد أنهار الأناضول قبل ملاقاة صلاح الدين)، وملك أنجلترا ريتشارد قلب الأسد، وملك فرنسا فليب أوغسطس. وآلت هذه الحملة إلى الفشل كسابقتها. ومنذئذ لم يستطع المسيحيون استعادة بيت المقدس.

بدت الحرب الصليبية خلال القرن الثالث عشر وكأنها لم تعد تثير المسيحيين كما كان الشأن من قبل. فآثر الإمبراطور فردريك الثاني وضع حد للحملة السادسة سنة 1229، وذلك بالتوقيع على معاهدة سلام مع المسلمين أثارت حفيظة بعض ملوك أوربا الذين رأوا فيها كثيرا من الإهانة للمسيحيين. وهذا ما ألب بعضهم لخوص وقائع جديدة ضد المسلمين. فتزعم ملك فرنسا لويس التاسع حملة أولى توجه بها صوب مصر وفلسطين بين سنتي 1248 و1253. ثم تزعم حملة ثانية في اتجاه شمال افريقيا سنة 1270. انتهت بمصرعه أمام أبواب مدينة قرطاج. فكان ذلك مقدمة نحو تساقط المراكز المسيحية في أيدي المسلمين. حيث سقطت طرابلس سنة 1289، وتلتها عكا وصور سنة 1291.

ورغم سلسلة الهزائم، ظلت الحرب تحت لواء الصليب تشد إليها بعض الأمراء وجمهورا قليلا من عامة المسيحيين. ولم يصرف هؤلاء وأولئك نظرهم عنها، إلا بعد أن سيطر الأتراك العثمانيون على القسطنطينية سنة 1453.

وكان من الطبيعي أن يترك هذا الصراع المرير بين المسيحيين والمسلمين صدى عميقا في وجدان المسيحيين، لذلك صدق الباحث ألفونس ديبرون (Alphonse Dupront) حين قال بأن أسطورة القدس ظلت ساكنة في الأذهان والوجدان منذ العصر الوسيط إلى اليوم[1]. وقد تغيرت ملامح الصراع اليوم في سياق مختلف، فغدا طرفاه الرئيسان الأمريكيون والمسلمون الأصوليون، بما يفيد بأن صيغة "الحرب الصليبية" ما زالت، مع الأسف، قابلة لأن تأخذ شحنات من الحرارة باستمرار.

يمكن القول، في أعقاب ما تقدم بأن عددا كبيرا من الباحثين تناولوا الحرب الصليبية واختلفوا في تقييم حصيلتها من منظور المدى الطويل. وظل عدد منهم ينظرون إليها حتى مطلع القرن الماضي بأنها كانت بمثابة بذور تفتقت عنها وحدة أوربا، وبأنها أبانت عن مدى حيوية الغرب المسيحي خلال العصر الوسيط. وقد انتقد جون فلوري (Jean Flori) هذا التوجه من خلال التركيز على ما يسميه "تناقضات الحرب الصليبية"[2].

---

[1] - ألفونس دوبرون (Alphonse Dupront) مؤرخ فرنسي توفي سنة 1990. كان يهتم بتاريخ العصر الوسيط وتاريخ الأزمنة الحديثة. حاضر قبل وفاته بجامعة مونبوليي وجامعة باريس، وبالمعهد الجامعي الأوربي بفلورنسا. أنجز أطروحة ضخمة (من أربعة أجزاء) تناول فيها الجانب الميثولوجي في الحرب الصليبية (le mythe de croisade) وناقشها سنة 1957. وفيها أورد ما نقله جاك لو ڭوف. وقد ظلت أطروحته حبيسة أحد الرفوف، ولم يقدر لها أن ترى النور الا سنة 1997 بفضل جهود بيير نورا (Pierre Nora) الذي كان أحد تلامذته.

[2] - يعتبر جون فلوري، الذي أحلنا على أحد مؤلفاته في هامش سابق، واحدا من أبرز المختصين الفرنسين في تاريخ العصر الوسيط. حاضر بجامعة السوربون بباريس وبمركز الدراسات العليا الخاص بحضارة العصر الوسيط بجامعة بواتيي واشتغل ردحا من الزمن بالمعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط. أنجز أبحاثا غزيرة ركز في معظمها على موضوعي الفروسية والحرب الصليبية. ويكفي أن نذكر أنه خص الحرب الصليبية لوحدها بعشرة كتب.

يتمثل التناقض الأول، في اعتقاده، في كون المسيحيين خاضوا حملاتها باسم دين مسالم في الأصل ضد مجتمع يعتنق أفراده دينا أدرج الجهاد ضمن المبادئ التي قام عليها، ولكن هؤلاء الأفراد مارسوا كثيرا من التسامح الديني تجاه سكان المناطق التي فتحوها.

يتمثل التناقض الثاني في كون الحرب الصليبية أتت كمحصلة لحركة توسع عامة، بدأت في اسبانيا واتسع نطاقها حين أصبحت القدس وضريح المسيح موضوع هذا التوسع. وحدث أن نجحت حركة التوسع المشار إليها في الغرب، ولكنها فشلت في الشرق الأوسط، فامتلك مسلمو هذه المنطقة زمام المبادرة وقاموا بهجوم مضاد انتهى بسيطرتهم على القسطنطينية وتهديدهم لأوربا الشرقية.

يتمثل التناقض الثالث في كون الحرب الصليبية اندلعت في الأصل لانقاد مسيحيي المشرق، ومساعدة البيزنطيين في استعادة المناطق التي سيطر عليها المسلمون. وتمت كل هذه العمليات في سياق وحدة الكنائس المسيحية. ولكن اندلاع الحرب أتى بنتيجة معاكسة لمسعى الوحدة.

ويتجلى التناقض الرابع في كون الحرب أريد لها عند الانطلاقة أن تكون حربا لتحرير فلسطين وكذلك حجا الى البقاع المقدسة، حسب تصريح البابا أوربان الثاني، ولكن البابوية حولتها عن مسارها لتدرجها ضمن حروبها ضد أعدائها في الخارج وكذلك ضد أعدائها في الداخل، متمثلين في الهراطقة والمنشقين عن الكنيسة.

وأعتقد شخصيا بأن الحرب الصليبية أثرت سلبا في علاقات أوربا المسيحية بالمسلمين وكذلك بالبيزنطيين. ولكن هذا التأثير لم يتوقف بنهاية العصر الوسيط بل امتد إلى عالم اليوم، حيث يستحضر كثير من المسلمين ذكرى تلك الحرب بنوع من الحسرة ويعتبرونها عدوانا ارتكب في حقهم.

ولا مناص من التأكيد بأن نهاية الحرب الصليبية وضعت حدا لسراب ظل يلهث وراءه المسيحيون، يتمثل في رغبتهم في جعل القدس عاصمة للعالم المسيحي. ومن ثم، فإن فشل تلك الحرب هيأ الظروف الملائمة لتحقيق وحدة أوربا. ووضع خاتما (طابعا) على المعادلة القائمة بين أوربا والمسيحية لزمن طويل، بمعنى أنه أصبح هناك تطابق بين أوربا والمسيحية (أو أن أوربا والمسيحية أصبحا وجهان لعملة واحدة). ومن جهة أخرى أحدثت تلك الحرب شرخا عميقا بين أوربا الغربية وأوربا الشرقية، بين أوربا اللاتينية وأوربا الإغريقية، وخاصة بعد سنة 1204، حين انحرفت الحملة الرابعة عن هدفها. إذ بدل أن يتوجه الذين اشتركوا فيها صوب فلسطين اتجهوا نحو القسطنطينية التي نهبوها وأنشأوا بها ما يشبه إمبراطورية لاتينية تلاشت من حينها. بل إن حصيلة الحرب الصليبية كانت سلبية حتى بالنسبة لأوربيي الغرب

أنفسهم. وعوض أن يحصل تقارب بين ممالكهم، أدت الحرب إلى اشتداد التنافس بينها، كما تجلى ذلك في تردي علاقات فرنسا بأنجلترا. ومن هنا يفهم لماذا أبدى تجار ايطاليا وتجار قطلونيا تحفظهم من هذه الحرب، ولم يشاركوا فيها إلا على مضض. وظلوا حريصين على تنمية تجاراتهم مع المشرق. وفضلا عن كل هذا وذاك أدت الحرب إلى تناقص عدد سكان أوربا وتراجع مواردها.

وأعود للتأكيد، وبنوع من المرارة، بأنني كتبت منذ زمن بعيد بأن أهم ما جناه الأوربيون من الحرب الصليبية، هو فاكهة المشمش. وإنني ما زلت إلى اليوم متشبثا بما كتبه.

33) هل كانت الحرب الصليبية أولى تجليات الاستعمار الأوربي؟

تقتضي المقاربة الطويلة الأمد التي يقوم عليها هذا الكتاب، اختتام الحديث عن الحرب الصليبية، بإثارة مسألة على جانب كبير من الأهمية، لا بد من تناولها وتتعلق هذه المسألة بالتوصيف الذي يمكن أن تنعت به عملية إقامة ممالك مسيحية بالشرق الأوسط. فهل كانت تمثل أولى تجليات ما سيصبح بعد القرن السادس عشر استعمارا أوربيا؟ طرح هذا السؤال عدد كبير من الباحثين وأجاب عنه بعضهم بالإيجاب. ومن بينهم المؤرخ الإسرائيلي جوزا براور (Josuah Prawer)[1]. لا أشاطر شخصيا هذا الرأي، لأن تلك الممالك لم تكن مستعمرات للاستغلال الاقتصادي أو مراكز استيطان إلا في نطاق محدود. كما أن الرفاه الاقتصادي الذي حققته المدن المسيحية المتوسطية لم يتحقق بواسطة الحرب الصليبية، ولكنه تحقق، في الأغلب الأعم، من خلال سيطرة سلمية، إلى حد ما، على الثروات البيزنطية والإسلامية. وفضلا عن كل هذا وذاك، فإن هجرة المسيحيين إلى الشرق الأوسط كانت ضعيفة. وإذا كانت العلاقات بين المستعمرات والمدن الكبرى للدول المستعمرة قد تميزت خلال العصر الحديث بالفتور والتوتر، فإن مثل هذه العلاقات لم تنشأ أبدا بين المالك اللاتينية في الشرق الأوسط والممالك المسيحية في أوربا. ومن ثم، فإن الكيانات التي أنشأت بمناسبة الحرب الصليبية كانت كيانات عابرة لأنها سرعان ما تلاشت، فضلا عن كونها كانت ظاهرة قروسطوية بامتياز.

---

[1] - يعد أحد أبرز المهتمين بتاريخ العصر الوسيط في اسرائيل. حاضر، حتى وفاته سنة 1990، بالجامعة العبرية بالقدس وبجامعتي بن غوريون وحيفا. اختص بالبحث في الممالك التي أنشأها المسيحيون في المشرق في سياق الحرب الصليبية. ونشر حولها مجموعة مؤلفات،باللغتين الفرنسية والأنجليزية، من بينها :

- Histoire du Royaume latin de Jérusalem, Paris, Éditions du C.N.R.S., 1969.
- The Latin kingdom of Jerusalem: European colonialism in the Middle Ages, Londres, Weidenfeld and Nicolson, 1972.

الفصل الخامس

أوربا "الجميلة"
أوربا المدن والجامعات
(القرن الثالث عشر)

1) نجاحات أوربا القرن الثالث عشر

يعتبر القرن الثالث عشر فترة أوج الغرب الوسيط، رغم أن إشكالية الأوج والانحطاط يمكن أن تشكل موضوع نقاش. وعموما، يمكن القول بأن هذا القرن شكل الحيز الزمني الذي تأكدت فيه شخصية العالم المسيحي، وقوته الجديدة اللتين تحققتا خلال القرون السابقة. كما أنه مثل الحيز الذي تموضع فيه نموذج يمكن نعته، بوضعه في سياق المدى البعيد، بكونه نموذج أوربي يستحق هذا التوصيف بكل ما يتصل به من نجاحات وإخفاقات ومشاكل.

يمكن رصد تلك النجاحات في أربعة مجالات رئيسة هي :

أولا الازدهار الحضري. فبعد سيادة الطابع الريفي خلال العصر الوسيط الأعلى، كما تم توضيح ذلك في فصل سابق، فإن أوربا حضرية هي التي فرضت نفسها خلال القرن الثالث عشر، لأن المدن هي التي أصبحت إطار أهم التفاعلات. ففيها حصل الاختلاط بين أعداد كبيرة من السكان، وفيها تبلورت المؤسسات الجديدة. وفيها أيضا ظهرت المؤسسات الاقتصادية والثقافية الجديدة.

ثانيا انتعاش المبادلات التجارية، وانتعاش فئة التجار، رغم ما استتبع ذلك من مشاكل بسبب شيوع استعمال النقود في الحياة الاقتصادية وتداولها في أوساط الفئات الاجتماعية.

ثالثا انتشارالمعرفة في أوساط أعداد متزايدة من المسيحيين، أصبحوا يرتادون المدارس التي أخذت تنتشر في الحواضر. وكانت هذه المدارس تشبه إلى حد ما المؤسسات الابتدائية والثانوية المعروفة اليوم. وكانت أهمية ظاهرة التمدرس تختلف من منطقة لأخرى وبين مدينة وأخرى. ولكنها عمت ما يناهز 60 بالمائة، أو أكثر

قليلا، من إجمالي عدد الأطفال. والجدير بالملاحظة أن ظاهرة التمدرس همت أيضا عددا من البنات، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لمدينة ريمس (Reims). ولا بأس من الإشارة في نفس السياق إلى نشأة مؤسسات خاصة بالتعليم العالي، يمكن نعتها بالجامعات. سرعان ما حققت النجاح واستقطبت العديد من الطلبة الذين أسندت مهمة تدريسهم لعلماء مشهورين. وأخذت تتبلور شيئا فشيئا في هذه المؤسسات معرفة جديدة. هي الفكر السكولاتي أو المدرسي الذي ميز القرن الثاني عشر.

رابعا ظهور فئة جديدة من رجال الدين اتخذوا من المدن مستقرا لهم. ونشطوا كثيرا في أوساط سكانها : إنهم "الإخوان المنتمون لطوائف الفقراء" الذين تركوا بصمات واضحة على المسيحية والفكر الديني.

أولا : النجاح الحضري. أوربا الحضر

رغم أن مدينة العصر الوسيط قامت على أنقاض مدينة العصر القديم، فقد تغيرت كثيرا مرفلوجيتها ووظائفها. ويمكن أن نذكر في هذا الشأن أن الوظيفة العسكرية فيها تراجعت إلى المقام الثاني لصالح قصور السنايير. وبالمقابل، احتلت الوظيفة الاقتصادية المقام الأول في المدينة بعد أن كانت أقل أهمية خلال العصر القديم، لأن عدد سكان المدن كان قليلا باستثناء روما وبعض المدن الشرقية. وتبعا لذلك، لم تكن مدن العصر القديم مراكز استهلاك، في حين أصبحت مدن العصر الوسيط مراكز استهلاك، وأيضا مراكز مبادلات بفضل ظاهرة التمدن التي طالت الأسواق والمعارض. ومن المفيد التذكير في هذا المقام بأن مدينة العصر الوسيط كانت متعددة المراكز، ولكن السوق كان أهمها. ويعد هذا الأمر تحولا جديدا يضاف إليه تحول آخر لا يقل أهمية، وهو أن المدينة أضحت مركز إنتاج بفضل الورشات الحرفية التي أصبحت تحتضنها، بعد أن كانت تحتضنها فيما مضى دومينات أفراد الأرستقراطية العقارية. والدليل على ذلك، هو كون كثير من أزقة المدن المعاصرة ما زالت تحمل أسماء بعض الحرف والحرفيين من قبيل "زقاق الدباغين" أو "زقاق النساجين". وتحيل هذه الأسماء طبعا على الحرف التي كانت منتشرة في مدن العصر الوسيط. واستطاعت هذه المدن أن تكون لنفسها نوعا من العقلية أو الذهنية الحضرية أمدتها بهوية وسلطة خاصتين. وقد كان التعارض بين المدينة والبادية خلال العصر القديم يوازيه تعارض بين الحضارة والبربرية. وظل هذا التعارض قائما خلال العصر الوسيط،، وربما ازداد حدة إذا علمنا بأن سكان بوادي العصر الوسيط كانوا يدعون باسم "les vilains"، وهو اسم قدحي معناه أن الذين ينعتون به "حقيرون"،

"منحطون"،"غوغاء"، "أفظاظ" لأن معظمهم كانوا عبيدا فتحولوا إلى أقنان. بينما كان سكان الحواضر أحرارا. وهذا ما يعنيه المثل القائل : "هواء المدينة يجعل المرء حرا".

ويستدعي هذا المثل إثارة مسألة على جانب من الأهمية، وهي أن المسيحية تبنت تصورا للمدينة يعود للعصر القديم سبق أن بلوره أرسطو وسيسرون مفاده أن المدينة ليست بجدرانها وإنما بأناسها، أي بسكانها. وقد عمل كل من القديس أوغسطين، وبعده ايزيدور الاشبيلي على الترويج لهذا التصور الذي اصطبغ بصبغة لاهوتية مع مر القرون. فأخذت بعض تآليف القرن الثالث عشر تشبه الأزقة الضيقة المظلمة بجهنم والساحات والميادين بالجنة مما يسمح بالقول بأن العقلية السائدة في الحواضر أصبحت شيئا فشيئا تدرج ضمن مكوناتها رؤية حضرية (une vision urbanistique).

والواقع أن الشبكة الطرقية التي كانت معروفة في العصر الروماني فقدت ذلك التماسك الذي كان يميزها فتحولت في العصر الوسيط إلى مجرد مسالك. بل غدت في مدن هذه الحقبة مجرد ممرات. وابتداء من القرن الثاني عشر شرع العمل في تبليطها، وشقت بها قنوات لتصريف المياه المستعملة، وتم تزينها بمجموعة معالم (تماثيل وغيرها). لم تعد هذه التماثيل تقام فقط للتذكير بسلطة الأقوياء، وإنما أصبحت تقام أيضا لغايات جمالية. ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن مدينة العصر الوسيط غدت أحد المجالات التي تجلى فيها مفهوم الجمال في دلالاته الحديثة المختلفة عن دلالات العصر القديم. وقد وضح الباحث أمبرتو إيكو (Umberto Eco) بجلاء كيف نشا مبدأ الجمال في العصر الوسيط، وكيف أن المعالم جسدت جانبه التطبيقي، فيما شكل الفكر المدرسي الحضري جانبه النظري. كما وضح الباحث روبيرتو سباتينو لوبيز بدوره بأن المدينة أضحت تمثل في العصر الوسيط "حالة روح" اختزلت حقائق مادية وتمثلات ذهنية في نفس الوقت[1]. وإلى جانب ذلك، لا بد من التذكير بأن مدن العصر الوسيط ورثت الأسوار عن العصر القديم. فقد كانت هذه الأسوار تحيط بالمدن لحمايتها من الهجمات الأجنبية، وخاصة هجمات قبائل المتبربرين. ولكن معظم هذه الأسوار انهارت، ولذلك رمم رجال العصر الوسيط تلك الأسوار، أو بالأحرى، قاموا

---

[1] - عبر أومبيرتو ايكو الأديب والباحث الايطالي عن وجهة نظره المشار اليها في المتن في كتاب له تحت عنوان :
Art et beauté dans l'esthétique médiévale, trad. Fr., Maurice Javion, Paris, Les Editions Ldf., 2002.

أما المؤرخ الايطالو- أمريكي روبيرتو سباتينو لوبيز فعبر عن وجهة نظره في كتاب له أحلنا عليه في هامش سابق وفي كتاب آخر صدر له بباري (Bari) سنة 1984 عن مؤسسة لاتيرزا (Casa Laterza) بعنوان :
Intervista sulla citta medievale.

ببناء أسوار جديدة. ولكن لم يقوموا بذلك بهدف حماية المدينة، وإنما لأن الأسوار كانت رمزا بامتياز للمدينة. لأن المدينة الحقيقية آنذاك كان يجب أن تحاط بأسوار. وحين أضحت المدن تتمتع بشخصية قانونية، أخذ القائمون على الشأن المحلي فيها يستعملون أختاما منقوش عليها شكل يجسد السور الذي اتخذ شعارا للمدينة. وتجدر الإشارة في هذا الشأن إلى أن أسوار المدينة كانت توضع لها أبواب شكلت صلة وصل بين العالمين الداخلي والخارجي، لكونها كانت معبر الناس والبهائم والمؤن. وترتب عن ذلك نشوء جدلية الداخل والخارج التي احتلت موقعا متميزا في العصر الوسيط ولا زالت لها امتدادات في أوربا المعاصرة. وقد تم تغليب الداخل في هذه الجدلية نظرا لحمولته المادية (الترابية) والاجتماعية والروحية.

أ) المدن الأسقفية

شكلت المدينة الأسقفية أول نموذج فرض وجوده في أوربا العصر الوسيط. بل إن وجود أسقف كان في حد ذاته مؤشرا على وجود مركز حضري، لأن الأسقف كان زعيما لا مناص منه لأي تجمع بشري مهم عدديا، كما كان المسؤول عن الشعائر الدينية التي تقام عادة في الكنائس. وقد اتخذت عملية تشكل الساكنة الحضرية من قبل المسيحيين ومريدي الكنائس منحى ثوريا من خلال ظاهرة تمدين الأموات. ولتوضيح هذا الأمر، من المفيد التذكير بأن جثمان الميت لم يعد مصدر فزع كما كان الأمر قديما، لأن المسيحية عملت على إدماج المقبرة في الوسط الحضري. وتبعا لذلك أضحت مدينة الأموات تقع داخل مدينة الأحياء.

ب) المدن "الكبرى"

تميز القرن الثالث عشر، على المستوى الحضري، بنمو وتعدد المدن الصغرى والمتوسطة، وبتزايد عدد سكان بعض المدن الكبرى، واتساع مجالها الحضري. ولكن لا بد من التنبيه في هذا الشأن بأنه لا يجب أن نتصور بأن المدن الموسومة بالكبر كانت تشبه المدن الكبرى في أوربا الأزمنة الحديثة، أو المدن المشرقية في بيزنطة أو في العالم الإسلامي، لأن أهم مدن الغرب المسيحي كان عدد سكانها يتراوح بين عشرة آلاف وعشرين ألف نسمة. ولم تخرج عن المألوف سوى مدن معدودة هي : بالرمو، وبرشلونة بحوالي خمسين ألف نسمة، ولندن، وڭاند (Gand) (أو غنت Gent)، وجنوة بحوالي ستين ألف نسمة، وعلى غرارها كانت مدينة قرطبة الواقعة آنذاك ضمن دائرة نفوذ المسلمين. أما المدن التي تجاوز سقف سكانها الستين ألف نسمة، فكانت معدودة على رؤوس أصابع اليد الواحدة. وهي بلونيا (Bologne) التي ناهز

عدد سكانها السبعين ألف نسمة، وميلانو بحوالي خمسة وسبعين ألف نسمة، وفلورنسا التي يحتمل أن يكون عدد سكانها قد تجاوز المائة ألف بقليل، وباريس التي عدت خلال القرن الثالث عشر أكبر مدن الغرب الأوربي على الإطلاق بحوالي مائتي ألف نسمة.

ج) أدب ذو صبغة حضرية

سمح نمو مدن العصر الوسيط ، وما استتبعه من هيبة أصبحت تتمتع بها، بنشأة جنس أدبي سرعان ما تطور بالنظر لمحدودية عملية تداول الكتب والمؤلفات آنذاك. يتمثل هذا الجنس الأدبي في "الإخباريات الحضرية" التي كان أصحابها "يتغنون" بمكونات المدن في وقت لم يوجد فيه من يتغنى بالجبال أو السواحل. بل في وقت لم تكن فيه لفظة "مشهد" أو ما شابهها موجودة على الإطلاق، وحتى كتب الجغرافيا المتوفرة آنذاك، لم توفر "للمعجبين" من أوربيي العصر الوسيط سوى نصوصا تتحدث عن المدن. والراجح أن الإعجاب بالمدن مرده لكثافة سكانها، ولأهمية الأنشطة الاقتصادية التي كانوا يزاولونها، ولتنوع الحرف الموجودة بها، ولغنى ثقافتها، ولجمالية كنائسها. وفضلا عن كل هذا وذاك، فقد حظيت المدن باهتمام واضعي هذه الإخباريات بسبب الروايات ذات الطابع الميثولوجي التي أحاطت بنشأتها، وما نسج حول مؤسسيها "الأبطال" من أساطير. وقد اشتركت الإخباريات الحضرية مع مؤلفات العصر القديم في تناول هذا الموضوع بالذات. ومن هذا المنطلق شكلت المدن، من خلال الاهتمام الذي أولاه المؤلفون لها، إحدى القنوات التي ساهمت في إعطاء معنى للتاريخ. وقد اتخذ ما تم تأليفه حولها بعدا أوربيا.

د) العواصم

يجب تنبيه القارئ الى أنه ذا كان من الممكن ترتيب مدن العصر الوسيط من وجهة نظر ديموغرافية تبعا لعدد سكانها، فمن الممكن أيضا ترتيبها من وجهة نظر سياسية. وفي هذه الحالة يمكن الحديث عن نموذجين من المدن : المدن العواصم التي سيتم الحديث عنها في هذه الفقرة، والمدن-الدول التي ستخصص لها الفقرة الموالية.

كانت المدن العواصم مقرات لسلطة سياسية عليا. وقليلة هي مدن العصر الوسيط التي ارتقت إلى هذه المرتبة، رغم أن مصطلح عاصمة اكتسى دلالات مختلفة. وهذا ما وضحه الباحث جوين ألفريد ويليامس (Gwyn Alfred Williams) الذي

خص مدينة لندن ببحث منوغرافي بين فيه كيف ارتقت هذه المدينة من مجرد "كمونة" (commune) إلى عاصمة[1]. وينسجم هذا الطرح مع التصور الذي كان يتبناه سكان المدينة أنفسهم حول العاصمة، حيث لم تكن لندن (كلها) في نظرهم هي العاصمة، وانما "مدينة ويستمنستر" (City of Westminster) فقط. ويختلف الأمر تماما بالنسبة لمدينة روما. فقد كانت تحتضن البابوية وقصر الفاتكان، وكانت محاطة بالأسوار، ورغم ذلك لم تعد عاصمة بما في الكلمة من معنى. وظلت تعتبر عاصمة "على مضض" لأن مراسيم تتويج الأباطرة كانت تتم بها. وخلافا لروما، عدت باريس عاصمة بامتياز منذ سنة 987 بفضل جهود الملوك الكابتيين الذين جعلوها تتبوأ مكانة مرموقة وكذلك بفضل الدعاية التي اضطلع بها إخباريو دير سان دوني، الذي كانت أراضيه تحتضن مدافن ملوك فرنسا، حتى أن أولائك الإخباريين اعتبروا بلدة سان دوني عاصمة بدورها. والحقيقة أن العاصمة تشكلت من الثنائي باريس- سان دوني.

ومهما يكن من أمر، فإن عواصم العصر الوسيط لم تكن تستند على حقيقة تاريخية إلا في حالات نادرة. ومن هذا المنطلق، فإن العالم المسيحي نفسه لم يكن يتوفر في الواقع على عاصمة رغم أن العادة جرت باعتبار روما عاصمة لهذا العالم.

ه) المدن- الدول

يتألف هذا النموذج من المدن التي تطورت وتمددت فأصبحت دولا قائمة بذاتها. وقد شكلت شبه جزيرة ايطاليا المجال الرئيس لهذا النموذج. ويعتبر إيڤ رنووار (Yves Renouard) واحدا من الباحثين الذين اهتموا بدراسة هذا النوع من المدن. وقد ميز في تطورها بين ثلاثة مراحل : مرحلة أولى كانت فيها كل مدينة – دولة مجرد كمونة استطاعت الأرستقراطية أن تستحوذ فيها على السلطة على حساب القمط والأسقف. مرحلة ثانية شهدت فيها الأرستقراطية الحاكمة تصدعات وانقسامات إلى فصائل سمحت باستيلاء طرف أجنبي عن الفصائل على السلطة في المدينة. ومرحلة ثالثة استطاعت فيها نخبة من التجار وطوائف الحرفيين امتلاك السلطة في المدينة وممارستها بواسطة حكومة تمثل هذه الأطياف. ولذلك تميز تاريخ هذه المدن – الدول بصراع دائم بين مختلف القوى الحاكمة لها أو بين مختلف العائلات، لأن هذه العائلات كانت تمارس السلطة بواسطة مجالس تمثلها. وغالبا ما كان لكل مجلس من هذه

---

[1] - يمثل هذا البحث في الأصل أطروحة لنيل الدكتوراه أنجزها جوين ألفريد ويليامس الذي حاضر، قبل وفاته سنة 1995، بكل من جامعة يورك (York) وجامعة ويلز- كارديف (Wales-Cardiff).
نشر تلك الأطروحة سنة 1963 تحت عنوان : Medieval London, from commune to capital ، ← وصدرت ضمن منشورات جامعة لندن. كما أصدر الى جانبها مجموعة أبحاث، معظمها حول تاريخ بلاد الغال.

المجالس نفوذ في رقعة ترابية معينة تقع في محيط المدينة. فيحدث التنافس حول مناطق النفوذ، ثم يتحول التنافس إلى صراع دموي[1].

ويبدو أن مدن ايطاليا وحدها هي التي شكلت الاستثناء على صعيدين : لأن بعضا منها تحولت إلى دول كما تم توضيح ذلك، ولأن نبلاء ايطاليا كانوا يقيمون في تلك المدن – الدول خلافا لنبلاء باقي مناطق أوربا الذين كانوا يقيمون في قصور تقع في الأرياف، رغم أن بعض الأثرياء منهم كانوا يتوفرون على إقامات ثانوية بالمدينة المجاورة للبادية التي يقيمون بها.

و) المدن والفيودالية

جرت العادة في أوساط المهتمين بتاريخ العصر الوسيط بإقامة نوع من التقابل أو التعارض بين الظاهرة الحضرية وظاهرة الفيودالية. ويقر معظمهم بأن المدينة تمثل بحق جرثومة مدمرة للفيودالية لأنها عنصر غريب عنها. ولم يشد عن هؤلاء إلا باحثين قلائل، وعلى رأسهم الأنجليزي رودني هيلتون (Rodney Hilton) الذي يذهب إلى الاعتقاد بأن المدن كانت منسجمة تمام الانسجام مع البنيات الفيودالية، بل وكانت جزءا من الفيودالية[2].

ودون الخوض طويلا في الموضوع، يمكن الاقرار بأن العصر الوسيط ترك لأوربا اقتصادا ومجتمعا قائمين على علاقات بين المدينة والبادية أساسها التكامل وليس التناقض. وإن الغلبة كانت لصالح المدن التي استغلت فائض إنتاج البوادي، فتطورت بها الأنشطة التجارية والحرفية. كما تنامت بشريا من خلال هجرة عدد من الفلاحين إليها. وكان معظم هؤلاء الفلاحين حديثي الاستقرار بتلك المدن. وتطورت المدن سياسيا أيضا. فشرعت في تبني أشكال متطورة من السلطة ومنسجمة، في ذات الوقت، مع بنيات النظام الفيودالي بعد أن كانت الحكومات المشرفة على تدبير الشأن العام بها ذات طابع سنيوري محض.

1) شخصية المدينة الأوربية

---

[1] - عبر ايڤ رنووار عن وجهة نظره هاته في كتابين هما :

- Histoire de Florence, Paris, P.U.F., 1964.
- Les villes d’Italie de la fin du Xe siècle au début du XIVe siècle, Paris, Sedes, 1969, 2 vol.

[2] - لمزيد من التفاصيل بخصوص وجهة نظر رودني هيلتون يمكن العودة لكتابه :

- English and French Towns in feudal society, a comparative study, Cambridge, Cambridge University Press, 1992.

تميزت مدن العصر الوسيط بخاصية هامة ورثتها أوربا الأزمنة الحديثة تمثلت في بنية مجتمعاتها وفي طبيعة الحكومات المسيرة لها. وبقدرما انسجمت هذه الحكومات مع بنيات النظام الفيودالي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، بقدر ما أبانت عن تطور خاص. وتعود بدايات هذا التطور إلى القرن الحادي عشر. وقد تواصل مع الزمن، وانتهى بتلاشي هيمنة الأساقفة والأقماط معا. ففي معظم المدن، كان الأساقفة يمارسون السلطة المدنية كما تم توضيح ذلك سابقا. وفي مدن أخرى كان الأقماط يقومون بهذا الدورالى حد ما، رغم أن الأساقفة كانوا هم المشرفون الفعليون بدل الأقماط. وفي سياق هذا التطور كانت المدن تشهد من حين لآخر حركات احتجاج شعبية اتخذت في الأغلب الأعم طابعا سلميا، وإن اتخذ بعضها منحى عنيفا كما حدث، على سبيل المثال، سنة 1116، حيث انتهت انتفاضة قام بها سكان مدينة لاوون (Laon) باغتيال القمط – الأسقف الذي كان يحكمها.

وكان السنايير يضطرون للاستجابة لضغط المحتجين، فيمنحونهم بعض الامتيازات في شكل حرية أكثر، أو يخففون عنهم بعض الضرائب. ولكن المحتجين كانوا يطالبون دوما بمنحهم نوعا من التسيير الذاتي في إطار كمونات (des communes)، وهو المطلب الذي كان يرفضه السناييرباستمرار. ويجب التنبيه في هذا الشأن بأن عددا من الباحثين تناولوا موضوع حركة الكمونات، وأسالوا فيه كثيرا من المداد حتى أنهم أحاطوه بطابع ميثولوجي. والواقع أن مدن ايطاليا وحدها هي التي تمتع سكانها باستقلال تام. أما فيما عداها، فكان الاستقلال نسبيا. ومن المعروف أن سكان معظم مدن فرنسا لم يحصلوا سوى على امتيازات، ولم يتمتعوا قط بالاستقلال الذي كانوا ينشدونه. ويعتبر"ميثاق" لوريس (Lorris)، الذي وقعه الملك لويس السابع سنة 1155، والذي حصل بموجبه سكان هذه المدينة على امتيازات، بمثابة نموذج تم الاقتداء به في سائر أنحاء فرنسا. وتجلى هذا الاقتداء في مدينة تولوز التي منحت لسكانها سنة 1147 نفس الامتيازات التي تضمنها "الميثاق" السالف الذكر. وبعدها منحت كذلك نفس الامتيازات لسكان مدينتي نيم (Nîmes)، وآرل (Arles). وسارت بعض مدن أنجلترا وبعض مدن مملكة أرغونة على نفس المنوال.

ومهما يكن من أمر، فالأهم، هو أن حكم السكان الحضريين لأنفسهم بأنفسهم ترك أثران عميقان وبعيدي المدى في مدن أوربا.

تمثل الأثر الأول في تزايد حاجة سكان المدن للحقوقيين ورجال القانون عامة. والواقع أن هذه الفئة من أهل المعرفة، لم تكن لها دراية واسعة بالشؤون القانونية في بداية الأمر. فأخذ الأفراد المنتمون لها يلجون الجامعات فتمكنوا من صقل معارفهم، وأصبحوا أكثر قدرة على النظر في مختلف القضايا التي تطرحها المعاملات بين

سكان المدن. فترتبت عن ذلك نتيجتان واحدة سلبية إلى حد ما، تجسدت في ظهور إرهاصات ظاهرة البيروقراطية في مدن أوربا، والثانية ايجابية تجسدت في عملية مراجعة وتطوير منظومة القوانين المعمول بها.

أما الأثرالثاني، فيتصل بمسألة الجبايات. إذ من المعروف أن المكوس، والإتاوات، والمغارم التي كانت مفروضة على السواد الأعظم من مجتمع العصر الوسيط كانت متنوعة. وقد ظلت ذات صبغة فيودالية حتى القرن الثالث عشر، حيث بدأت في الظهور ضرائب جديدة أخذ يفرضها الملوك، هذه المرة، في سياق نشأة الممالك الحديثة في أوربا. وهذه الضرائب، التي يمكن نعتها بكونها ضرائب دولة، أصبح سكان المدن ملزمين بدورهم بتأديتها، بالإضافة إلى سلسلة الضرائب التي تدخل في خانة ما يمكن تسميته بضريبة الرأس "les tailles". وأعتقد أن أجرأة هذا "الجيل" الجديد من الضرائب، التي أصبحت مفروضة على سكان المدن، تسمح بالحديث عن انبثاق "أوربا الضرائب".

ورغم أن عائدات تلك الضرائب كانت تصرف في تمويل مشاريع ذات لنفع عام، فالواقع أن اختلالات شابت جبايتها من قبيل محاباة البعض والشطط في حق البعض الآخر. وتفيد هذه الإختلالات بأن سكان المدن لم يكونوا أبدا سواسية. ويبدو أن ظاهرة اللامساواة في مدن أوربا استشرت مع مرور الزمن. فقد ظلت أسر كثيرة تعيش حياة الكفاف، بينما ظهرت أسر غنية بما تملكه من مال وعقار. فانبثق عن هذه الأسر أعيان المدن الذين شكلوا نخبة متميزة. ونادرا ما كان ينخرط في هذه النخبة بعض الأفراد العاديين، اللهم إلا إذا كانوا ينتمون لأسر عريقة تمتلك سمعة جيدة ولا تملك مالا أوعقارا. ونسجت بين الأعيان قرابات (des lignages) على غرار ما كان يحدث في الأرياف، ولكن دون أن تكون هذه القرابات قائمة على الدم.

وإذا كان المال، وعراقة الانتماء، من بين العناصر التي منحت إمكانية التميز بين الأفراد أو الأسر في مدن أوربا، فكذلك أضحت بعض المهن تتيح للذين يزاولونها إمكانية التميز. ولذلك استطاع الارتقاء إلى مصاف الأعيان كل أولائك الذين كانوا يزاولون مهنة القانون كالتوثيق مثلا. وبما أن بعض المهن أصبح لها مثل هذا التأثير فقد تمت إعادة النظر في أحكام القيمة التي كانت تلف عددا منها. وعلى سبيل المثال، فإن المهنة التي كان يزاولها صاحب خان (aubergiste)، أو من يقوم مقامه، لم تعد محط تبخيس كما كان الأمر منذ العصر القديم. ويبدو أن مهنة الدعارة ومهنة تقديم القروض مقابل فائدة (أي الربا)، ظلتا وحدهما موضوع تحقير وتخسيس من قبل "المجتمع المدني"، وموضوع تحريم من قبل الكنيسة. وحدث أن أخذت تتغيرالمواقف منهما مع مر الزمن، لأن مجال القروض مقابل فائدة تقلص كثيرا بحيث لم يعد يشمل

سوى قروض الاستهلاك التي ظل اليهود يقدمونها مقابل فائدة. أما الدعارة، فلم تعد الكنيسة، بعد منصف القرن الثاني عشر، تجرم ممارسيها، بل يمكن القول بأنها أخذت تشجعها.

ولتوضيح هذا التحول، نذكر أن الكنيسة كانت ترى بأن الدعارة ناتجة عن الخطيئة الأولى، وهي مظهر من مظاهر ضعف الإنسان. وفضلا عن ذلك، فإن مجتمع العصر الوسيط، الذي كان مجتمعا ذكوريا، لم تكن تصدمه ظاهرة الدعارة التي كانت فيها "مصلحة" لصالح الرجال على حساب الإناث. ومن بين المعطيات الدالة على هذه النظرة المجتمعية للدعارة أن الملك الورع سان لويس حاول جاهدا اجتثاث الدعارة من مملكته، أو على الأقل من مدينة باريس، فنصحه مقربوه، بمن فيهم أسقف المدينة، بأن محاولته ستكون عديمة الجدوى، بل ستكون منافية لطبيعة النظام الاجتماعي. وتضاف في هذا السياق الاشارة الى معطى آخر وهو أن الدعارة كانت وسيلة لمراقبة تجاوزات مجتمع كان فيه عدد العزاب كثيرا. وجلهم من رجال الدين، ومن الشباب المحرومين من النساء. ورغم ذلك، بذل رجال الكنيسة جهودا لإضفاء طابع إنساني وديني على عالم المومسات المسنات، أو اللائي انقطعن عن ممارسة الدعارة. وتجلت تلك الجهود نظريا في كون الكنيسة كانت تعتبر إقدام رجل على الزواج من مومس عملا طيبا. بينما تجلت عمليا في إشرافها على إنشاء ما يسمى "بطائفة ماري- مادلين" (l'ordre de Marie-Madeleine) الذي بموجبه تم تخصيص بعض الموناستيرات لإيواء عدد من المومسات.

ويجب التنبيه الى أن ما ذكر عن تغير نظرة الكنيسة والمجتمع للدعارة، لا يعني البتة بأن موقف الأوربيين من هذه الظاهرة كان موحدا. ففي مدن أوربا الشمالية اتسمت النظرة للدعارة بتسامح نسبي. فقد اشترط على المومسات في بعض من تلك المدن ارتداء ملابس خاصة، وعدم التزين بحلي مماثلة لتلك التي تتزين بها النساء البورجوازيات. أما في مدن أوربا الجنوبية فكان هامش التسامح من الدعارة أكثر. إذ أقيمت في بعض هذه المدن دور خاصة بالبغاء (مبغيات) كانت تشرف عليها البلديات وتجني من ورائها مداخيل مهمة تمثلت في واجب الكراء وبعض المكوس، والغرامات. وتبعا لتنامي الأنشطة الحرفية وتزايد عدد العاملات الفقيرات، نشطت ظاهرة الدعارة في مثل هذه الدور وغيرها، كما في الحمامات التي يستخدم أصحابها النساء. وكانت هذه الحمامات شبيهة إلى حد ما بمراكز التدليك المعروفة في عالمنا المعاصر.

والظاهر أن نظرة التسامح إزاء ظاهرة الدعارة كانت تتماشى تماما مع تطور المجتمع وتطور منظومة الأحكام والقيم خلال القرن الثالث عشر. ومن هنا، فلم يكن

غريبا أن يتناول بعض المنظرين من رجال الدين هذه الظاهرة. فذهب بعضهم إلى إضفاء طابع الشرعية عليها، حيث أجازوا للفتاة أو المرأة ممارسة الدعارة لمدعاة الحاجة وضرورة العيش، وليس لرغبة في المتعة[1].

وأعتقد أن كل الإجراءات التي همت ممارسة الدعارة كانت تروم "تقنينها". ويندرج ذلك في إطار عملية تقنين سائر المهن التي كانت تمارس في مدن أوربا. وبما أن ظاهرة الدعارة وصلت إلى درجة أصبح فيها من اللازم تقنينها، فيحق اذن الحديث عن ميلاد أوربا الدعارة التي لازالت إلى اليوم من بين أكثر الظواهر إثارة للنقاش.

2) تراتبية الحرف داخل المدينة

ظهرت تجليات اللامساواة بين سكان المدينة في مجال الحرف التي أخذت تمد المدن بقسط مهم من القوة. ففي ايطاليا التي بلغ فيها مستوى تنظيم المهن درجة عليا من الرقي ظهر منعطف حاسم في مجال الحرف تجلى في انقسامها إلى صنفين : حرف كبرى أساسية وحرف صغرى أقل قيمة. وفي مدينة فلورنسا على سبيل المثال كانت الحرف الصغرى كثيرة العدد، أما الحرف الكبرى فلم يتجاوز عددها إحدى عشرة حرفة، من بينها خمسة حرف فقط كان يحتكر مزاولتها رجال أعمال تجاوز مجال نشاطهم حدود ايطاليا. فكان منهم المشتغلون في مجال الاستيراد والتصدير، والمشتغلون في مجال صرف العملات، والمشتغلون في تجارة الأصواف، ومنها الحرير بوجه خاص. كما كان من بين الحرفيين الخمسة الكبار أطباء، وتجار كبار اختصوا في تجارة مختلف أنواع العقاقير والتوابل التي تجاوز عددها 288 نوعا.

وقد شكل أعيان المدن ما يصطلح على تسميته تجاوزا "الباتريسيا" (le patriciat). واستطاع الأثرياء والأقوياء منهم السيطرة على مدن العصر الوسيط. وكان معظمهم من كبار التجار. ورغم ذلك يبدو من غريب الصدف أن تلك المدن لم تستمد ثروتها من النشاط التجاري، بقدر ما استمدتها من النشاط الصناعي. ويبدو هذا الأمر جد واضح في منطقة الفلاندر (la Flandre) التي تساءل المؤرخ البلجيكي شارل ڤيرلاندن (Charles Verlinden) عن مصدر ثروتها من خلال سؤال بسيط صاغه على النحو الآتي : "تجار أم نساجون؟". فخلص، بعد بحث مستفيض، الى القول بأن الصناعة هي التي كانت العامل الأول في التحولات الديموغرافية التي

---

[1] - أنظر على سبيل المثال موقف القديس توما الأكويني (Saint Thomas d'Aquin) الذي لم يجرم الدعارة، واعتبرها نوعا من الإثم لا بد من اقترافه. ورأى أنه بإمكان الكنيسة قبول صدقة تمنحها مومس، والامتناع عن قبول صدقة يمنحها أحدهم من مال مسروق.

أنظر النسخة العربية من كتابه "الخلاصة اللاهوتية"، ترجمة الغوري بولس عواد، المطبعة الأدبية، بيروت، 1881، خمسة مجلدات. (اعيد طبع الكتاب سنة 2012).

شهدتها هذه المنطقة، وهي التي أفضت إلى نشأة وتطور المدن الفلامانية. وإن التجارة فيها نشأت عن الصناعة وليس العكس.

تمثلت الصناعة الوارد ذكرها في صناعة النسيج التي قامت في معظم مدن أوربا. فنشأت عنها أوربا النسيج التي تمخضت فولدت أوربا التجار الذين سيأتي الحديث عنهم لاحقا.

3) المدينة الأوربية، بابل أم القدس؟

ظل المخيال قويا في أوربا العصور الوسطى رغم أنه اتخذ في معظم الأحيان أشكالا رمزية. واحتدم داخل مخيال النخبة المثقفة من رجال الدين بالتحديد صراع حاد خلال القرن الثاني عشر تمحور حول الموقف من المدينة بين الرفض والقبول. وتلخص هذا الصراع شهادتان نموذجيتان لقطبين من أقطاب الفكر الديني هما الأسقف سان بيرنار (Saint Bernard) (المتوفى سنة 1091) والراهب فليب هارڤنت (Philippe de Harvengt) (المتوفى سنة 1183). فقد حدث يوما أن قدم الأسقف بيرنار إلى باريس في وقت كانت قد بدأت تعج فيه جامعتها بالأساتذة وبطلبة العلم. فصرخ في أوساطهم في إحدى المناسبات قائلا : " بادروا بالهرب من بابل، فروا وأنقذوا أرواحكم. طيروا جميعا نحو المدن الملجأ، يعني إلى المونا‌ستيرات". وبعده ببضع عشرات من السنين، كتب الراهب هارڤنت إلى أحد تلامذته خطابا جاء فيه : "ها أنت في باريس. دفعك حب العلم للاقامة بها. وها أنت وجدتها القدس التي يحلم بها الكثير". وانطلاقا من هاتين الشهادتين يتضح جليا مدى التحول الذي لحق صورة المدينة في المخيال منذ نهاية القرن الثاني عشر. فقد حلت القدس محل بابل رغم أن آفات ونقائص كثيرة ظهرت في المدن، واستشرت عند نهاية العصر الوسيط.

4) المدينة والديمقراطية

تمثل اللامساواة الاجتماعية أبرز هذه النقائص. فعلية القوم المؤلفون من التجار والأفراد الممارسون للحرف الأساسية الكبرى، كانوا يشكلون المجالس المشرفة على تدبير الشأن العام في المدن. وكان يقابلهم في الطرف الآخر عامة الشعب المغلوبين على أمرهم.

لم تكن المدن مراكز اقتصادية فقط كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولكنها كانت أيضا مراكز انبثق فيها نموذج ديمقراطي، رغم تزايد عدد الفقراء يوما بعد يوم. وقد اهتم بدراسة هذا الجانب بعض الباحثين ومن بينهم روبيرتو ساباتينو لوبيز الذي قام بمقارنة بين نظم تدبير الشأن العام في المدن الأوربية وفي مدن بيزنطة، ومدن العالم

الإسلامي، ومدن الصين، فتوصل إلى خلاصة مفادها أن "التجربة الحضرية في أوربا كانت عموما كثيفة وجد متنوعة وذات طابع ثوري وأكثر ديمقراطية من أية تجربة أخرى". ويمكن التعقيب على هذه الخلاصة بالقول بأن المدينة الأوربية تمثل محصلة للتطور التاريخي الذي شهدته أوربا. فقد نشأت جميع المدن انطلاقا من نواة حضرية وتطورت على نفس المنوال تقريبا في جميع أنحاء أوربا. وتنطبق هذه الحقيقة على المناطق السلتية كما على المناطق الجرمانية، أو الاسكندناڤية، أو الهنغارية، أو السلاڤية. وإن الاندماج التدريجي لجميع هذه المناطق في أوربا ارتبط إلى حد بعيد بثقل المدن. ومن المعطيات التي توضح هذا الأمر هو أن ظاهرة التمدن لم تكن على درجة كبيرة من القوة، كما أن عدد المدن الكبرى كان قليلا كلما اتجهنا نحو شرق أوربا، أو نحو شمالها. وبما أن هذه الظاهرة (أي التمدن) هي من مظاهر النمو والقوة فقد تحققت في جميع الجهات. ولم تشذ عن ذلك سوى منطقتا ايسلاندا والفريز (la Frise) اللتان لم يشملهما هذا التطور الحضري.

5) تعريف المدينة والحضري(ساكن المدينة)

يجب التنبيه في مستهل ها المبحث بأني سأكتفي في تعريف مدينة العصر الوسيط وساكنها بتبني التعريف الذي اقترحه كل من جاك روسييو (Jacques Rossiaud)[1] وموريس لومبار (Maurice Lombard)[2].

يعرف جاك روسييو مدينة العصر الوسيط "بكونها، أولا وقبل كل شيئ ، مجتمع متحرك ومتجمع في حدود مجال ضيق يقع وسط مساحات ممتدة قليلة السكان. والمدينة هي بعد ذلك فضاء للإنتاج والمبادلات تختلط فيه الحرف بالتجارة اللتان يغذيهما اقتصاد نقدي . والمدينة هي أيضا مركز تسود فيه منظومة قيم خاصة تنبثق منها الممارسة الجادة الخلاقة للعمل وحب ممارسة التجارة وكسب المال، وميل نحو الترف، وإحساس بالجمال. والمدينة هي كذلك تنظيم لمجال مغلق تحيط به أسوار

---

[1] - أستاذ باحث في التاريخ الأوربي الوسيط. حاضر في جامعتي كليرمون- فيرون (Clermont-Ferrand) وليون الثانية (Lyon 2)، واشتهر بالبحث في موضوعي "المدينة" و"الدعارة والجنس" الذين خصهما بعدة مؤلفات من بينها :

- Lyon, 1250-1550, réalités et immaginaires d'une métropole, Paris, Champ Vallon, 2012.
- La prostitution médiévale, Paris, Flammarion, 1988.

[2] - مؤرخ فرنسي توفي سنة 1965. تخصص في البحث في التاريخ الاسلامي الوسيط، ولكنه تميز عن جمهور الباحثين في هذا المجال بكونه تناول قضايا دقيقة وجديدة في حقل البحث التاريخي، عامة والبحث في تاريخ الاسلام بوجه خاص، من قبيل العملة والنقود والمعادن النفيسة وشبكة المبادلات... ومن أشهر مؤلفاته :

- Espaces et réseaux du Haut Moyen Age, Paris, Les Editions de l'Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales, 1972.
- L'Islam dans sa première grandeur, Paris, Flammarion, 1980.

يمكن النفاذ إليه عبر أبواب تؤدي إلى أزقة وساحات توجد بها أبراج. ولكن المدينة هي أيضا تنظيم اجتماعي وسياسي يقوم على الجوار، وفيه لا يتدرج الأثرياء، وإنما يشكلون مجموعة من المتساوين الأنداد. يجلسون جنبا لجنب لحكم كتلة كبيرة من الناس الموحدين المتضامنين. وإن هذا المجتمع اللائكي المتمدن بدا وكأنه تخلى عن الزمن التقليدي الذي كانت تضبطه أجراس الكنيسة التي تقرع بانتظام واكتسح زمانا جماعيا تقرع فيه من حين لحين، وبشكل غير منتظم، أجراس لائكية تنادي للقيام بانتفاضة، أو تنادي من أجل الدفاع، أو من أجل تقديم يد المساعدة".

تبدو الصورة التي يقدمها روسييو عن المدينة مثالية لحد ما على اعتبار أن صاحبها ينظر إلى سكان المدينة باعتبارهم مجتمعا متساويا. في حين رأينا فيما مضى كيف أن نخبة هي التي تسيطر وتمارس السلطة وتشرف على جباية الضرائب التي يتجلى فيها الإجحاف في حق فئات عريضة من السكان، ما فتأ عددهم يتزايد وبؤسهم يتعمق ويقتضي الحديث فعلا عن أوربا البؤس الحضري.

ويبدو أن ثمة ما يشفع هذه الصورة المثالية، لأن النموذج البورجوازي هو في حد ذاته نموذج يقوم على التساوي. ويرمي في كل حال إلى إرساء تدرج أفقي وليس الى تدرج عمودي كما هو الشأن بالنسبة لمجتمع البوادي. ومهما يكن من أمر، فإن عالم البورجوازية كانت تخترقه أسطورة "المائدة المستديرة" التي تسمح بالحلم بمجموعة من الأفراد المتساوين يجلسون سويا حول مائدة مستديرة. وفي هذا الحلم كان ينتفي التدرج باستثناء تميز فرد واحد قائد هو الملك أرثور (Arthur). ولكن الحلم الوارد ذكره هو حلم أرستقراطي ينشد المساواة بين الأرستقراطيين. ولكن المساواة في أوساط البورجوازية لم تكن تستند إلى أية حقيقة في واقع الأمر، ورغم ذلك تبنت البورجوازية هذا النموذج النظري القروسطوي.

وإذا كان روسييو قد أحاط بمختلف العناصر التي تسمح بتعريف المدينة، فكيف يمكن تعريف الحضري أي ساكن المدينة ؟ جوابا على هذا السؤال أحيل القارئ مرة أخرى على نفس الباحث الذي سأعزز تعريفه لساكن المدينة بما أورده موريس لومبار بدوره في الموضوع.

يعتبر روسييو "الحضري فردا نموذجيا متفردا عن سائر أفراد العصر الوسيط. ويتساءل ما هي العناصر المشتركة بين البورجوازي والمتسول، بين الكاهن (le chanoine) والمومس وكلهم يحملون صفة حضريين؟ وما هي نقاط الالتقاء بين أحد سكان فلورنسا وأحد سكان مونتبريزون (Montbrison) بمقاطعة اللوار؟ فإذا كانت أوضاعهما الاجتماعية وأنماط تفكيرهما مختلفة، فإنهما يقطنان معا المدينة. ولا شك أن رجل الدين الكاهن قد يلتقي الموس في الطريق. وقد يحدث نفس الأمر بين

البورجوازي والمتسول. لا يستطيع أحدهم تجاهل الآخر. وكلهم يعيشون مندمجين في مجال ضيق يقتضي أشكالا من الاجتماع غير مألوفة أو معروفة في القرية. ويتبعون نمطا معينا من الحياة. ويستعملون النقود في حياتهم اليومية. كما يضطر بعضهم إلى الانفتاح على العالم الخارجي لضرورات خاصة".

وينظر موريس لومبار من جانبه إلى أحد الحضريين وهو تاجر."بأنه عنصر مهم في شبكة تربط بين مختلف المراكز. وهو رجل منفتح على العالم الخارجي، مرهف الإحساس تجاه التأثيرات القادمة عبر الطرق من مختلف المدن إلى المدينة التي يقيم بها. وإن هذا الرجل يطور وظائفه السيكولوجية على الدوام بفضل انفتاحه على العالم الخارجي".

والمحصلة هي أن الحضري فرد يستفيد من ثقافة جماعية تساهم في صياغتها المدرسة، والساحة العمومية، والحانة، والمسرح، والكنيسة.

وكما ساهمت المدينة في تكوين الفرد، ساهمت في تحرر الرجل والمرأة معا. كما ساهمت في تطور بنية الأسرة، من خلال التحولات التي طرأت على المهر، حيث أضحى في الوسط الحضري عبارة عن أموال منقولة (des biens meubles) أو نقود في الأغلب الأعم.

وتأسيسا على ما تقدم، يمكن القول بأن المدينة هي شخصية مكونة من أشخاص تعمل دوما على صقلهم. ولذلك، فإن أوربا الحضرية لا زالت إلى اليوم تحتفظ بخصائص كثيرة أساسية ورثتها عن مدن العصر الوسيط.

ثانيا : النجاح التجاري. أوربا التجار

إذا كان القرن الثالث عشر قرن المدن، فقد كان أيضا قرن صحوة وتطور نشاط ارتبط بالمدن ارتباطا وثيقا وهو النشاط التجاري.

أ) التاجر الايطالي والتاجر الهانسياتي

يندرج انتعاش المبادلات البعيدة المدى منذ القرن الثاني عشر في إطار ما بات يعرف اليوم "بالثورة التجارية". فقد شهد العالم المسيحي فترة هدوء واستقرار نسبيين. ولا مجال هنا للإنكاربأن الحرب الصليبية كانت واجهة اخفت وراءها مبادلات تجارية نشيطة بين أنحاء العالم المسيحي ظهر في ضوئها قطبان تجاريان مهمان : واحد في البحر المتوسط والثاني في الشمال. فكان على المسيحيين إيجاد موقع لهم بين قطب ذي صبغة إسلامية وقطب ذي صبغة سلافو- اسكندناڤية. ولذلك تشكلت مجموعتان من

المدن التجارية هما مجموعة المدن الايطالية ومجموعة مدن شمال ألمانيا. ومن هنا بزغ نجم التجار الايطاليين والتجار الهانسيين. وقد قامت بطبيعة الحال بين المجموعتين مراكز اتصال تفردت بكونها جمعت بين النشاط التجاري والنشاط الصناعي. وأهم مراكز الاتصال المشار إليها قامت في شمال غرب أوربا، أي في جنوب شرق أنجلترا، وفي كل من مناطق نورمانديا والفلاندر وشامبانيا.

ب) التاجر الأوربي المتجول

عرف التاجر الأوربي خلال العصر الوسيط بكونه كان تاجرا متجولا قبل كل شيء، نظرا للحالة المتردية لشبكة الطرق، ونظرا لمحدودية وسائل نقل البضائع، ونظرا لانعدام الأمن، وربما، وهنا الأهم، نظرا لثقل المكوس وضرائب حق المرور التي كان يفرضها السنايير والمشرفون على إدارة المدن، وكل شخص أو طرف تقع قنطرة أو ممر أو معبر في مجال نفوذه. ولعل أهم مكسب تحقق لصالح التجارة البرية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر تمثل في تشييد عدد من القناطر على بعض الأودية. وأشهرها على الإطلاق الجسر المعلق الذي تم انجازه سنة 1237 عبر ممر ڭوثار (le Gothard) في جبال الألب، والذي سمح بتقليص المسافة بين ايطاليا وألمانيا. ورغم ذلك، كان التجار يفضلون استعمال المجاري المائية. فاستعملوا الأنهار، مثل نهر البو وروافده، والممر"الروداني" الممتد نحو نهري الموزيل والموز، وشبكة الأنهار الفلامانية التي تم تعزيزها بعدة قناطر اصطناعية وسدود حاجزة. كما استعملوا البحار رغم المخاطر، التي زادت من تضخيمها الحكايات المتاوترة عن البحر. ويمكن اعتبار العصر الوسيط عصر انبثاق أوربا البحر. وقد واكب هذا الانبثاق تطور بطيء، ولكن حاسم، تجلى في زيادة حمولة بعض المراكب، وفي انتشار استعمال الدفة والشراع اللاتيني، والبوصلة والخرائط. ولكن هذه التطورات لم تفض في الواقع إلى الرفع من وتيرة التجارة البحرية التي أضحت مع ذلك أقل تكلفة من التجارة البرية.

ج) معارض منطقة شامبانيا

يمثل انعقاد معارض شامبانيا ابتداء من نهاية القرن الثاني عشر حدثا تجاريا كبيرا. كما يمكن اعتباره احد أبرز مظاهر الثورة التجارية، والمظهر ذي البعد الأوربي بامتياز.

كانت هذه المعارض تقام في أربعة مراكز هي لانيي (Lagny)، وبارعلى نهر أوب (Bar-sur-Aube)، وبروڤان (Provins)، وتروا (Troyes). وكانت تنعقد

بشكل متتالي على امتداد السنة على النحو الآتي : في لانيي خلال شهري يناير وفبراير، وفي بار خلال شهري مارس وأبريل، وفي بروڤان خلال شهري مايو ويونيو، وفي تروا خلال شهري يوليوز وغشت، تم في بروڤان من جديد خلال شهري شتنبر وأكتوبر بمركز القديس أيول (Saint Ayoul). ثم تنعقد مرة أخرى في تروا خلال شهري نونبر ودجنبر بمركز القديس ريمي (Saint Rémi). فبدت وكأنها سوق تجاري كبير ودائم في غرب أوربا. ولذلك كان تجار وسكان المراكز السالف ذكرها يحضون بامتيازات مهمة. كما أن نجاح هذه المعارض عزز سلطات أقماط شامبانيا، الذين اشتهروا بكونهم أحسنوا تدبير تلك التظاهرة التجارية. فكانوا لا يشتطون في فرض الضرائب، كما حرصوا على حسن سير المعاملات داخل هذه الأسواق.

وكان يشرف على عمليات تأمين الأسواق ومراقبة عمليات البيع والشراء طاقم من التجار في بداية الأمر. ولكن ابتداء من سنة 1284 أصبح يقوم بهذه المهام موظفون مختصون تابعون للمملكة، فغدت تلك المعارض بحق عبارة عن مركز للمبادلات. عده البعض بمثابة " نواة مؤسسة مقاصة"، لأن عمليات تسديد الديون فيها كانت تتم عن طريق المقاصة (la compensation). ويفيد هذا الأمر بأن الاقتصاد القائم على المبادلات التجارية لا يمكن أن يتطور إلا بدعم من السلطة السياسية وأيضا تحت إشرافها. وقد انتظم النشاط التجاري، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حول العقود والجمعيات التجاري ولكن صلاحية هذه الأخيرة ارتبطت بسلسلة محدودة من العقود ولمدة محدودة أيضا. وكان يجب انتظار نهاية القرن الثالث عشر لتظهر مؤسسات تجارية حقيقية.

1) مشاكل نقدية

كانت هذه التجارة الدولية تقتضي وجود أداة نقدية قوية وقابلة للانتشار بدل العملات الفيودالية التي كانت متداولة آنذاك. وقد لجأ الأوربيون لاستعمال وحدة النقد البيزنطية، حتى حدود القرن الثاني عشر، لتحقيق هذا الهدف. ويبدو أن تنامي المبادلات التجارية تجاوز الإمكانيات التي كان يتيحها استعمال العملة البيزنطية، فعاد الأوربيون لمشروع فكر فيه شارلمان ثم تخلى عنه وهو استعمال الذهب في سك العملة. فتزعمت جنوة هذه العملية منذ سنة 1252، ثم تلتها فرنسا ابتداء من سنة 1266. وانخرطت باقي المدن-الدول الايطالية إتباعا في ذات العملية. ورغم الإقبال الذي حظيت به هذه العملات من قبل المتعاملين، فإن تعددها كان في حد ذاته مشكلة حدت من تنامي المبادلات التجارية. فالنظام الفيودالي تميز بالتجزئة، كما هو معروف.

وقد انعكست هذه التجزئة سلبا على عملية التداول النقدي، التي لم يكن ممكنا أن تتحقق إلا بوجود عملة موحدة، أو بوجود عدد محدود من العملات على الأقل.

2) أوربا التجار

أخذ عدد التجار المتجولين، الذين سبق الحديث عنهم، يتراجع لفائدة التجار المستقرين. كان الواحد من هؤلاء التجار يمارس نشاطه بواسطة مجموعة من المحاسبين والوكلاء والممثلين، وعدد من الأعوان، يمكن تسميتهم بالسعاة. كانوا مقيمين خارج منطقة إقامة التاجر المستقر ويتلقون منه التعليمات، ثم يقومون بتنفيذ تلك التعليمات. ومن هذا المنطلق تنوعت طبقة التجار الذين يمكن التمييز فيهم، اعتمادا على ما أورده الباحث رايمون دي روڤر (Raymond de Roover)[1] في الموضوع، بين فئة المقرضين، المعروفين في أوساط التجار باسم "اللومبارديين" و"الكاهورسيين" (على اعتبار أن الايطاليين وأثرياء مدينة كاهور(Cahors) عرفوا في أوساط العموم بكونهم أشهر المانحين للقروض مقابل فائدة). وكانوا يقدمون قروضا مقابل ضمانات أعلى قيمة من تلك التي يشترطها اليهود المانحين لقروض الاستهلاك. والى جانب المقرضين، هناك فئة الصيارفة الذين كانوا يقومون بالعملية المالية الأكثر شيوعا في العصر الوسيط نظرا لتعدد العملات المتداولة. وهناك فئة المشتغلين بالكمبيالات، الذين كانوا بمثابة تجار بنكيين. وقد كانوا في الأصل صيارفة، فأضافوا إلى الاشتغال في صرف العملات، الاشتغال في الاستئمان على الودائع والاستثمار في القروض. وبفضل نشاطهم أخذت تنبثق أوربا الأبناك.

وفي ضوء ما تقدم، يمكن التذكير بما قيل سابقا، وهو أن العالم الذي احتضن أنشطة التجار، كان عالم المدن بصفة خاصة. ورغم أن عددا من تجار ايطاليا كانوا ينتمون إلى ما يعرف "بالشعب"، فالواقع أن أولائك التجار كانوا يتألفون من شريحتين تبعا لثرواتهم ونفوذهم السياسي. وقد كانت هذه الحقائق الاجتماعية ذات قيمة كبرى وأهم من التمايز القانوني. والدليل على ذلك هو أن حق انتماء الفرد للبورجوازية لم تكن له قيمة قياسا مع الثروة والدور الاقتصادي والسياسي داخل المدينة. وهذا ما

---

[1] - مؤرخ من أصل بلجيكي حمل الجنسية الأمريكية. ولد سنة 1904 وتوفي سنة 1972. حاضر في تاريخ أوربا الوسيط بجامعتي هارڤارد وشيكاڭو، وكذلك بكوليج بوسطن وكوليج بروكلين.

اشتهر بالبحث في التاريخ الاقتصادي عامة، وبالبحث في المبادلات التجارية والمؤسسات المالية بشكل خاص. ومن بين مؤلفاته : ←

- Money, banking and credit in medieval Bruges, Cambridge, Medieval Academy of America, 1948.

- L’évolution de la lettre de change, XIVe-XVIIIe siècle, Paris, Les Editions de l’Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales, 1953.

يذهب إليه أيضا الباحث إيف رنووار (Yves Renouard) حين يؤكد "بأن الهيمنة السياسية لرجال الأعمال أفضت إلى إرساء نظام طبقي"[1]. وتجلت هذه الهيمنة في عدة أوجه. فقد استفادوا من انتشار العمل مقابل أجر في أوساط العمال الحرفيين والعمال الصناعيين، فهيمنوا على سوق الشغل عن طريق تثبيت الأجور. كما هيمنوا على سوق العقار لأنهم كانوا مالكين للعقارات ومنعشين عقاريين في نفس الوقت. وفضلا عن ذلك، سمح لهم انتماؤهم لمجالس المدن بممارسة تأثير في النظام الجبائي الذي أرادوه أن يكون مجحفا وغير عادل لكي يستمر التمايز الاجتماعي. ويمكن الاستدلال على ذلك بنص من كتاب وضعه رجل القانون فليب دو بومنوار (Philippe de Beaumanoir)، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، يسلط الضوء على جذور اللامساواة في أوربا الحضرية يقول فيه : " لقد رفعت تظلمات كثيرة في مدن الكمونات في موضوع ضريبة الرأس (la taille). لأنه اتضح أن الأغنياء الذين يشرفون على تدبير شؤون المدينة يصرحون بأقل مما يتوجب عليهم دفعه، هم وذووهم. ويساعدون الأغنياء الآخرين في الاستفادة من نفس الامتيازات. وهكذا يقع كل الثقل على البسطاء من الناس"[2]. لقد كان التنصل الضريبي قويا، بحيث كانت تترتب عنه فضائح كبرى من حين لآخر. كما حدث في مدينة آراس (Arras) على سبيل المثال، حيث إن أحد أفراد أسرة "الكريسبيين" (les Crespin) الشهيرة بمزاولتها للأعمال المصرفية "تناسى" بأن يصرح بمبلغ أرباح قيمته 20 000 ليرة. وهو الأمر الذي يستحق القول بأن أوربا التملص الضريبي، قد انطلقت فعلا.

3) مبرر وجود النقد

كان ينظر الى كل تاجر في بداية الأمر، وخلال القرن الثاني عشر أيضا، كشخص يمارس الربا بشكل أو بآخر. ومثل هذا النشاط كانت تدينه الكنيسة. ولكن حين انحصر العمل الربوي في أوساط اليهود، وتقوت سلطة التجار، أخذت الكنيسة تبرر شيئا فشيئا الأرباح التي كان يجنيها التجار. ولكنها لم تضع حدا واضحا بين الأرباح المشروعة والأرباح غير المشروعة. وتتضمن المبررات التي قدمتها الكنيسة عناصر

---

[1] ـ لمزيد من التفاصيل يمكن الاطلاع على كتاب رنووار :
Les hommes d’affaires italiens au Moyen Age, Paris, A. Colin, 1949.

[2] ـ النص الذي نقله جاك لو ݣوف ورد في كتاب "Coutumes de Beauvaisis" الذي حققه وقدم له أميدي سلمون (Amédée Salmon)، وصدر بباريس في جزئين سنتي 1889 و1890. والكتاب من وضع فليب دو بومانوار الذي ولد سنة 1250 وتوفي سنة 1296. شغل منصب "بايي" (Bailli) في عدة مقاطعات بغالة، زمن حكم الملك سان لويس. فاستغل تجربته في التدبير والاشراف على شؤون القضاء في وضع المؤلف المذكور، الذي يقع في أكثر من ألف صفحة موزعة على 70 فصلا تعرض فيها للقوانين والأعراف التي كانت تنظم المعاملات بين الأفراد.

ذات صلة بتقنيات التجارة نفسها. من ذلك مثلا، أن الكنيسة أجازت للتاجر الذي لحقه ضرر من جراء تأخير في استلام بضاعة، أو ما شابه ذلك، الحق في المطالبة بتعويض.

وعموما، فإن تلك المبررات تسمح بالقول بأن ممارسة التجارة أدخلت في أذهان الأوربيين وأخلاقهم مبادئ جديدة مثل الصدفة، والمخاطر، وعدم اليقين. كما أدخلت مبدءا مهما، سيتم التوقف عنده بعد حين، هو مبدأ تبرير، أو شرعنة، الربح الذي يجنيه التاجر. إذ أصبح ينظر إلى هذا الربح كأجر أو كراتب يتقاضاه التاجر مقابل عمل يقوم به. وساهم أقطاب الفكر المدرسي "السكولاتي" بدورهم في الترويج لفكرة مفادها أن أعمال التجار تروم تحقيق المنفعة العامة. وتندرج في هذا السياق تصريحات بعض علماء اللاهوت، أمثال بوركهارد الستراسبورغي [1](Burchard de) Strasbourg وتوماس الشوبهامي (Thomas de Chobham)[2]. فقد صرح الأول يوما بقوله : "إن التجار يعملون من أجل منفعة عموم الناس، ولما فيه خير الجميع بحملهم البضائع إلى الأسواق والمعارض". بينما أكد الثاني : "بأن الفاقة ستكون عظيمة في عدة دول إن لم ينقل التجار ما يزيد عن الحاجة من بضائع إحدى الجهات إلى جهة أخرى تحتاج إليها. وعلى هذا الأساس فهم يستحقون الحصول على راتب مقابل عملهم". وفي ضوء هذه المواقف يتضح اذن بأن التجارة الدولية أضحت ضرورة يريدها الله وتنسجم تماما مع قدرته.

وكان من نتائج تعاظم الهالة التي أصبحت تحيط بالتجار، وتزايد نفوذهم، أن تغيرت مواقف عموم الأوربيين. فغدت النقود أساس وقوام المجتمع. ورغم ذلك لم يبد التجار أية معارضة منهجية لمنظومة قيم أفراد الأرستقراطية. بل حاولوا تقليدهم في نمط عيشهم والظهور بمظهرهم. وقاموا أيضا باقتناء الأراضي التي اعتمدوا في استثمارها على الفلاحين على غرار ما كان يقوم به أفراد الأرستقراطية. وأنفقوا جانبا من ثرواتهم النقدية في أعمال البر والإحسان كتقديم الصدقات والأعطيات، وبناء مراكز صحية في الحواضر. وكانوا يبتغون من وراء تلك الأعمال التكفير عن ذنوبهم أملا في الحصول على الخلاص الذي ظلت الكنيسة حتى حدود القرن الثالث عشر ترفض منحه للمشتبه في مزاولتهم لأعمال الربا.

---

[1] - رجل دين من أصل فرنسي. كان يشغل منصب موثق في قصر الامبراطور فردريك الأول بربروسا الذي أرسله سنة 1175 مبعوثا الى القاهرة ودمشق لإبرام معاهدة صلح مع صلاح الدين الأيوبي.

[2] - رجل دين أنجليزي ولد سنة 1160 وتوفي بين سنتي 1233 و1236. درس اللاهوت والقانون بباريس. واشتهر بالبحث في التشريع الجنائي الذي وضع فيه مؤلفا رأى فيه الباحثون المحدثون نوعا من "مدونة عقوبات".

وفي ذات السياق، لا بأس من إثارة انتباه القارئ إلى مسألة أراها على جانب من الأهمية، وهي أن عددا من التجار انخرطوا منذ القرن الثالث عشر في عمليات تشييد كنائس جديدة. وأغدقوا الأموال على الرسامين والنحاتين لزخرفتها وتزيينها. ويمكن هنا ذكر ما قام به بعض تجار فلورنسا الذين قدموا مبلغا ماليا مغريا للفنان الشهير جيوتو(Giotto) نظير زخرفة وتزيين بعض كنائس المدينة. فكانوا أول نفر من الناس امتلكوا حس الجمال في هذا الوقت المبكر. وهو الأمر الذي يدعو للحديث عن نوع من التحالف الغير منتظر بين المال والجمال.

وفي ضوء تنامي المبادلات التجارية، لا يمكن إغفال الحديث عن تطور تقنيات التجارة، وخاصة منها ما له صلة بالكتابة التي أضحت أداة أساسية في عمل التجار والمشتغلين بالصيرفة. واقتضت منهم، بطبيعة الحال، تحسين مستواهم الثقافي. فظهرت، في سياق هذا الطلب، مؤسسات تقدم دروسا في مجال تحرير الفواتير والعقود والمستندات وما شاكلها، والحساب والجغرافيا واللغات الحية. وتبدو عملية الكتابة، أو التحرير، ضرورية إذا ما علمنا بأن أحد تجار جنوة لم يفته أن ينبه زملائه بضرورة تدوين كل صغيرة وكبيرة قبل أن يطالها النسيان. وعاد تاجر فلورنسي، عقودا بعد ذلك، ليؤكد بدوره ضرورة ألا يتكاسل التاجر في تدوين ما يقوم به من أعمال. بل إن بعض المنتمين لأوساط التجار لم يكتفوا بإسداء النصح لزملائهم، بل تجشموا عناء وضع مؤلفات في مجال تقنيات التدوين والحساب كما هو الشأن بالنسبة للايطالي ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonnacci) الذي وضع مصنفا في علم الحساب سنة 1202. فقد كان ابن أحد البيزويين الذي عمل ضابطا جمركيا لحساب جمهورية البندقية في بجاية بشمال إفريقيا. فترعرع ابنه ليوناردو في مدينة بجاية. ولما شب سافر كثيرا في مهام لحساب أبيه. واختلط خلال أسفاره إلى مصر وسوريا وجزيرة صقلية بالتجار المسلمين. فتعلم كثيرا من مبادئ الرياضيات العربية التي نقلها العرب عن الهنود. ونقل إلى الأوربيين الأرقام العربية، وأهمها الصفر الذي يعد ابتكارا أساسيا في الترقيم، كما نقل كثيرا من القواعد التي تقوم عليها بعض العمليات الحسابية.

وعلى كل، فعند انصرام القرن الثالث عشر حقق التجار مكسبين مهمين، كانا حتى ذلك التاريخ يبدوان متقابلين، وهما الرفاه المادي والاستقرار الروحي. فقبل ذلك، كانوا يجنون الأموال، ولكنهم كانوا يتعذبون. فالصرة التي كان يضع فيها كل واحد منهم تلك الأموال ويربطها حول عنقه، كانت تبدو كطوق يجذب منه نحو جهنم. وقد جسدت هذا المشهد كثير من الرسومات والجداريات. أما بعد القرن الثالث عشر،أصبح

بمقدورالتاجرالاحتفاظ بتلك الأموال والانتقال بها الى المطهر (le purgatoire)[1]، ليمكث به فترة قصيرة أو طويلة، قبل أن يستكمل طريقه نحو الجنة. وبذلك نجح التجار في إحداث المصالحة بين "الصرة والحياة".

4) الايطاليون والهانسيون

اقتسم شعبان السيطرة على تجارة القرن الثالث عشر وهما الايطاليون، الذين سيطروا على تجارة البحر المتوسط، والألمانيون الذين سيطروا على تجارة المجال الممتد من الجزر البريطانية ومنطقة الفلاندر حتى بحر البلطيق. وإذا كان التجار الايطاليون قد تمكنوا من التواجد بكثافة في العالم البيزنطي، وعلى أطراف العالم الإسلامي، وسجلوا حضورا في منطقة الفلاندر، فإنهم لم يستطيعوا مع ذلك بلوغ مستوى التوسع الذي حققه التجار الهانسيون. ولا غرو في ذلك، فالتجار الهانسيون هم ورثة تجار العصر الوسيط الأعلى، وخاصة منهم، الفريزيون والفلامانيون. لكنهم تميزوا عنهم بدينامية أكبر وبالاتجار في بضائع أكثر كمية. ولذلك تراجعت تييل (Tiel) الواقعة على دلتا نهرالراين منذ القرن الثاني عشر لصالح أوتريخت. وأصبحت محج التجار الفلامانيين والفريزيين، بالإضافة إلى التجار الرينانيين (les Rhénans) والسكسونيين والدانيين والنرويجيين. بينما أضحت مدينة بروج أهم مركز تجاري في الأراضي المنخفضة. وكان هؤلاء التجار يقومون بعمليات استيراد وتصدير لمواد متنوعة مثل خمور مناطق الراين، التي كانت تنافس الخمور الفرنسية، وبعض الأدوات المعدنية، والأحجار الكريمة، والأقمشة الفارهة، والدروع.

ورغم ما قيل في حق هؤلاء التجار، فقد فاقهم تجار مدينة كلونيا (Cologne) الذين كانوا يعرضون بضائعهم في أسواق الجزر البريطانية غربا، وفي أسواق الدانمارك شرقا. ويبدو أنهم حققوا نجاحا منقطع النظير في الأسواق البريطانية بدليل أنهم منحوا حق المقام بمدينة لندن منذ سنة 1130. ووضعت رهن إشارتهم إقامة على ضفاف نهر التاميز(la Tamise) إلى الأعلى بمحاذاة قنطرة لندن. وقد حولوا تلك

---

[1] - يعتقد المسيحيون الكاثوليك بأن المسيحي المؤمن التقي يذهب الى الجنة بعد الممات، بينما يذهب الكافر وكثير الذنب الى جهنم. وهناك فئة من المؤمنين القليلي الذنوب يحتاجون بعد الممات، وقبل ملاقاة ربهم، الى عملية تطهير تتم في مطهر عبر عذاب موقوت للتخلص من تلك الذنوب قبل دخول الجنة.

وبما أن الكتاب المقدس لا يتضمن نصوصا صريحة تتحدث عن التطهير، فقد اختلف المسيحيون القدامى والمحدثون حول المطهر بين قائل بأنه "فضاء" بين السماء وجهنم، وقائل بأنه "حالة انتظار" قبل الحصول على الغفران.

لمزيد من التفاصيل يمكن العودة الى الكتابين التاليين على سبيل المثال لا الحصر :

- Jacques Le Goff, La naissance du purgatoire, Paris, Gallimard, 1981.
- Guillaume Cuchet, Le purgatoire. Fortune historique et historiographie d’un dogme, Paris, Les Editions de l’Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales, 2012.

الإقامة إلى مركز أعمال. ولم تكد تمض بضع سنوات على استفادتهم من هذا الامتياز حتى منحهم الملك هنري الثاني حماية خاصة سنة 1157.

وانضم البحارة-الفلاحون المنحدرون من جزيرة ݣوتلاند (le Gotland) إلى هذه الحركة التجارية، فسيطروا على تجارة بحر البلطيق، وساهموا في إثراء مدينة نوفݣرود (Novgorod) رغم وجود بعض التجار الروس في هذا المجرى المائي.

ويبدو أن النمو المطرد الذي شهدته المدن خلال القرن الثالث عشر أفضى إلى تغير المشهد التجاري بشكل لافت، حيث ظهر إقليم الهانس الألماني على الواجهة. وسرعان ما تنامى دوره التجاري في ارتباط وثيق مع تطور حركة التمدين. وقد خلص الباحث فليب دولنجر (Philippe Dollinger) الذي تناول حيثيات هذه التحولات التي برزت تحت تأثير تجار المدن الهانسياتية وفق مخطط صاغه كما يلي : "لقد ساهمت هجرة عدد من الفلاحين والحرفيين في تزايد عدد سكان المدن، وخاصة منها تلك التي كانت تحتل موقعا متميزا. كما كان يقيم بها عدد من التجار. وكان يوجد في هذه المدن المحصنة حي خاص بالتجار، وكذلك مركز إداري قديم يشرف عليه مجموعة من رجال الدين، أو مجموعة من اللائكيين. وفي هذه المدن كانت كل المعاملات العقارية والتجارية تنظم وفق منظومة قانونية موحدة وخاصة بالمدينة. وفضلا عن ذلك، كانت تقيم في هذه المدن جالية مؤلفة من البورجوازيين تكونت وفق ميثاق. وكان التجار المنضوين أحيانا في جمعيات (des guildes) يهيمنون على هذه الجالية. وقد استطاعت الأسر الثرية الاستحواذ على الإدارة في هذه المدن التي تمكنت من تحقيق هامش كبير من الاستقلالية عن السنيور المحلي. ونشأت فيها بالتدريج

مؤسسات إدارية يتحكم في تسييرها البورجوازيون"[1].

يجب التأكيد في سياق هذا النسق الذي اقترحه دولنجر على أهمية مسألة تكوين منظومة قانونية حضرية (خاصة بالمدينة) التي شرع في صياغتها منذ مطلع القرن الثالث عشر. واعتبرت المنظومة القانونية الخاصة بمدينة دورتموند (Dortmund) نموذجية بالنظر لتأثيرها في القوانين المتبعة في كثير من مدن منطقة وستفاليا، التي كان المتعاملون فيها يلجأون إلى محاكم ومؤسسات دورتموند للبث في القضايا التي يستعصي البث فيها من قبل محاكم ومؤسسات مدنهم. والجدير بالذكر في هذا المقام هو أن قوانين عدة مدن ألمانية مثل ݣوسلار (Goslar) وماݣدبورݣ (Magdebourg) أضحت فيما بعد تؤلف "القانون الألماني".

---

[1] - يمكن العودة فيما يتعلق بتفاصيل هذا المخطط لكتاب دولنجر :
La Hanse (XIIe-XVIIe siècles), Paris, Aubier, 1964.

ولعل أهم حدث يجب التوقف عنده، يتمثل في تشييد مدينة لوبيك (Lñbeck) سنة 1159 من قبل أدولف الثاني قمط هولشتاين وفصل (vassal) هنري الأسد دوق سكسونيا. والحقيقة أن أهمية الحدث لا تكمن في تأسيس المدينة، وإنما في كون القمط أسند عملية تشييدها وإدارتها لإتلاف مكون من عدة مقاولين. فغدت عقب تشييدها على رأس إمبراطورية حضرية وتجارية تسمى الهانس (la Hanse). وإن عددا مهما من تجار هذه المدينة هم الذين أسهموا بشكل فعال حتى منتصف القرن الثالث عشر في ثراء جزيرة ڭوتلاند، وفي ثراء تجارها، لأنهم أقاموا بها مدة من الزمن. وبذلك قدر لمدينة لوبيك أن تتجاوز كثيرا مدينة ڤيسبي (Visby) التي كانت تعد إحدى أهم مدن جزيرة ڭوتلاند. وأخذت مكانها كأهم مركز في تجارة شمال أوربا. وتجسد هذا الدور المتنامي في كون تجارها أصبحوا يستعملون مراكب بحرية ضاهت حمولتها حمولة المراكب الايطالية. وسيطروا على شبكة تجارية وبحرية تربط بين مدن قوية مثل روستوك (Rostock) وسترالسوند (Stralsund) وستيتين(Stettin) ودانتزيڭ (Dantzig) وإلبينك (Elbing). وعمل التجارالنشطون في هذه الشبكة على ضم جهودهم لجهود طائفة الفرسان التوتونيين الألمان في التوسع والتنصير في بروسيا وفي غيرها.

ويبدو أن نشاط تجار لوبيك، والتجار الألمان بشكل عام، خلق ظروفا ملائمة ساعدت على إنشاء عدة مدن من بينها مدينتي ستوكهولم في السويد وبيرجن (Bergen) في النرويج. ولم يقتصر نشاطهم على مناطق الشمال، بل قاموا بدور رائد في تجارة مناطق الغرب. فقد وصلت مراكبهم إلى مرافئ أنجلترا التي حظوا لدى ملوكها بمكانة خاصة. فقد منحهم الملك هنري الثالث حق تكوين جمعيات، أوعصب "الهانس" على شاكلة العصب التي كونها تجار كلونيا (les Colonais). وكانت عملية تشكيل هذه الجمعيات مناسبة ظهر فيها لأول مرة مصطلح "الهانس" الذي تأكد استعماله أكثر بعد تأسيس عصبة المدن.

وبالموازاة مع النجاحات المتتالية التي حققتها المدن الهانسية، كانت مدينة بروج تجتهد بدورها في إيجاد موقع لها في تجارة هذه الحقبة التاريخية. وقد تحقق لها ذلك فعلا فغدت مركزا تجاريا مهما في الغرب يفد إليه التجار الأنجليزيون والايكوسيون والايرلنديون يحملون كميات من الأصواف كانت مصانع النسيج في حاجة إليها. كما كان يفد إليها التجار الهولنديون والفريزيون بواسطة مراكب محملة بالدواب. ولم يتردد في الوفادة إليها تجار جنوب فرنسا يحملون كميات من الخمور. وانضم إليهم التجار الاسبانيون والبرتغاليون محملين بكميات من أصواف وفواكه مناطق جنوب أوربا.

ونظرا لقرب المسافة بين ايطاليا ومدينة بروج، آثر التجار الايطاليون الانضمام إلى التجار الذين كانوا يحطون الرحال بمدينة بروج بدل المتاجرة في أسواق منطقة شامبانيا. وهكذا ساهموا في تحويل بروج إلى مركز تجاري عالمي. فأخذت مراكب تجار جنوة والبندقية، المحملة بالتوابل، تحط الرحال بها إتباعا.

وانطلاقا من المعطيات التي يتضمنها هذا المبحث، يتضح بأن تجارة القرن الثالث عشر، التي جعلت المراكب البحرية تجوب الموانئ الممتدة بين ايطاليا ومنطقة الفلاندر وبحر البلطيق، أفضت إلى تشكل اقتصاد عالمي أوربي (une économie monde européenne).

ثالثا : النجاح المدرسي والجامعي

إذا كان القرن الثالث عشر في أوربا هو قرن المدن والتجارة، فقد كان كذلك، قرن المدارس والجامعات. فقد خلق تنامي قوة البورجوازية في الحواضر المناخ الملائم لتأسيس مدارس "ابتدائية وثانوية" تضاعفت أعدادها منذ القرن الثاني عشر. أرست هذه المدارس قواعد التعليم في أوربا. ولكن الحدث المثير للانتباه، الذي دشن تقليدا تربويا حيويا لا زال مستمرا إلى الآن، يتمثل في إنشاء مدارس "للتعليم العالي" تسمى بالجامعات. لقد كانت تلك المدارس تحمل عند نهاية القرن الثاني عشر إسم " ستوديوم عام" (studium generale) أي مدرسة عامة. وتفيد هذه التسمية، بأن الأمر يتعلق بمؤسسة عليا تقدم تعليما موسوعيا.

تم تشييد هذه المؤسسات في خضم العمليات الكبرى التي كانت تروم تنظيم الحرف في المدن. وقد انتظمت بدورها في طوائف كباقي الحرف واتخذت كل واحدة منها اسم الجامعة، الذي يعني الطائفة أو الهيئة. وظهر هذا الإسم لأول مرة سنة 1221 في باريس للدلالة على طائفة، أو هيئة، المعلمين والطلبة الباريسيين (universitas magistrorum et scolarium).

ولا بد من تنبيه القارئ إلى مسألة ذات قيمة، أغفل التاريخ التأكيد عليها، وهي أن الهيئات الجامعية اتبعت في تطورها خلال العصر الوسيط مساران مختلفان يسمحان بالحديث عن نموذجين : النموذج الباريسي الذي كان فيه الأساتذة والطلبة يؤلفون هيئة واحدة. والنموذج البولوني الذي كان فيه الطلبة لوحدهم يؤلفون الجامعة. وإن النموذج الباريسي هو الذي قدر له أن يستمر إلى يومنا هذا.

وتكاد مسيرة الأستاذ الجامعي في أوربا القرن الثالث عشر تشبه مسيرة التاجر. فقد كان التاجر متهما بكونه يبيع الوقت الذي يدخل في ملكية الله وحده. بمعنى أنه

يجني أرباحا وفوائد حتى وإن كان نائما. وتغير الموقف خلال القرن الثالث عشر. فأصبح ينظر إلى تلك الأرباح بكونها مستحقات عن عمل مفيد يقوم به. وعلى غرار التاجر، كان ينظر إلى الأستاذ خلال القرن الثاني عشر بكونه يبيع المعرفة التي لا يمتلكها إلا الله، ثم تغير الموقف في القرن الثالث عشر، فأصبح ينظر إليه بكونه يقدم دروسا للطلبة ويتلقى مبلغا ماليا نظير تلك الدروس. ومن هذا المنطلق يمكن الحديث عن ميلاد أوربا العمل الثقافي إلى جانب أوربا العمل التجاري.

كان الأستاذ الجامعي يلقن الدروس كما كان يقوم بعمل التفكير والكتابة، أي يقوم بما ننعته اليوم بالبحث العلمي. كما أكتسب عدد من الأساتذة شهرة بانخراطهم في النقاشات والحوارات التي كانت تدور آنذاك حول قضايا اجتماعية وسياسية من قبيل قضية تسول رجال الدين، أو قضايا السلطة، وقضية فرض ضرائب من قبل الكنيسة. فأضاف هؤلاء الأساتذة إلى مهامهم "كمحاضرين" وباحثين، مهمة أخرى أضحت منذ القرن التاسع عشر "من اختصاص" المثقفين عموما. وهذا الأمر بالذات هو الذي يدعو إلى نعت الأساتذة الجامعيين "بمثقفي العصر الوسيط".

كان الأساتذة الجامعيون يزاولون مهامهم تحت إشراف رؤساء الجامعات المنتخبين من قبل الأساتذة أنفسهم. وكان أساتذة كل مؤسسة جامعية يعملون تحت رقابة مستشار يعينه، في الأغلب الأعم، أسقف المدينة الذي تقع بها الجامعة. وتراجع، مع مرور الوقت، دور الأساقفة. وأصبح الأساتذة يعملون بشكل مستقل تقريبا عن سلطة الأساقفة، وعن السلطات الحاكمة في المدن، وأيضا عن سلطات الممالك. وبالمقابل ظلوا يخضعون لسلطات الكنائس على اعتبار أن الجامعات كانت تابعة للكنائس. ولكن تلك السلطات كانت من وجهة نظر عملية ذات تأثير محدود بوجه عام، أو ذات تأثير نظري في أحسن الأحوال. كما تجلى ذلك مثلا سنة 1270 وسنة 1277، حين حاول أسقف باريس معارضة توما الأكويني (Thomas d’Aquin) الذي تبنى بعض الأفكار التي تتضمنها نظرية الحقيقة المزدوجة التي صاغها ابن رشد من خلال قرائته لأرسطو، والتي تعني في سياق مسيحي بأن هناك حقيقة دوغمائية يمثلها الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة، وحقيقة منبثقة عن العقل يمكن أن تكون موضوع تدريس وبحث، رغم كونها متعارضة مع حقيقة الكنيسة.

لا بأس من الاشارة على هامش هذه المسألة الى أن أرسطو "كان رجل" الجامعات خلال القرن الثالث عشر، وخاصة في جامعة باريس. ورغم أن مؤلفاته في المنطق كانت مترجمة إلى اللاتينية منذ فترة طويلة، فإنها لم تحظ بأي اهتمام حتى القرن الثالث عشر. وقد تم حظر تدريسها في الجامعات في بداية الأمر، ولكن الطلبة أقبلوا، مع ذلك ، على تداولها. وبعد منتصف القرن الثالث عشر غدت موضة. فأفضى

ذلك إلى ظهور ما يعرف بالأرسطية اللاتينية التي انتشرت في مختلف الجامعات لفترة تزيد عن العشر سنوات بفضل الجهود التي بذلها توما الأكويني. ثم تعرضت للحصار من قبل بعض الأساتذة المتشبثين بالفكر التقليدي، والأساتذة "الحداثيين" المتشبثين بفكر أقل عقلانية. وأخذ الفكر الأرسطي في الأخير في التراجع لأنه اعتبر عائقا أمام تطور العلم الذي أضحى تجريبيا أكثر، وقابلا لأن يكون موضوع نقاش منفتح.

ومهما يكن من أمر، فبالعودة للحديث عن الجامعات، نقول بأنها كانت تتألف، تبعا للمواد المدرجة ضمن برامجها، من أربع كليات في الأغلب الأعم. وقد يحدث أن تشتهر كلية بعينها من بين كليات الجامعة الواحدة. فقد اشتهرت كلية الحقوق في جامعة بلونيا (Bologne) على حساب الكليات الأخرى . كما اشتهرت كلية اللاهوت في باريس على حساب الكليات الأخرى. ونفس الشيء ينطبق على جامعة مونبوليي التي اشتهرت فيها كلية الطب دون غيرها من الكليات. وقد أفضت شهرة إحدى كليات الجامعة على حساب الكليات الأخرى إلى حدوث نوع من التدرج بين الكليات، زادت من حدته طبيعة البرامج والمقررات المدرسة في كل كلية. فكليات الفنون التي كانت تدرس فيها فنون "نظرية" كالنحو، بفروعه، والبلاغة وفنون "عقلية" كالهندسة والفلك والموسيقى كانت أكثر اكتظاظا. وكان يؤمها غالبا طلبة أقل ثراء وأكثر شغبا. وتأتي في مرتبة أعلى منها نسبيا كلية الحقوق التي كان يتم فيها تدريس القانون بفرعيه : القانون المدني والقانون الديني. وفي مرتبة أعلى منها كلية الطب التي كان طلبتها يتلقون دروسا في علوم الطب غلب عليها آنذاك التعاطي مع المؤلفات، والطابع النظري أكثر من الطابع التطبيقي. وتقع في الهرم كلية اللاهوت المتخصصة في العلوم الدينية.

كانت جامعة بلونيا (Bologne) هي أول جامعة فتحت أبوابها أمام الطلبة. وقد منح الإمبراطور فردريك الأول بربروسا أساتذتها وطلبتها امتيازات منذ سنة 1154، رغم أنها لم تتلق نص نظامها الأساسي من البابا لتشتغل رسميا إلا سنة 1252. وعلى غرار جامعة بلونيا، لم تتوصل جامعة باريس بنص نظامها الأساسي من البابوية إلا سنة 1215. وقد منح الملك فليب أغسطس لأساتذتها وطلبتها امتيازات سنة 1200. ثم منحها البابا كَريكَوار التاسع (Grégoire IX) شهادة مختومة تشيد بها وبالمستوى الذي بلغته بها علوم الدين.

أما جامعات أكسفورد وكامبريدج ومونبوليي، فقد تم تشييدها في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر. بينما تم تشييد جامعة نابولي سنة 1224، وجامعة لشبونة سنة 1288. وانخرطت البابوية بدورها في مسلسل تشييد الجامعات. فخصصت منشأة بحضيرة الفاتكان اتخذت كجامعة. وفي نفس السياق تم تأسيس

جامعة سلمانكا، ولكن ليس دفعة واحدة، وإنما عبر مراحل. واستفاد أساتذتها وطلبتها بامتيازات من قبل الملك ألفونس العاشر. وخصصت بها عدة كراسي علمية لتدريس القانون الديني والمنطق والنحو والفيزياء والطب.

وتعتبر جامعة تولوز المؤسسة الوحيدة التي شدت عن المؤسسات الجامعية الأخرى فيما يتعلق بحيثيات نشأتها. فقد فرضت البابوية تشييدها في سياق حربها ضد الحركة النقطيرية التي سبق الحديث عنها. وواكبت عملية تشييدها حملة دعائية واسعة في سائر أنحاء العالم المسيحي تشيد بها وبالمدينة التي أقيمت بها. وقد أثارت تلك الحملة امتعاض سكان تولوز الذين رأوا بأن الجامعة ستتخذ كوسيلة لفرض هيمنة الشماليين على سكان جنوب فرنسا. والغريب في الأمر أن علوم الدين لم تجد لها مكانا في هذه المؤسسة التي تطورت فيها علوم القانون.

ومهما يكن من أمر، فإن أهم المستجدات التي شهدتها جامعات القرن الثالث عشر، والتي ورثتها جامعات أوربا خلال القرون الموالية، تمثلت في حق الأساتذة والطلبة في خوض إضرابات. ولعل أشهرتلك الإضرابات ذلك الذي خاضه أساتذة وطلبة جامعة باريس لمدة سنتين بين 1229 و1231. ويتمثل المستجد الثاني في استفادة الأساتذة والطلبة من عطلة لمدة شهر في فصل الصيف. ويمكن إدراج مستجد ثالث إلى هذه القائمة ويتمثل في حق الأساتذة، والطلبة أيضا، في الانتقال من مؤسسة جامعية إلى مؤسسة أخرى قريبة أو بعيدة في سياق وحدة العالم المسيحي ووحدة المعرفة. ويفيدنا المؤلف في هذا السياق بالذات بأن عددا من الأساتذة الألمان والايطاليين كانوا يدرسون بجامعة باريس.

ويبدو أن أهم مستجد يستدعي التوقف، هو كون جامعات العصر الوسيط كانت تمنح طلبتها المتفوقين شواهد علمية موحدة شكلت قاعدة صلبة لأوربا المستقبل. كان الطلبة يحصلون على عدة شواهد نظرا لطول مدة الدراسة الجامعية، التي كانت تنتهي مبدئيا بعد إحدى عشرة سنة من التحصيل بالحصول على شهادة المتريز في علوم الدين التي عدت وقتها أشهر الشهادات. وكان من الممكن أن يحصل عليها أبناء النبلاء، وأبناء الفقراء. فكم من طالب ينحدر من أسرة فلاحين أصبح بعد التحصيل أستاذا جامعيا. ويسوق المؤلف في هذا الشأن نموذج روبيردوسوربون (Robert de Sorbon) الذي كان ابن فلاح اقتحم الجامعة وتخرج منها وغدا شهيرا في عصره. فكسب ود الملك سان لويس الذي أغدق عليه بسخاء، فأنفق جانبا من تلك الأموال في تشييد كوليج السوربون الشهير الذي كان في البدء مؤسسة متواضعة.

وإذ أمكن لصاحبنا إتمام دراسته رغم وضعيته المادية الصعبة، فكثير هم الطلبة الذين لم يستطيعوا القيام بذلك، أو غادروا الجامعة بعد سنة أو سنتين. لأن مدة الدراسة

كانت طويلة، ولأن الجامعات كانت تقع في المدن حيث يضطر الطالب إلى صرف مبلغ مالي نظير إيجار غرفة، ونظير اقتناء ما يحتاج إليه من مأكل وغيره. وكان هذا المبلغ يتزايد كل سنة بسبب ارتفاع الأسعار.

وكان من حسن حظ بعض الطلبة النجباء، المنحدرين من أوساط فقيرة، أنهم كانوا يجدون بعض المحسنين الذين يقدمون لهم يد المساعدة. فكان هؤلاء المحسنين يخصصون لهم إقامات ويقدمون لهم وجبات مجانا.

وانخرطت بعض المؤسسات الجامعية في هذا العمل "الخيري" بشكل محدود. فكوليج السوربون، على سبيل المثال، كان يخصص إقامات للطلبة الفقراء الذين يتابعون دراستهم في علوم الدين. وعلى غراره كانت جامعة أكسفورد تخصص إقامات للطلبة الذين يتابعون دراستهم في حقل الرياضيات.

1) حضارة الكتاب

تمثل النهضة التي شهدها الكتاب خلال القرن الثالث عشر امتدادا لتلك التي شهدها خلال القرن السابق. والحقيقة أن الأمر يتعلق فعلا بنهضة، أو انبعاث، لأن الكتاب كان قد شهد نهضة بين القرنين الرابع والسابع حينما أصبح عبارة عن كراس مؤلف من صفحات (le codex) بدل كتاب العصر القديم الذي كان على شكل ورق ملفوف (rouleau) تصعب قراءته. كان الكتاب المؤلف من صفحات ذو قطع صغير نسبيا، سهل الاستعمال، ويمكن حمله من مكان لآخر. لكنه لم ينتشر على نطاق واسع لسببين : يتمثل السبب الأول في قلة عدد القراء. إذ وحدهم الرهبان هم الذين كانوا يعرفون القراءة ويتداولون عددا من الكتب المحفوظة في خزانات المونا‌ستيرات. ويتمثل السبب الثاني في كون الكتب كانت تصنع من "البرشمان" (le parchemin) المؤلف من جلود العجول وجلود الخرفان بشكل خاص. وكانت تتطلب عددا من جلود هذه الحيوانات. وبالتالي، كانت تكلفة الكتاب الواحد مرتفعة، فيتعذر على أي كان اقتناؤه.

ويبدو أن سوق الكتب انتعش بعد ظهور المؤسسات التعليمية في الوسط الحضري، ومنها الجامعات بشكل خاص. وهذا ما يعبر عنه الباحث إيڤان إليش (Ivan Illich) بقوله : "تتميز حضارة الكتاب بكون سنة 1140 طويت فيها الصفحة الرهبانية لتفتح الصفحة المدرسية"[1]. ويبدو غريبا، إذا علمنا بأن عالم اللاهوت هيوغ دو سان ڤيكتور (Hugues de Saint-Victor)[1] هو الذي أعطى بباريس انطلاق الشرارة الأولى لهذا "الفن الجديد"، "فن قراءة الكتاب".

---

[1] - أنظر كتابه :

ومهما يكن من أمر، فخلال القرن الثالث عشر اكتملت التعديلات المادية والتقنية التي أعطت للكتاب وجها جديدا وجعلته أكثر تداولا. وبالمثل، تحسنت تقنيات وضع المتن وتوزيعه داخل الصفحة الواحدة وعبر صفحات الكتاب ككل. إذ تحسنت عملية الوقف (la ponctuation)، وعملية وضع العناوين، وفهرس المحتويات. وشمل التطور أيضا طريقة القراءة. فقد انتهى زمن قراءة الكتاب بصوت مرتفع، وحل زمن القراءة الصامتة. فانبثقت تبعا لذلك أوربا الفرد القارئ.

ويستفاد مما سبق أن انتشار المدارس والجامعات لم يكن العامل الوحيد الذي أدى إلى الإقبال على قراءة الكتاب، وإنما هناك أيضا تزايد أعداد كتاب العقود (الذين ظهروا في سياق نشأة طوائف حرفية جديدة والاتجاه نحو التخصص)، وانخفاض نسبة الأمية في أوساط النبلاء والتجار والحرفيين. فانعكس ذلك بالإيجاب على صناعة الكتاب. وهذا ما يؤكده الباحث دانييل بالو (Daniel Baloup) الذي يذكر "بأن الكتاب أضحى أداة للدراسة الدنيوية وللعمل، ولقضاء أوقات الفراغ، وأداة لتحقيق نوع من التفاني الشخصي".

وبقدر ما استمرت الكتب في التطور شكلا، وفي التنوع مضمونا، بقدر ما ازدادت انفتاحا على أذواق القراء واهتماماتهم. فالكتب الموجهة لطلاب الجامعات على سبيل المثال، كان يتم إخراجها وفق مواصفات خاصة. فكان واضعوها يحرصون على ترك هامش مهم نسبيا في كل صفحة يملأه الطالب بما عن له من ملاحظات وتعقيبات. ولذلك بدت صناعة الكتاب وكأنها تطورت في صلة بالجامعات في المقام الأول. ولهذا السبب ذاته ظهرت المكتبات. وتزايد الطلب على الكراسات وعلى الناسخين، والمكلفين بعمليات التسفير. وتبعا لذلك ظلت تكلفة الكتاب مرتفعة. ولم ينخفض سعر الكراس (بكرا) أو الكتاب مخطوطا إلا بعد أن بدأ استعمال الورق تدريجيا في صناعته. ولم يصبح هذا الأمر حقيقة إلا بعد مطلع القرن الخامس عشر، حيث انخفض سعر الكراس "البرشمان" بثلاثة عشرة مرة عما كان عليه من قبل.

ولعل أبرز تطور شهدته صناعة الكتاب خلال القرن الثالث عشر تمثل في استعمال تقنية "la pecia" التي تقوم على نسخ صفحات الكتاب مستقلة الواحدة عن الأخرى قبل شدها إلى بعضها. لأن عملية استنساخ المخطوط قبل طبعه، كانت تطرح إشكالا عويصا حتى تم الاهتداء في كل من بلونيا وباريس إلى التقنية السالف ذكرها.

Du lisible au visible. L’art de lire de Hugues de Saint-Victor, Paris, Les Editions du Cerf, 1991.

[1] - أنظر ما ذكرناه عنه في الهامش رقم 1 صفحة 87.

ويستفاد مما أورده الباحث لويس- جاك بطايون (Louis-Jacques Bataillon)، بأن تقنية الوحدة (la pecia) "كانت تقتضي، بعد الانتهاء من تحرير المخطوط الأصلي، أن يقوم ناسخ (un copiste) بوضع نسخة منه على شكل كراس مرقم مكون من أوراق مزدوجة يسمى pecie. ويقوم الكاتب (le scribe) بإعادة كتابة الوحدات (les pièces) الواحدة تلو الأخرى. ويترك وحدات الكراس الأخرى لكتاب آخرين يقومون بنفس العمل. وعلى هذا المنوال يشتغل على نقل النص الأصلي عدة كتاب في نفس الوقت، فيتم الحصول تبعا لذلك على نسخ كثيرة من المخطوط الأصلي". وهكذا عرفت أوربا شيوع ظاهرة النساخ (النقالين) (les copistes) سنتين قبل ظهور الطباعة. ولكن هذه التقنية التي انتشرت كثيرا في مدن ايطاليا وفرنسا لم يتم تبنيها في أنجلترا وفي المدن الألمانية والسلافية. ولذلك ظلت العوائق التقنية تحول دون انتشار واسع للكتاب. وكان يجب الانتظار حتى أواسط القرن الخامس عشر لتتحقق النهضة الكبرى.

ولكن العوائق المشار إليها، لم تحل دون تداول الكتاب بين عدد كبير من قراء القرن الثالث عشر، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. إذ فضلا عن الأساتذة والطلبة، انضم إلى صفوف متداولي الكتاب عدد من القراء اللائكيين (نبلاء، تجار، حرفيون)، الأمر الذي يسمح بالقول بأن رياح العلمانية أصبحت تهب على المسيحية بفضل تطور صناعة الكتاب وتزايد أعداد القراء من مشارب مختلفة.

والحقيقة أن الديانة، وقضايا الدين ظلت حاضرة في معظم المؤلفات المتداولة، ولكن إلى جانبها بدأت تظهر مؤلفات موجهة للنساء. يمكن القول بأنها ساهمت، إلى جانب المدارس، في ترقية المرأة. وعموما فإن صناعة الكتاب أخذت منحى ينسجم مع الاتجاه السائد وهو رواج الكتب ذات الطابع النفعي التي أفضت إلى تراجع الكتاب الذي يروم أن يجعل من الكتاب ذاته عملا فنيا.

2) الإنتاج الموسوعي

تمثل الكتب ذات الطابع الموسوعي نموذجا جديدا من الكتب ظهر خلال القرن الثاني عشر، وانتشر خلال القرن الموالي. وأتى هذا النموذج ليعزز الاتجاه نحو العلمانية الذي بدأت تأخذه المعرفة. كما أتى لتلبية طلب شريحة من القراء، وفي ذات الوقت للإحاطة قدر الامكان بالمعرفة التي اتسعت مجالاتها.

كانت هذه الموسوعات تتناول فعلا علوما نقلية، وعقلية، كعلوم الدين والفلسفة والميتافيزيقا. فكانت بذلك تقدم للقراء معارف شاملة تهم الطبيعة والمجتمع. ويعتبر عالم اللاهوت هيوغ، الذي سبق ذكره،أول من وضع أسس وقواعد التأليف الموسوعي

حين نشر حوالي سنة 1135 كتابا يتضمن معارف دينية وأخرى دنيوية. فوضع الفنون والفلسفة في المقام الأول. ووضع علم التفسير (الهرمنوطيقا) والتاريخ في المقام الثاني.

وأنجز بعده غليوم دو كنش (Guillaume de Conches) موسوعة تناول فيها معارف شتى تتصل بالفلسفية وعلوم الطبيعية. وعلى غراره وضع الاسكندر نيكام (Alexandre Neckam) موسوعة مماثلة، ولكن تغلب عليها النفحة الأرسطية. ثم جاء دور العالم برطليمي الأنجليزي (Barthèlemy l’Anglais) الذي ألف بين سنتي 1230 و1240 موسوعة "طبائع الأشياء" (De propretatibus rerum) التي انطلق فيها من طروحات ايزيدور الاشبيلي وأرسطو. وقد حظيت بإقبال القراء، فغدت أكثر الموسوعات شعبية خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وتمت ترجمتها من اللاتينية إلى اللغات الأنجليزية والفرنسية والاسبانية والفلامانية والبروڤنسالية. وأمر ملك فرنسا شارل السادس بإعادة ترجمتها إلى الفرنسية سنة 1372. وقام عالم اللاهوت توما دو كنتمبري (Thomas de Cantimpré) بدوره بإنجاز موسوعة "كتاب الطبيعة" (Liber de natura rerum) خلال فترة تأليف موسوعة برطليمي الأنجليزي. وحاول فيها الإحاطة بمختلف معارف عصره في مجال علوم الطبيعة، وجعلها مدخلا لتناول علوم الدين. وقد تفطن بأن موسوعته غلبت عليها العلوم الدنيوية، فكرس ما تبقى من عمره في التأليف في أمور الدين. ومن ضمن ما كتبه في هذا الشأن كتاب " الخير الكلي للنحل" (Bonum universale de opibus) الذي ضمنه الكتاب التاسع من موسوعته السالفة الذكر بعد أن أعاد صياغتها في قالب جديد، بحيث شبه فيها المجتمع بخلية نحل.

ويعتبر العالم ڤانسون دو بوڤي (Vincent de Beauvais) ثالث الموسوعيين شهرة بعد برطليمي الأنجليزي وتوما دو كنتمبري. وقد وضع هو الآخر موسوعة، بإيعاز من طائفة "الفقراء" التي كان ينتمي إليها، تتضمن مختلف المعارف والعلوم التي يحتاج إليها "الإخوان" الذين لم تتح لهم إمكانية ولوج الجامعات. ويتميز هذا الموسوعي بكونه تبنى طريقة جديدة في انجاز الموسوعة تمثلت في تكوين فريق عمل من رجال الدين، ساعدوه في جمع النصوص واستقراء المادة الضرورية قبل الشروع في التحرير. فقام هو بتوزيع تلك المادة على ثلاثة أبواب كبرى ارتأى أن تتألف منها الموسوعة.

وظهرت في حقل التأليف الموسوعي موسوعات من نمط آخر. تميزت عن "الجيل الأول" من الموسوعات بكونها لم تكن عامة وجامعة مانعة لمختلف العلوم، بل كانت عبارة عن موسوعات مجزءة، كل واحدة (أو جزء منها) اقتصرت على علم

بعينه. وقد برز من بين واضعي هذا الصنف كل من الألماني ألبير الأكبر (Albert le Grand) والأنجليزي روجي باكون (Roger Bacon). وانضم إليهم القطالوني رايموند لول (Raymond Lulle) الذي تميز بكونه كان مفكرا علمانيا جمع بين تدريس اللغات القديمة واللغات الحية والتأليف. وقد وضع عدة مؤلفات في مجال علم اللاهوت والفلسفة والبيداغوجيا والقانون والسياسة والفيزياء. كما نظم الشعر، وكتب الروايات.

3) المدرسية

لعل أهم إرث ثقافي، جامعي بصفة خاصة، ورثه القرن الثالث عشر، هو مجموع المناهج والمؤلفات التي تندرج في خانة ما يسمى بالمدرسية (la scolastique). وتطلق هذه التسمية على الإنتاج الثقافي المرتبط بالمدارس عموما وبالجامعات بشكل خاص. وقد انبثقت المدرسية عن تطور الجدل الذي كان يكون أحد العلوم الثلاثة (le trivium)، وهي علم النحو والبلاغة والجدل. والجدل هو فن التبرير والإقناع بالأسئلة والأجوبة في إطار وضعية حوار ثنائي.

ويعتبر أنسلم الكنتربيري (Anselme de Cantorbéry)[1]، الأب الروحي للمدرسية. وهو القائل : "بأن الجدل هو المنهج القاعدي في التفكير الإيديولوجي. وإن الهدف الأعلى الذي يروم تحقيقه هو ذكاء، أو مهارة، الاعتقاد". وقد ظلت هذه القولة خالدة منذ العصر الوسيط. ويمكن اعتبار المدرسية تصورا مبنيا على التوافق ما بين الله والإنسان. وقد كانت إسهامات أنسلم كبرى في هذا الاتجاه، حيث قدم الدلائل على وجود الله باعتماد طريقة عقلانية.

ومن المفيد التذكير في هذا المقام بأن اعتماد طريقة جديدة في التفكير وفي التدريس خلال القرن الثاني عشر مهد المجال أمام تبني الاتجاه المدرسي. وكانت هذه تقوم على بناء إشكال في البدء ثم طرح سؤال للنقاش بين الأستاذ وتلامذته. ويقدم الأستاذ في نهاية المناقشة حلا للإشكال المطروح. وكان برنامج الجامعات يتضمن كل سنة تمرينين رئيسيين تتجلى فيهما كفاءة الأساتذة في الإجابة على الأسئلة المختلفة التي يطرحها الطلبة. وكانت سمعة الأساتذة تقوم على أساس مدى قدرتهم على الإجابة عن تلك الأسئلة.

والجدير بالإشارة أن التدريس الجامعي كان مناسبة للتأليف في مختلف أصناف العلوم المدرسة، وهذا ما يفسر أهمية الجامعات في مجال صناعة ونشر الكتاب. وإن أهم المؤلفات المدرسية (الجامعية) التي صدرت خلال القرن الثاني عشر كانت عبارة

---

[1] - أنظر ما ذكرناه عنه في الهامش رقم 1، صفحة 86.

عن مجاميع تتضمن نصوصا، أو أقوالا، منتقاة من الكتاب المقدس، ومن مصنفات أباء الكنيسة، ومذيلة بتعقيبات الأساتذة واضعي هذه المؤلفات، وتعكس الرؤى والتوجهات المدرسية. وظهر إلى جانب هذا النوع من المؤلفات نوع آخر، تمثل في مجاميع تتضمن، هذه المرة، نصوص المناقشات التي دارت حول قضية، أو قضايا، بالإضافة إلى الأحكام، أو الأجوبة التي يقدمها الأستاذ واضع المجموع عن مختلف الأسئلة التي طرحت عليه. وكان من بين أبرز من اشتهروا في هذا النوع من التآليف أسقف باريس بطرس اللومباردي الذي وضع بين سنتي 1155 و1157 "كتابا في الأحكام". أصبح من أهم المؤلفات المعتمدة في التدريس في كليات علوم الدين خلال القرن الثالث عشر. وظهرت إلى جانب هذه المؤلفات كتب الحواشي التي عني أصحابها بوضع شروح وتفاسير لبعض الكلمات الواردة في متون النصوص. ويمثل هذا النوع من التآليف تطورا لكتب التفاسير التي اهتمت بشرح الكلمات الواردة في الكتاب المقدس. والجدير بالذكر أن التفسير انتهى بدوره خلال القرن الثالث عشر بظهور كتاب جامعي جديد عرف "بكتاب التفسير العادي".

وعلى كل، تجلت الإنتاجات المدرسية خلال القرن الثالث عشر في شكلين :

تمثل الشكل الأول في كتب التعاليق التي كانت تضاف للمناقشات. وقد ساهمت هذه المؤلفات كثيرا في تطور المعرفة خلال الفترة المذكورة لأنها اكتست طابع الجدة لكونها كانت تعكس اهتمامات اللحظة التي كتبت فيها، وإن راعى واضعوها، من الأساتذة الجامعيين، تقليدا سابقا في وضع هذه المؤلفات. ورغم ذلك، لا بأس من الاقرار بأن هذا الشكل من المؤلفات أرسى دعائم تطور ثقافي في ربوع أوربا، دون إحداث قطيعة مع ماضيها الثقافي والفكري. ويمكن الاستدلال في هذا الصدد بما أورده الباحث ألان ليبيرا (Alain Libera) حين كتب يوما بأن "تاريخ التأليف في التعاليق هو تاريخ التحرر التدريجي للفكر الفلسفي من معطيات التقليد".

وتمثل الشكل الثاني في كتب المجموعات، أو الخلاصات، التي يعكس اسمها رغبة مثقفي القرن الثالث عشر في وضع، رهن إشارة القراء، مؤلفات في الفلسفة ذات طابع تركيبي، موثقة ومعللة؛ في وقت كانت فيه الفلسفة لا زالت متصلة باللاهوت. وهذا ما يبرر بالذات ما ذهب إليه رجل الدين وعالم اللاهوت الأب شوني (le Père Chenu) حين أكد بأن اللاهوت ارتقى خلال القرن الثالث عشر إلى مصاف العلوم.

ومن بين أهم العلماء المدرسيين الذين برزت أسماؤهم خلال القرن الثالث عشر، يمكن ذكر الأنجليزي الإسكندر دي هاليس (Alexandre de Halès) والألماني ألبير الأكبر (Albert le Grand) الذي حمل لقب الأستاذ بجامعة باريس سنة 1248. فقد كان واسع المعارف، بحيث ألف في مجالات علمية وفنية لم تكن

تدرس في الجامعة. كما استفاد كثيرا من مؤلفات الفلاسفة العرب كالفارابي وابن سينا وابن رشد. ويعزى اليه الفضل في محاولة إحداث نوع من التوازن بين الفلسفة واللاهوت. وبرز كذلك توما الأكويني (Thomas d'Aquin) تلميذ ألبير السالف الذكر. اشتهر بكونه من أكثر علماء العصر الوسيط الذين بصموا الفكر الأوربي وأثروا في العامة وفي الخاصة من رجال الدين ومن اللائكيين. ترك عدة مؤلفات من بينها كتاب "خلاصة الرد على الأمم" (la Somme contre les gentils) الذي وضعه بين سنتي 1259 و1265، وكتاب "الخلاصة اللاهوتية" الذي شرع في وضعه سنوات قبل وفاته سنة 1274. وقد سعى توما الأكويني في هذين المؤلفين، وفي غيرهما، إلى تبيان سلطة العقل التي تمكن الفرد من معرفة الله، ومن معرفة كنه العالم والكشف عن الحقيقة. ولم يكن روجي باكون (Roger Bacon) أقل حظوة من العلماء المدرسيين الآخرين. فقد ذاع صيته في جامعة أكسفورد. وألف كغيره في حقلي اللاهوت والفلسفة. وزاد عن بعض أقرانه في كونه ألف في حقل الفلك، فعد ليوناردو دافنتشي زمانه.

ومهما يكن من أمر، فإن المدرسية تعد مرحلة من مراحل النشاط الفكري في أوربا. وإن الحديث السالف عن المؤلفات المدرسية وعن واضعيها لا يكتسي أهمية إلا بإبداء الملاحظات التالية : أول هذه الملاحظات، هي أن أبيلار، أحد أقطاب الفكر في القرن الثاني عشر، أشاع، قبل المدرسيين، في أوساط المفكرين فكرة قال بها أرسطو وهي ضرورة الشك في كل شيء، لأن الإنسان الذي ينطلق من مبدإ الشك يصل إلى الحقيقة. وقد عبر أبيلار عن هذا المبدإ بقوله : "مهما كان موضوع الحوار بين شخصين، فإن التحليل العقلاني تكون له سلطة على أي شيء آخر". وقد انتقل مبدأ الشك من أبيلار الى أقطاب المدرسية وتبناه عموم المثقفين، فكان هذا الانتقال بمثابة عودة إلى الفكر النقدي الذي أرسى دعائمه الإغريق ولا زال إلى يومنا هذا أساس الفكر الأوربي. وثاني هذه الملاحظات هي أن المدرسية حررت الفكر الأوربي، كما قال بذلك ألان ليبيرا، وأرست تقليدا فكريا يقوم على فكرة مفادها أن المعرفة هي نوع من التحرر. وثالث هذه الملاحظات هي أن أقطاب المدرسية سعوا إلى عرض أفكارهم بصيغة واضحة ومنظمة. وبذلك رسخوا في أوساط المثقفين، وعموم الناس المتعلمين وغيرهم، تقليدا يقضي بالتفكير بشكل واضح ومنظم. وقد سبقوا كثيرا في هذا الأمر ما قال به روني ديكارت، الذي يربط كثير من الباحثين ثورة الفكر الأوربي بشخصه، مع أنه يعتبر في واقع الأمر تلميذا لامعا لمدرسية (scolastique) العصر الوسيط.

4) أوربا اللغة : اللاتينية واللهجات المحلية

كانت اللاتينية هي لغة التعليم الجامعي. وقد ظلت لغة العلم والمعرفة خلال العصر الوسيط. وزاد من تفوقها كون الطقوس والشعائر الدينية كانت تقام بها. ولكنها لم تكن اللغة المستعملة من قبل جميع أفراد المجتمع. إذ منذ القرن الرابع أخذ بعض المتعلمين، وجمهور عريض من اللائكيين، يتحدثون لغة لاتينية رديئة كانت تبتعد يوما بعد يوم عن أصول اللاتينية. وهو الأمر الذي جعل المؤرخين يلاقون صعوبة في تحديد تاريخ بداية استعمال هذه اللهجات المحلية، خاصة وأن تلك البداية تزامنت مع انتشار لهجات الشعوب الغازية التي استقرت بربوع أوربا.

وعموما، فإن رجال الدين وحدهم هم الذين ظلوا يتحدثون اللاتينية منذ مطلع القرن التاسع. أما عموم اللائكيين فأخذوا يستعملون لغة غير لاتينية. ويميل معظم الباحثين إلى ربط نشأة اللهجات المحلية بالنص الشهير" قسم ستراسبورغ" (les Serments de Strasbourg) الذي يتضمن صيغتي اليمين، أو القسم، الذي أداه، سنة 842، كل من شارل الأصلع ولويس الجرماني إبنا الإمبراطور لويس التقي. فقد أدى أحد الإخوة القسم بلغة ستصبح فيما بعد هي اللغة الفرنسية، بينما أدى الآخر القسم باللغة التي ستتطور لتصبح اللغة الألمانية. وبذلك بدا وكأن النظام السياسي في أوربا تشكل تحت تأثير البنيات العشائرية التي كانت تتضمن في كنهها بنيات وطنية.

ويفيد تصرف الملكين على هذا النحو بوجود إشكالات لغوية كانت مطروحة بحدة على القادة العسكريين، وكذلك على رجال الدين قبل هذا التاريخ بفترة طويلة. ولذلك كانوا مضطرين إلى اتخاذ إجراءات لحل هذه الإشكالات، انطلقوا فيها من مبدأ أن التقرب من الله لا يتم فقط باستعمال اللاتينية والإغريقية والعبرية، بل يمكن أن يتم كذلك باستعمال أية لغة. وكانت سنة 813 حاسمة في هذا الاتجاه حين أقر المجمع الديني المنعقد بمدينة تور بجواز استعمال اللهجات المحلية في التراتيل وغيرها لتقريب محتواها من عموم المسيحيين. ولذلك ذهب بعض الباحثين إلى اعتبار مقررات هذا المجمع بمثابة تاريخ حاسم في ميلاد اللغات الوطنية.

وقد تطورت اللهجات المحلية خلال القرن الثالث عشر. واستمرت في التطور في نهاية العصر الوسيط. ولم تعد مجرد لهجات منطوقة، بل أضحت كذلك لغات تستعمل في التعبير الكتابي. فنشأ تبعا لذلك أدب مكتوب بهذه اللغات، اشتهرت في إطاره أعمال خالدة من قبيل القصائد التي تتغنى ببطولات الفرسان (les chansons de geste)، والنصوص التي تطفح بالحب والهيام (les romans courtois).

ولم تكن اللغة الشفوية والكتابية التي كان يستعملها مدرسيو القرن الثالث عشر، هي اللغة اللاتينية الكلاسيكية، كما لم تكن أيضا لغة أخرى متكاملة البنية. لقد كانت لغة

مصطنعة استعملت في تحرير جميع الأعمال الجامعية سواء في حقل اللاهوت أو في حقل الفلسفة.

وعلى كل، فقد تشكلت اللغات المحلية من مجموعات يمكن التمييز فيها بين مجموعة اللغات التي انبثقت عن اللاتينية وظلت، مع ذلك قريبة من اللغة الأم. وتظم هذه المجموعة الفرنسية واللغات الأيبيرية والايطالية.

سادت في غالة اللغة الفرنسية. وهي خليط من اللاتينية ومن لغة جرمانية، هي لغة الفرنجة. وحدث أن انصهرت اللهجات المنطوقة في غالة. فترتب عن هذا الانصهار ظهور لهجتين هما : الأوك (la langue d'oc) التي كانت مستعملة في مناطق الجنوب. والأويل (la langue d'oïl) التي كانت مستعملة في مناطق الشمال. وقد كان يتحدث بها ملوك غالة بوصفهم قادة سياسيين، ورعاة الثقافة والفكر. وقدر لهذه اللهجة أن تنتشر في جميع مناطق البلاد تحت تأثير الانتصارات، ونجاح الشماليين في السيطرة على مناطق الجنوب.

وفي أنجلترا، تميز الوضع اللغوي بهيمنة ثلاث لغات حتى مطلع القرن الخامس عشر. تمثلت في اللغة اللاتينية، واللغة الفرنسية في صيغة لهجة أنجلو- نورمانية بالإضافة إلى اللغة الأنجليزية القديمة التي كان يتحدثها الأنجلو- سكسونيون. وقد قدر لهذه اللغة أن تهيمن على المشهد اللغوي، فأصبحت لغة أنجلترا. وكان الملك إدوارد الأول (الذي حكم بين سنتي 1272 و1307) أول ملك أنجليزي تحدث بها. ورغم ذلك، ظلت الفرنسية حتى مطلع القرن الخامس عشر لغة الإدارة، ولغة التخاطب في أوساط الأسر النبيلة والأرستقراطية، حتى أن بعض هذه الأسر كانت تبعث أبناءها إلى نورماندي ليتعلموا اللغة الفرنسية.

أما في ألمانيا، فظل المشهد اللغوي متجزئا كتجزئة البلاد التي كانت تتكون من عدة وحدات أهمها ألمانيا السفلى وألمانيا الوسطى وألمانيا العليا.

وعلى غرار ألمانيا، كان المشهد اللغوي في شبه جزية أيبيريا غير واضح المعالم بالنظر إلى الوضع السياسي المضطرب. ولكن بعد حروب الاسترداد، وبداية تراجع لغة المستعربين، بدأت اللغة القشتالية تفرض نفسها على حساب االلغة الليونية، وكذلك على حساب اللغات الغاليسية والقطلانية والبرتغالية.

وفي ايطاليا كان المشهد أكثر ضبابية وتعقيدا قبل القرن الثالث عشر. وهذا ربما ما يفسر احتراز علماء اللغة واللسانيات من الحديث عن لغة ايطالية خلال هذه الفترة. وقد وضع دانتي اليغيري حوالي سنة 1303 مؤلفا باللغة اللاتينية يعرف ب"البلاغة العامية" (De vulgari eloquentia) وزع فيه اللغات المتداولة في ايطاليا إلى ثلاث عشرة مجموعة. واقترح فيه استعمال لهجة مركبة من جميع اللهجات.

ومن نافلة القول أن التجزئة اللغوية في ايطاليا كانت انعكاسا للتجزئة السياسية. ورغم ان ايطاليا بدأت تعانق الوحدة السياسية مع مطلع القرن التاسع عشر، فإن الوحدة الثقافية لا زالت لم تكتمل فيها لحد الآن.

ويكاد المشهد اللغوي المتحدث عنه في هذه المجالات الجغرافية ينسحب على مجموع أقاليم أوربا. فقد سادت فيها زدواجية لغوية تمثلت في اللاتينية واللغات المحلية. وكان لهذه الأخيرة ثقل، ولذلك اضطرت النخبة الاجتماعية والطبقة السياسية إلى تعلمها والتعامل بها أيضا.

ومن المؤكد أن رجالات السياسة في العصر الوسيط، كانوا واعين بأن التعدد اللغوي كان يعيق عمليات التواصل في أوربا، وخاصة في مجال المعاملات الاقتصادية، حيث بدت اللاتينية غير قادرة على استمرار ضمان وحدة المعاملات. وقد اجتهدوا في تدليل العقبات اللغوية بموازاة اجتهادهم في إرساء دعائم الدول المركزية.

ويبدو أن الأمر لم يكن سهلا، ولذلك ظلت المسألة اللغوية في أوربا أحد أهم العوائق التي اعترضت طريق الوحدة. ولازالت تمثل عائقا إلى يومنا هذا. وقد قدم العصر الوسيط درسا لهؤلاء الساسة مفاده أن تعددا لغويا محدودا يمكن أن يكون وظيفيا في أوربا الموحدة، بل يمكن أن يكون هذا التعدد أفضل من تبني لغة واحدة ليست نابعة من التقاليد الثقافية والسياسية. وكان من الممكن أن ينطبق هذا الأمر على اللغة الأنجليزية لو اختيرت كلغة لمجموع أوربا.

وبما أن اللغة هي الأداة التي كتبت بها المؤلفات الأدبية التي وضعت خلال القرن الثالث عشر، فقد كان لهذه المؤلفات دور كبير في ارتسام معالم مستقبل أوربا. لأن أوربا هي في نهاية المطاف عبارة عن باقة من الإبداعات والأجناس الأدبية التي دعمت وآزرت نجاح اللغات الوطنية.

5) إبداعات أدبية كبرى وأعمال خالدة

فرضت اللغة الفرنسية نفسها منذ نهاية القرن الحادي عشر حين كتبت بها القصائد التي تمجد بطولات الفرسان، ومن ضمنها أنشودة رولان. وقد كان تأثير الفرنسية واضحا حتى على المؤلفات التي وضعت باللغة الألمانية، أو التي ترجمت إلى الألمانية مثل قصص الحب، والروايات التي تتحدث عن خوارق الأبطال الأسطوريين كأرثور (Arthur) الأنجلو- سكسوني.

وأهم ما في الأمر، هو أن هذه المؤلفات ألهمت أجيالا لاحقة من الأدباء أبدعوا في تأليف جنس أدبي، لازالت له مكانة مرموقة في حقل الآداب، وهو الرواية بشقيها :

الرواية التاريخية، و رواية الحب التي تروي قصة حب فرد، أو قصة حب ثنائي تنتهي غالبا بوفاة بطليها أو بوفاة أحدهما.

وسجلت اللغة القشتالية بدورها حضورا ملفتا تجسد بشكل خاص في "ملحمة السيد" التي تتغنى ببطولات نبيل مسيحي مغامر جعل من المناطق الواقعة حوالي مدينة بلنسية، أول مملكة مسيحية في مجال إسلامي. وكان بطل هذه الملحمة "مغامر ينشط في مجال حدودي"، ويخدم الملوك المسيحيين والملوك المسلمين أيضا. ومن هنا أتاه لقب السيد (le Cid).

6) انتشار النثر

شهد القرن الثالث عشر حدثا بارزا في حقل الآداب كان له أبلغ الأثر في الحياة الثقافية في أوربا بأكملها. يتمثل هذا الحدث في نشأة النثر الأدبي.

ومن المعروف أن الأعمال التي كانت تتغنى ببطولات الفرسان كان يحكمها النظم والإيقاع، فحل محلها النثر الذي لا يحتكم لهذه القواعد ويعبر عن الحقيقة أكثر. ولذلك لجأ واضعو "شعر الغزل" (la poésie courtoise)، منذ القرن الثالث عشر، إلى الكتابة النثرية. وحدث أن قام خلال نفس الحقبة رجل السياسة، والأديب الإسلاندي سنوري ستورلزون (Snoori Sturluson) (المتوفى سنة 1241) بتحويل المجموع الذي يتضمن مجموعة قصائد قديمة العهد تحت إسم إيدا (Edda) إلى نص نثري.

وشهد القرن الثالث عشر أيضا تطور نصوص نثرية ذات صبغة تاريخية، رغم أن التاريخ لم يكن يندرج ضمن برامج التدريس خلال الفترة المذكورة، كما لم يكن موضوع مؤلفات خاصة. ولكن سلطة الماضي كانت تفرض نفسها كقيمة إيديولوجية، في انتظار أن يحتل التاريخ فيما بعد موقعا متميزا في حقل الآداب وفي الذاكرة الجماعية.

ولا بد من الاشارة إلى أن كتابات العصر الوسيط، التي يدرجها الباحثون اليوم ضمن خانة المؤلفات التاريخية، كانت تتمثل في كتب الإخباريات العامة، وكتب التراجم التي تعرض لسير القديسين والقديسات.

وتطورت بموازاة الإخباريات العامة، إخباريات يمكن نعتها بالخاصة، كانت تعرض لأخباروأحداث الموناستيرات،أوالأسقفيات. وظهرت إلى جانبها، منذ منتصف القرن الثاني عشر إخباريات تعرض لأحداث وأخبار الممالك التي كانت آخذة في التطور في اتجاه أن تصبح دولا مركزية. ومن ثم، فإن الماضي الذي كان يطغى عليه الطابع الميثولوجي سابقا، أضحى من بين الدعامات التي تستند عليها السلطة السياسية. فكان ذلك إيذانا بميلاد أوربا سياسية، أوربا الذاكرة والتاريخ.

ويبدو أن الإخباريات الخاصة بالممالك لقيت حظوة في أنجلترا. فقد انتشرت بها عدة مؤلفات من هذا الصنف. وذاع صيت بعضها مثل كتاب "أعمال (أو أفعال) ملوك أنجلترا" (Gesta regum Anglorum) للراهب البندكتي والأديب غليوم دي مالمسبوري (Guillaume de Malmesbury) (المتوفى سنة 1143)، وكتاب "تاريخ ملوك بريطانيا" (Historia regum Britanniae) للأسقف والإخباري جوفروا دي منموث (Geoffroy de Monmouth) (المتوفى سنة 1155).

حاول المؤلفان في كتابيهما الترويج لمنظور تاريخي يقوم على فكرة الاستمرارية بين الملوك السلتيين والأنجلو- سكسونيين والنورمان. ودعمت هذا النوع من التصانيف مؤلفات أخرى تمحورت حول شخص بروت (Brut) أول ملوك بريطانيا العظمى، الذي جعل الإخباريون، وعلى رأسهم جوفروا السالف الذكر، صورته تكاد تتطابق وصورة أرثور (Arthur) لتمرير فكرة مفادها أن مملكة أنجلترا ذات أصول طروادية.

والجدير بالذكر أن فكرة الأصول الطروادية وجدت من ينتصر لها في فرنسا منذ وقت مبكر حين قال البعض بالأصول الطروادية للفرنجة. ولقيت الفكرة رواجا كبيرا من قبل رهبان دير سان دوني في دعمهم للملوك المنحدرين من أسرة كابيت.

وحدث سنة 1274 أن انتهى الراهب بريما (Primat) من انجاز مؤلف ضخم حول تاريخ ملوك غالة أمر بوضعه الملك سان لويس. ولكن لم يقدر لهذا الملك أن يطلع عليه، فقدمه الراهب للملك فليب الثالث ابن الملك الراحل. وتكمن أهمية الحدث في كون هذا المؤلف يمثل أصل المؤلفات الإخبارية الكبرى التي أنجزت بعد هذا التاريخ.

ومما لا شك فيه، أن مسألة الأصول تفصح عن رغبة هؤلاء الإخباريين في الالتفاف حول أصل موحد في مقابل الإخباريين الإغريقيين القدامى، وعلى رأسهم ڤرجيل (Virgile) الذي جعل الرومانيين من الأبطال الذين نجوا من معركة طروادة ولجئوا في أوربا. ولذلك ظل الايطاليون يروجون لهذه الفكرة خلال العصر الوسيط.

رابعا : نجاح الإخوان الفقراء

لا بد من التذكير مجددا بأن القرن الثالث عشر، الذي كان قرن المدن والتجار والجامعات واللغات المحلية والمؤلفات الأدبية، شهد أيضا حدثا دينيا كانت له تبعات على المدى البعيد يتمثل في نشأة طوائف الفقراء التي كانت مؤلفة من طائفة الدعاة

(الوعاظ) الدومينيكان، وطائفة المتواضعين، أوالصغار (minorum) (mineurs)، من الفرانسيسكان.

لم يكن أعضاء هاته الطوائف نساكا يعيشون حياة العزلة الجماعية والتعبد في موناستيرات منعزلة، بل كانوا رجال دين منخرطين في تنظيمات، ويعيشون في المدن وسط عموم الناس. كانوا يقومون بالوعظ والإرشاد في سياق مسيحية متجددة كانت تقتضي "أقلمة" رجال الدين وعموم اللائكيين مع التحولات الكبرى التي كان يشهدها العالم المسيحي.

وتجدر الاشارة الى أن الكنيسة كانت تتخبط في مشاكل مستعصية في سياق هذه التحولات، من بينها عدم اكتمال الإصلاح الڭريڭوري الذي كان قد انطلق منذ مدة، وانتشار حركات الهرطقة، وظهور اختلالات بين الفئات الاجتماعية بفعل شيوع استعمال النقد، وتحول الغنى إلى قيمة، وعدم قدرة الثقافة الدينية المرتبطة بالعالم الريفي عن الإجابة على التساؤلات التي أصبح يطرحها المسيحيون في ضوء الواقع الجديد. ومن ثم، فان تأسيس هذه التنظيمات الدينية الجديدة أتى كجواب من قبل بعض رجال الدين، وبعض اللائكيين، على التساؤلات المطروحة.

وقد ارتأى مؤسسو هذه التنظيمات نعتها "بطوائف الفقراء" للسمو بالفقر الذي جعلوه شعارا لهم ونمطا لحياتهم. بل إن رواد وأتباع طائفة المتواضعين (مينوروم) التي أسسها فرانسيس الأسيزي (François d’Assise) ذهبوا بعيدا في هذا الاتجاه.

ومهما يكن من أمر، فقد لقيت هذه الطوائف قبولا حسنا في أوساط العامة، ولذلك تضاعفت أعدادها. فارتأى رجال الدين المجتمعين في المجمع الديني الثاني الذي احتضنته مدينة ليون سنة 1274 تقليص عددها إلى أربعة وهي : طائفة الدعاة، التي تعرف اختزالا بالدومينيكان، وطائفة "المينوروم" التي تعرف بالفرانسيسكان، وطائفة النساك (ordo Eremitarum ou Ermites) الذين تبنوا مبادئ سبق أن سطرها القديس أوغسطين، وطائفة الكرمليين (les Carmels ou Carmes) (نسبة إلى جبل الكرمل بفلسطين). وقامت البابوية بعد ذلك بفترة وجيزة بإضافة تنظيم خامس للقائمة وهو طائفة خدام مريم العذراء (Ordo Servorum Beatae Virginis Mariae) الذي أنشأه مجموعة من التجار الفلورنسيين الذين رغبوا في التكفير عن ذنوبهم، فانقطعوا عن مزاولة التجارة وشيدوا إقامة خارج أسوار المدينة تخليدا لروح مريم العذراء، اعتكفوا فيها على العبادة.

ويبدو أن هذه الطائفة لم تستقطب كثيرا من الأتباع. كما أن تأثيرها كان محدودا، بحيث انحصر في مناطق ايطاليا الشمالية. وهذا ما يفسر كون بعض الباحثين لم يدرجوها ضمن حديثهم عن تراتبات وتنظيمات الإخوان الفقراء.

وخلافا لهذا التنظيم الديني، اكتسبت كل من طائفة الدومينيكان وطائفة الفرانسيسكان شهرة كاسحة تعزى في جانب منها إلى شخصية مؤسسيهما سان دومينيك دو ڭوزمان (Saint Dominique de Guzmán) وفرنسيس الأسيزي (François d'Assise).

فقد ولد الأول في مقاطعة كلرويغا (Caleruega) بقشتالة حوالي سنة 1170 في أحضان أسرة ثرية. وأصبح كاهنا سنة 1196. وحدث أن سافر في مهمة إلى منطقة اللانڭدوك بجنوب غالة، فراعه النجاح الباهر الذي حققه الهراطقة في هذه الربوع، فقرر خوض الحرب ضدهم في عقر ديارهم، وبنفس أسلحتهم. فآثر العيش فقيرا. وهدر حياته للدعوة والوعظ في أوساط العامة من المسيحيين المقيمين بين قرقشونة (Carcassonne) وطلوشة (Toulouse). فالتف حوله ثلة من رجال الدين. وسرعان ما تكاثر أتباعهم. فأقر البابا إنوسنت الثالث (Innocent III) تنظيمه سنة 1215. وحمل سنتين بعد ذلك إسم "طائفة الدعاة". فتزايد أعداد "الإخوان" المنضوين في الطائفة. وشرع "المتفقهون" منهم في التنقل بين كبريات المدن مثل باريس وبلوني (Bologne) للدعوة والاستقطاب. وشاركهم سان دومينيك هذا الجهد الحثيث حتى وفاته في بلوني سنة 1221. وتم تكريمه بعد ذلك بأن لقب قديسا سنة 1234.

أما الثاني، فكان ابن تاجر أقمشة. حاول في مقتبل العمر الانخراط في سلك الفرسان. ثم عدل عن ذلك فجأة، وتخلى عن الدنيا وانبرى لخدمة المسيحية والسيد المسيح. وكون بمعية بعض رفقائه، من رجال الدين ومن اللائكيين، فريقا من الوعاظ المتجولين حصل على ترخيص مبدئي من البابا إنوسنت الثالث بعد جهد جهيد. ثم حصل التنظيم على موافقة نهائية من قبل البابا هنوريوس الثالث سنة 1223 بعد أن قام زعيمه بتعديل بعض البنود التي تتضمنها "ورقة عمل" التنظيم. وواصل "الإخوان" حركة الوعظ والإرشاد تحت اسم "طائفة الفرانسيسكان". وخلافا لطائفة الدومينيكان، التي كان أقطابها يتنقلون باستمرار بين كبريات المدن، ويقيمون ردحا من الزمن في بعضها، فإن زعماء طائفة الفرانسيسكان حبذوا التجوال في مجال محدود، ومزاولة نشاطهم في المدن الصغرى والمتوسطة.

وفي ضوء هذه المعطيات، يتضح أن أهم ما ميز هذه التنظيمات الدينية الجديدة هو كونها اتخذت من الحواضر مجالا لأنشطتها الدعوية، وان كان بعض أعضائها يقومونن، بين الفينة والأخرى، بالدعوة والإرشاد على طرقات الحجاج والتجار، وفي بعض المناطق النائية الوعرة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت مصادر عيشهم مختلفة تماما عن مصادر عيش الرهبان، لأنهم لم يكونوا يملكون ضياعا أو غلالا أو دخلا قارا، بل

كانوا يعيشون على الصدقات وعلى الأعطيات التي كانت أحيانا طائلة تسمح لهم بتشييد بعض الكنائس البسيطة.

وعموما، فقد كانوا يحرصون على جعل المسيح والكتاب المقدس في قلب اهتمامات رجال الدين واللائكيين على السواء. ومن المفيد التأكيد في هذا المقام بأن أتباع فرنسيس الأسيزي ذهبوا بعيدا في هذا الاتجاه، حيث أشاعوا في أوساط عامة الناس أن فرنسيس رأى في واضحة النهار، وهو في خلوة بجبل ألبرن (Alverne)، واحدا من السيرافين (ملاك طائر) على جسده آثار الجروح التي أصيب بها السيد المسيح وهو مربوط إلى الصليب. ولا غرو في ذلك، فقد اشتهر فرنسيس الأسيزي بتفانيه في حب الله. وله ابتهالات يعبر فيها عن هذا التفاني، لعل أبرزها ابتهال "Laudes Creaturarum".

والحقيقة، أن أتباع طائفتي الدومينيكان والفرانسيسكان، لم يألوا جهدا في وعظ عامة الناس، و"تفقيههم" في أمور دينهم ودنياهم من خلال التواصل المباشر والدائم. وعلى هذا المنوال، أفضى نشاطهم إلى ميلاد أوربا "الوعظ المنطوق" الذي مهد الطريق أمام الخطب الرنانة على المنابر والمنصات، والخطب الملتزمة "المناضلة".

والملاحظ أن هذه التنظيمات الدينية، التي قامت منذ البدء على التجوال والقرب من العامة، اضطرت مع مرور الزمن إلى تعديل مواقفها تحت ضغط البابوية التي نجحت في توجيه أنشطتها، فأخذت تقوم بمهام أخرى، من بينها "التفتيش" للكشف عن معتنقي الفكر الهرطقي. بل إن البابوية انتزعت هذه المهمة من محاكم التفتيش وأسندتها لطوائف الإخوان الفقراء. ولذلك انقسم الناس بين مساندين لهم ومعارضين. وبلغت هذه المعارضة أحيانا درجات من الحدة، تحولت فيها إلى كراهية واعتراض لسبيل بعض الدعاة كما حدث مثلا سنة 1252 حين انتهت مشادة بين "الداعية" الدومينيكاني بطرس الشهيد وبعض المعارضين باغتيال "الداعية". ويجسد هذا الحدث عمق الفجوة التي أحدثتها مسألة التفتيش بين الكنيسة وطوائف الفقراء من جهة وبين عموم المسيحيين من جهة أخرى.

وفضلا عن هذا الاصطدام مع عموم المسيحيين، فإن زعماء طوائف الفقراء وجدوا أنفسهم في أكثر من مرة في مواجهة مع بعض "العلماء" من رجال الدين حول مسألة الإرشاد والمعرفة الدينية وقضايا نظرية أخرى. وكانت الجامعات تشكل أحيانا ميدانا لبعض فصول تلك المواجهات، لأن عددا من الأساتذة الغير منضوين في تنظيمات دينية (les maîtres séculiers) كانوا ينتقدون هذه الطوائف، ويسائلون أقطابها حول دلالات مبدئي الفقر والتسول اللذين قامت على أساسهما، وحول جواز أو عدم جواز أن يعيش المرء على الصدقة وعلى ما يجود به عليه المحسنون، وحول

مدى سلامة مواقفهم من سبل تحصيل المعاش ومن العمل. وتكتسي التساؤلات بخصوص العمل أهمية قصوى في ضوء القيمة الكبرى التي أضحى يكتسيها في أوربا آنذاك.

ومما زاد من حدة المواجهات في الجامعات، وخاصة في جامعة باريس، هو أن عددا من "العلماء" المنتمين لتلك الطوائف استغلوا فرصة خوض الأساتذة الغير منتمين لتنظيمات دينية لإضراب مطول بين سنتي 1229 و1231، فانشأوا كراسي علمية لحسابهم. فلم يرق الأساتذة مثل هذا التصرف الذي رأوا فيه إجهاضا للإضراب. واستمر شد الحبل بين الجانبين لعدة سنوات حتى اضطرت البابوية للتدخل منتصرة للأساتذة "الفقراء" طبعا، مما أجج الصراع وزاد في أمده.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأحداث وغيرها تثري ملف الباحث في نشأة وتطور طوائف الفقراء التي تمثل محطة بالغة القيمة في تاريخ الفقر بأوربا؛ وهو تاريخ لا زالت لم تكتمل بعد جميع مراحله.

1) أوربا العمل الخيري

كانت طوائف الفقراء وراء شيوع العمل الخيري في أوربا. ومثل نشاطهم في هذا المجال لبنة نحو إنشاء ما يعرف بنظام الضمان الاجتماعي. وقد بدأ هذا النظام يأخذ مكانه تحت مسمى "أعمال البر والإحسان" التي تأخذ مرجعيتها من نص تتضمنه نسخة الإنجيل التي وضعها القديس ماثيو (Saint Matthieu) ورد فيه "أن ابن الإنسان سيقوم يوم القيامة بتقسيم الرجال إلى مجوعتين، واحدة على يمينه والأخرى على يساره. وسيقول للواقفين على يمينه بأنهم سيدخلون مملكة الله جزاء لأعمال البر والإحسان التي قاموا بها في حقه خلال حياته الدنيوية. لأنه كان جائعا فأطعموه، ولأنه كان ظمئا فرووا عطشه، ولأنه كان غريبا فآووه، ولأنه كان عريانا فكسوه، ولأنه كان مريضا فعادوه، ولأنه كان حبيسا فزاروه".

وانطلاقا من هذه المعطيات، يمكن القول بأن الإخوان الفقراء كانوا أكثر التنظيمات الدينية والفئات الاجتماعية نشاطا في مجال البر والإحسان، وكفالة المعوزين، وعيادة المرضى، والتكفل بأوضاعهم. وأقر أيضا في هذا السياق، بأن كثيرا من المراكز الصحية رأت النور في الحواضر بفضل جهود الإخوان الفقراء. ولذلك يحق القول، في نظره، بأن الفضل يعزى إليهم في ميلاد أوربا المستشفيات.

2) الطوائف "الثالثية" بين رجال الدين واللائكيين

كانت أنشطة الإخوان الفقراء متنوعة كما يتضح من خلال ما تقدم. ومن بين الأنشطة التي قاموا بها إشرافهم على إنشاء تنظيمات ضمت أعدادا من عامة الناس اللائكيين، أي مسيحيين غير منتمين لأية مؤسسة أو تنظيم دينيين. وقد كانت تلك التنظيمات بدورها عبارة عن طوائف عرفت باسم "الطوائف الثالثية" (les Tiers Ordres). وكان المبدأ يقضي بإمكانية انخراط جميع الناس، من مختلف الفئات، في تلك الطوائف. ولكن البحث يفيد بأن الأفراد الميسورين نسبيا هم الذين شكلوا أغلبية أعضائها. ويجب التذكير هنا بأن طوائف الفقراء كانت موزعة في حقيقة الأمر، تبعا لرغبات مؤسسيها التنظيمية، إلى ثلاث مجموعات هي : طائفة الرجال (رجال الدين "النظاميين")، وطائفة النساء (نساء الدين "النظاميات")، وطائفة المسيحيين والمسيحيات من سكان الحواضر الغير منتمين إلى تنظيمات دينية كما تمت الإشارة إلى ذلك سلفا.

ويسمح ما تقدم، بالقول بأن جميع الفئات الاجتماعية بدت وكأنها كانت مؤطرة في هذه التنظيمات، رغم أن طوائف الرجال هي التي كانت تعد أكثر الطوائف ثقلا. كما يسمح بالقول أيضا بأن انخراط اللائكيين بدورهم في إحدى تلك الطوائف، لم يفض إلى انقلاب موازين القوى لتنحو أوربا نحو اللائكية. وعليه، فإن القرن الثالث عشر يمثل لحظة فشل في بناء أوربا لائكية.

3) أوربا القوطية

يمثل القرن الثالث عشر لحظة كبرى بالنسبة للفن الذي انتعش كثيرا، وخاصة فن المعمار الذي ساهم في التحام جميع مناطق أوربا خلافا للآداب لأنها كانت تكتب بلغات محلية. كانت لغة الآداب متنوعة، بينما كانت لغة الفن واحدة. فقد انتشر الفن الروماني القديم في معظم مناطق أوربا، رغم بعض الخصوصيات التي اتخذها هنا وهناك. كما حمل تسمية واحدة هي "الفن الروماني" (l'art romain). وكذلك ظهر الفن القوطي في شمال غالة. وتبلور ثم غمر معظم مناطق أوربا المسيحية خلال القرن الثالث عشر.

كان هذا الفن مختلفا عن الفن الروماني. وكان فنا مواكبا للنمو الديموغرافي الهائل الذي شهدته أوربا منذ مطلع القرن الحادي عشر، والذي أصبح يقتضي بناء مؤسسات دينية فسيحة. وجاء الفن القوطي منسجما مع الكنائس الكبرى الفسيحة. كما كان يعكس ذوقا مختلفا عما كان عليه الأمر فيما مضى. وبمقتضاه تغيرت اتجاهات الأضواء والألوان التي أصبحت تنساب بشكل عمودي، لأنه فن حضري تجسد إبداع "مهندسيه" في الكاتدرائيات. ولذلك نعت جورج دوبي فترة سيادة الفن القوطي بكونها

"فترة الكاتدرائيات"[1]. وقد كان محقا فيما ذهب إليه، لأن الفن القوطي تجسد فعلا خلال هذه الفترة في كاتدرائيات بناياتها فسيحة، ضخمة وشاهقة مثل كاتدرائية "سيدتنا" (Notre Dame) بباريس، وكاتدرائية مدينة أميان (Amiens) التي استغرق تشييدها فترة طويلة امتدت بين سنتي 1220 و1270. أي أن بناءها استغرق كل فترة حكم سان لويس. وقد انتهى البناءون من تشييد المكان المخصص "للجوقة" رجال الدين (le chœur) بهذه الكاتدرائية سنة 1256. وقدر للملك سان لويس أن يقف بذات المكان ويلقي منه "تصريح أميان" الشهير الذي تم بمقتضاه فض النزاع الدائر بين ملك أنجلترا هنري الثالث وبعض بارونات مملكته الثائرين.

وقد شيدت هذه الكاتدرائية على بقعة مساحتها حوالي 000 200 متر مربع. وبلغ طولها 145 مترا، بينما بلغ ارتفاعها 42 مترا ونصف المتر. وإن أقصى ارتفاع بلغته كاتدرائيات القرن الثالث عشر تجسد في كاتدرائية مدينة بوڤي (Beauvais)، التي تم الانتهاء من تشييدها سنة 1272. وبلغ علوها 47 مترا. وقد انهارت سنة 1284.

اكتنف عملية انسياب الأضواء بعد روحي. وإن هذا البعد هو الذي كان وراء اختيار وضع نوافذ الكاتدرائيات القوطية في الجزء الأعلى من الجدران. وكان وراء هذا الاقتراح رجل الدولة وراهب كنيسة سان دوني سوجر (Suger). وهو الذي أشرف شخصيا، وفق هذا المنظور اللاهوتي- الجمالي، على عملية تشييد كنيسة الدير. وخلافا أيضا لزجاج نوافذ الكنائس المشيدة وفق المعمار الروماني الذي كان زجاجا أبيضا، وأحيانا ذي لون رمادي، فإن زجاج نوافذ الكاتدرائيات القوطية كان متعدد الألوان. وأتى هذا التعدد انعكاسا لتطور الثقافة، وتوفر النباتات التي تدخل في صناعة الصباغة، وتقدم تقنيات الصباغة. وصاحبت الزجاج المتعدد الألوان، نحوتات متعددة الألوان على الجدران وعلى الواجهات التي شكلت فضاء أبان فيه النحاتون عن إبداع قل نظيره. وقد جمعت تلك النحوت بين النقوش والزخارف والمجسمات.

تجلى الزجاج المتعدد الألوان في كاتدرائية مدينة شارتر التي وضعت بها نوافذ كثيرة من الزجاج المختلف الألوان، وإن غلب عليها اللون الأزرق. وقد تم تقليد هذه الكاتدرائية، وغيرها من كاتدرائيات فرنسا، في سائر أنحاء أوربا. ولعل أجمل الكاتدرائيات التي حاكت كاتدرائيات فرنسا تلك التي شيدت في اسبانيا بكل من مدينتي برغس وطليطلة. أما في أنجلترا، فاتخذ المعمار القوطي صبغة خاصة نسبيا. وانتشر

---

[1] - أنظر كتابه :
Le temps des cathédrales. L’art et la société (980-1420), Paris, Gallimard, 1976.

في ربوعها انطلاقا من منطقة نورمانديا، وبلغ الذروة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر من خلال بعض المنشآت التي تجسد فيها ما يعرف "بالمعمار القوطي البراق". أما في ايطاليا، فلم ينتشر المعمار القوطي إلا في مناطق محدودة كانت خاضعة لتأثير تنظيمات الفقراء المنضوين في طائفة فرنسيس الأسيزي. فبدا وكأنه حوصر من قبل الفن الروماني الذي ظل قوي الحضور، وفن عصر النهضة الذي لاحت مقدماته في الأفق. وفي جرمانيا كان الأمر كذلك، حيث انتشر في المجالات الهنسية نوع من المعمار القوطي تمثل في بعض الكنائس، ذات الردهات الفسيحة، شيدها مجموعة من التجار.

يظهر بأن علاقة الأوربيين بالفن القوطي لا زالت لم تنته بعد. ويؤكد صدق ما أذهب إليه درس افتتاحي ألقاه رولان ريخت (Roland Recht) بالكوليج دو فرانس ورد فيه، أن نظرة إلى المنشآت الحديثة تفيد باستمرارية الفن القوطي، إذ أن المهندسين المحدثين استلهموا الكثير من المنجزات التي تحققت بين سنتي 1140 و1350. فقاموا بمحاكاتها وإثرائها، لأن المعمار القوطي بلغ القمة. وزادته روعة واكتمالا الألوان الزاهية التي طليت بها الجدران والرسومات والأشكال المنحوتة التي زينت الواجهات. ولذلك يحق القول بأن المعمار القوطي أثرى بشكل فريد أوربا الأشكال والصور.

4) أوربا أدب المجاملات

تميز القرن الثالث عشربكونه شكل الحيز الزمني الذي تأكدت فيه "أوربا السلوكات والطبائع الجميلة" التي يدرجها المؤرخون وعلماء الاجتماع المحدثون والمعاصرون ضمن ما ينعتونه بمظاهر الحضارة. وقد كان مسيحيو الفترة المذكورة ينعتون هذه المظاهر"بالمجاملة" (la courtoisie). وبعد مضي فترة من الزمن شاعت في الأوساط الحضرية كلمات مثل التحضر، والتمدن، وأدب المعاملة للدلالة على تلك الأحاسيس والسلوكات والطبائع التي شاعت في القرن الثالث عشر.

وقد قدر لهذه المظاهر أن تحظى سنة 1939 بعناية عالم الاجتماع الألماني نوربرت إلياس (Norbert Elias) الذي خصها ببحث مستفيض تحت عنوان "حضارة الطبائع" أوضح فيه بأن الأحاسيس والسلوكات التي تندرج تحت اسم المجاملة ذات أصلين اجتماعيين : القصور والمدن. وبناء عليه، فهي تمثل حصيلة انصهار سلوكات النبلاء وسلوكات أفراد البورجوازية التي شكلت موضوع مؤلفات كثيرة تم انجاز بعضها باللاتينية، وبعضها الآخر باللغات المحلية. منها ما كتب نثرا ومنها ما صيغ نظما. ومن بينها ما اتخذ طابع المؤلفات التربوية، من قبيل مؤلف

الأديب والمربي الايطالي بيونفشينو (Bonvesin) ou (Buonvicino) الذي استعرض في مؤلفه كثيرا من مظاهر أدب السلوك، مثل آداب الجلوس إلى المائدة، وكيفية تناول الطعام، وكيفية التعامل بين الناس، وطرق تعامل الرجل مع المرأة، وكيفية تلطيف التعامل، والتخفيف من حدة الطبع. ومن جملة ما أورده في هذا المؤلف قوله : "لا يجب أبدا الشرب (أو الاحتساء) من القدر مباشرة. بل يجب استعمال ملعقة للقيام بذلك، فهذا أفضل". وقوله : "إن من ينحني على القدر وهو متسخ، يسيل لعابه، كأنه خنزير. فمن الأفضل له أن ينضم إلى الحيوانات والبهائم".

ورغم هذه التوصيات، فيبدو أن الإقبال على استعمال بعض أدوات الأكل كان على مضض. فالشوكة، مثلا، انتقلت من بيزنطة إلى ايطاليا في وقت مبكر، ورغم ذلك لم يقبل أفراد المجتمع على استعمالها إلا منذ مطلع القرن الرابع عشر.

ولا شك، أن جميع ما كتب في هذا المضمار شكل تراكما استفاد منه ايراسموس (Erasme) في تحرير مؤلفه الشهير"في كياسة طبائع الأطفال" (De civilitate morum puerilium)، الذي وضعه باللغة اللاتينية سنة 1530، وتمت ترجمته بعد ذلك إلى اللغات المحلية.

وتأسيسا على ما تقدم يمكن القول بأن القرن الثالث عشر شكل الحيز الذي ولدت فيه أوربا "آداب الطبائع و قواعد العيش الجيد".

5) الارتقاء المبهم للعمل

أعتقد بأن الذهنيات ومنظومة القيم، شهدت تحولا خلال القرن الثالث عشر فيما يتعلق بالموقف من العمل. وتتجلى أهمية هذه التحولات إذا علمنا بأن ذات الموقف لا زالت له امتدادات في أوربا المعاصرة.

لقد اكتسى الموقف من العمل في العصر الوسيط الأعلى طابعا مبهما، وخاصة في أوساط رجال الدين المنتمين للمؤسسات الديرية؛ حيث إن قواعد القديس بينوا (Saint Benoît) التي كانت تنظم أنشطتهم كانت تقتضي أن يزاولوا نشاطا مزدوجا يتمثل في استنساخ المخطوطات وعمارة الأرض للحصول على ما يسد حاجياتهم. وكان الخضوع لهذا الإلزام بمثابة تكفير عن الذنب، مصداقا لما ورد في كتاب "أصل الخليقة" الذي ينص على أن الله عاقب آدم وحواء على ارتكابهما للخطيئة بأن حكم عليهما بمزاولة العمل.

كان عمل رجال الأديرة اذن سبيلا للتكفير عن الذنب، كما كان أيضا نوعا من المقابل يقدم لشراء المغفرة. وساهم هذا الأمر في حد ذاته في تثمين العمل، ولذلك

اكتسب قيمة في الأوساط الاجتماعية، خاصة وأن الرهبان كانوا يحظون بمكانة مرموقة.

وتسارعت وتيرة تثمين العمل بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر. وساهمت في ذلك عدة معطيات، من بينها التقدم التقني الذي واكب النشاط الزراعي في الأرياف، وتطور العمل الحرفي في الحواضر والبحث عن الغنى والرقي الاجتماعي اللذان لم يكن من الممكن تحقيقهما إلا عن طريق العمل.

ويجب التذكير في هذا المضمار بما قيل عن التجار وعن الأساتذة الجامعيين الذين أضحت أنشطتهم مشروعة، وأصبحت لهم حظوة، بفعل العمل. وبالمقابل تعرض الإخوان الفقراء لانتقادات لاذعة نظرا لموقفهم السلبي من العمل.

ويبدو أن جميع الفئات الاجتماعية التي كانت تتباهى بتفوقها، من دون أن تسند ذلك التفوق إلى عمل معين، كفئة النساك العباد وفئة الفرسان وفئة النبلاء، وجدت نفسها تفقد الكثير من الهيبة بفعل المكانة المرموقة التي أخذ يكتسبها العمل في الأوساط الاجتماعية وفي أذهان الناس. والملاحظ أن النشاط الحربي، الذي كان فيما مضى من الأولويات، أضحى في أعين الناس مجرد عمل نافع تقوم به فئة معينة من أجل حماية الضعفاء. وفي هذا السياق بالذات ظهرت القولة المأثورة : "العمل أفضل من الشجاعة".

ولكن رغم كل ما تحقق، ظلت صورة العمل تشوبها نقائص كثيرة. منها مثلا أن قاموس المصطلحات المتداولة لم يكن يتضمن مصطلح "العمل". وإن كلمة "labor" المتداولة كانت تعني "الجهد" في المقام الأول. ومنها تم اشتقاق الكلمة الفرنسية "laboureur"، التي تطلق على الحراث (القائم بعملية الحرث). كما أن كلمة "opera" (أوبرا) كانت تعني الناتج الحاصل عن العمل (le produit du travail) الذي يمكن التعبير عنه أيضا في اللغة الفرنسية بكلمة "œuvre"، ومنها كلمة "ouvrier". وفضلا عن كل هذا وذاك، ظل هناك تمييز، بل تناقض، بين العمل اليدوي، الذي ظل ممقوتا، وأشكال العمل الأخرى، التي كانت تحظى بالقبول والاحترام. وهذا ما عبر عنه أحد الشعراء بفخر واعتزاز قائلا :" لست عاملا باليدين".

وفي ضوء ما تقدم، سيتخلص بأن المعطيات السابق ذكرها كانت وراء ميلاد مفهوم العمل الذي ظل مبهما ومحاصرا بين الكرامة ونقيضها. ومما لاشك فيه أن الكنيسة، وبمعيتها الأغنياء والأقوياء، ساهموا جميعا في تمجيد العمل لكي يظل العمال عبيدا تحت رحمة مشغليهم. وهذا ما يفسر استمرارية النقاش إلى اليوم حول مفهوم

العمل. وإن التحولات الكبرى التي يشهدها سوق الشغل تمثل منعطفا مهما في أقطار أوربا، وفي باقي الأقطار التي تنعت بكونها متقدمة.

6) أوربا والمغول والشرق

شهد القرن الثالث عشر تطورا حاسما ذا صلة وثيقة بتكوين أوربا. ولا بأس من التذكير، قبل الحديث عن طبيعة هذا التطور، وعن الأسباب الكامنة وراءه، بأن هوية أوربا تشكلت دوما خلال فترات مواجهة الأعداء أو "الآخرين". وأعني بالأعداء والآخرين الفرس في العصر القديم، ثم الشعوب المتبربرة، والوثنيين، والمسلمين أخيرا. وأتى المغول في القرن الثالث عشر ليضيفوا بدورهم لمسة أخرى في عملية التكوين وهي في طور الأجرأة.

تمثلت هذه اللمسة في الغزو الذي قاموا به سنة 1241، والذي قادهم إلى بعض مناطق الغرب حتى مشارف سيليزيا (la Silésie). ثم انكمش بعد ذلك وأصبح منحصرا في مناطق الشرق. وغني عن البيان، أن هذا الغزو أثار الفزع والرعب في أوساط المسيحيين وأثر في أذهانهم. ولذلك قرر ملك فرنسا سان لويس تقديم روحه قربانا لحسم هذا الوضع، وآثر أن يموت شهيدا. ولم يتوان فعلا، وهو يخوض حملة صليبية في المشرق، عن القيام بكل ما من شأنه احتواء خطر هؤلاء المغول، لأنهم يمكن أن يكونوا أعداء شرسين، كما يمكن أن يكونوا حلفاء في حربه ضد المسلمين.

وحدث أن ساهم الخوف من المغول في إذكاء تطور المواقف الذهنية التي كانت آخذة أصلا في التطور، كما ساهم في التخلي عن الحملات الصليبية. ذلك أن اهتمام المسيحيين المتزايد بأراضيهم وبممتلكاتهم وبقضايا الغرب الأوربي، حد من وتيرة الاهتمام بالحملات الصليبية. وأفضى الخوف من الغزو المغولي الى توحيد الاتجاه لدى جميع الفعاليات بعدم جدوى مواصلة الاهتمام بالأرض المقدسة.

وظهرت في سياق هذه الأحداث حدود في المناطق الشرقية من المجال الأوربي. وقد ارتسمت هذه الحدود في سياق عملية وضع الحدود التي كانت تتجسد آنذاك في مجالات ترابية وليس في خطوط ثابتة من وضع الدول كما سيحدث لاحقا. ويبدو أن هنغاريا، وبعدها بولندا، كانتا من بين أولى كيانات العالم المسيحي التي تبنت هذا التصور الجديد للحدود، لأن القائمين على الأمر فيهما كانوا يرون بأن كيانيهما يعتبران بمثابة ثغرين في مواجهة المتبربرين الوثنيين ممثلين في المغول في المقام الأول.

ويبدو أن أول تعبير جسدته الوضعية الجديدة، والتصورات الجديدة للحدود، تمثل في رسالة بعث بها ملك هنغاريا بيلا الرابع (Bella IV) للبابا اينوسنت الرابع،

أحاطه فيها علما بأن "التاتار"، أي المغول، يستعدون بشكل حثيث للهجوم في أقرب وقت على جميع مناطق أوربا. وأضاف قائلا في ذات الرسالة : "وقد يحدث لا قدر الله أن تسقط في حوزتهم إمبراطورية القسطنطينية، والمناطق المسيحية الواقعة فيما وراء البحار. وستكون الخسارة كبيرة بالنسبة "لسكان أوربا" إذا ما احتل التاتار مملكتنا ".

وشكل المجمع الديني الذي انعقد بمدينة ليون سنة 1274 مناسبة أخرى أكد فيها أسقف موراڤيا أن الحروب الصليبية تصرف نظر المسيحيين عن الاهتمام بالحدود الحقيقية للعالم المسيحي على نهر الدانوب الذي يقبع بالقرب منه الوثنيون. ومما لاشك فيه أن هذا التصور الجديد السياسي- الجغرافي لأوربا كان عبارة عن تصور جديد ترابي لأوربا. وإن الذين كانوا يتبنونه لم يكونوا يأخذون بعين الاعتبار مناطق الكاربات أو جبال الأورال كحدود لأوربا.

ولاشك أن الأمر يتعلق بأوربا "جديدة" أتت كمحصلة للازدهار الكبير الذي شهده العالم المسيحي منذ منصف القرن الحادي عشر حتى أواسط القرن الثالث عشر. ورغم صعوبة ضبط تواريخ بداية ونهاية التحولات الكبرى في التاريخ، أعتقد بأن الحيز الزمني الممتد بين أواسط القرن الثاني عشر وأواسط القرن الموالي، شهد تحولا عميقا شمل مجموعة كبيرة من القيم الأساسية التي كان يتبناها المجتمع المسيحي في أوربا. ولا شك، أن الأمر يتعلق بمنعطف حاسم حدث نتيجة وعي انتشر في أوساط فئات عريضة من الرجال ومن النساء الذين عايشوا ذلك الازدهار الذي حدث هنا وهناك بأشكال مختلفة وفي فترات متفاوتة نسبيا. وقد شمل هذا الازدهار، كما هو معروف، جميع المجالات التي تهم حياة الناس الاقتصادية والتقنية والاجتماعية والفكرية والفنية والدينية والسياسية. وبما أن القيم التي كان يتبناها أفراد المجتمع، كانت ذات صلة وثيقة بجميع هذه المجالات،كما كانت تتفاعل فيما بينها بشكل معقد، فإن أي مجال من المجالات السالف ذكرها كان يقوم بدور في تسريع الوتيرة (أو الإيقاع) خلال مجريات ذلك المنعطف. ومن ثم، فإن النمو المطرد لحركة التمدين، هو الذي قام بدور تسريع الوتيرة. وأحيانا أخرى كانت الثورة الزراعية وراء هذا الدور، وأحيانا أخرى كان النمو الديموغرافي. وفي أحايين أخرى كان ظهور المناهج المدرسية، وطوائف الفقراء، أو ظهور الدول المركزية، أو التحولات في أوساط طبقة الفلاحين، أو ظهور فئات اجتماعية مدينية جديدة كفئة البورجوازية.

7) نزول القيم من السماء على الأرض

أرى بأن الفترة الممتدة بين أواسط القرن الثاني عشر وأواسط القرن الموالي، التي استشاط فيها الوعي بالإقلاع الكبير الذي تحقق في أوربا، والتي شهدت أيضا

تحولا في منظومة القيم، تمثل فترة نزول القيم من السماء على الأرض. وأعتقد فعلا بأن الإقلاع الكبير فرض تحديا على منظومة القيم التقليدية الموروثة عن العصر الوسيط الأعلى. ومن بين جميع الحلول الفكرية المتاحة التي كان من الممكن اللجوء إليها لرفع ذلك التحدي، فإن المسيحية اللاتينية ارتأت اختيار العودة إلى العالم الأرضي (الواقعي) في حدود ما يتطابق مع ما تقره العقيدة المسيحية طبعا. وتجلت أولى علامات تحول منظومة القيم في كون المستجدات التي كانت تحدث في سياق ذلك الإقلاع كان يتم لفها في ثوب التقليد الموروث عن العصر القديم الوثني والمسيحي. ويمكن التذكير في هذا الشأن بالعبارة اللغز التي فاه بها مرة الأسقف بيرنار دو شارتر (Bernard de Chartres) : "نحن أقزام محمولة على أكتاف عمالقة".

وبناء عليه، فإن أول تحول شهدته القيم تمثل في التخلي عن الإدانة القديمة التي كان يتم اللجوء إليها عند ظهور كل جديد. وفي نفس السياق، يندرج موقف كاتب سيرة القديس دومينيك (Saint Dominique) الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث عشر. فقد أثنى كثيرا في تلك السيرة على "دومينيك الرجل الجديد" وعلى طائفة الدعاة "الجديدة" التي أنشأها.

ومما لا شك فيه، أن أفراد مجتمع العصر الوسيط الأعلى كانوا يعملون ويكابدون من أجل حياة أرضية (دنيوية)، أي من أجل ممارسة السلطة الدنيوية، ولكن القيم التي كانوا يحيون باسمها أو يتصارعون باسمها كانت قيما ما فوق طبيعية تلخصها جملة مصطلحات، من قبيل الله، مدينة الله، الجنة، الخلود، كراهية العالم، الردة. وتجسدت أيضا تلك القيم (الما فوق طبيعية) في نموذج أيوب الإنسان الذي لا وجود له أمام قدرة الله. وخلاصة القول هي أن السماء مثل الأفق الثقافي والإيديولوجي والوجودي بالنسبة لجميع الناس.

وقد ظل الناس مسيحيين منذ مطلع القرن الثالث عشر. كما ظلوا منشغلين، أشد الانشغال، بخلاصهم، ولكن الخلاص أصبح يتحقق منذ هذه الفترة عن طريق استثمار مزدوج على الأرض وفي السماء. فكان ذلك يعني انبثاق قيم أرضية (دنيوية) مشروعة ومفضية إلى الخلاص. ويمكن تشبيه الأمر بتحول عمل سلبي مفضي إلى الكفارة إلى عمل ذي قيمة ايجابية موهوب لله. وفي ضوء هذا التحول لم تعد عمليات الإبداع والاختراع، وكذلك الإسهامات في مجال التطور التقني والفكري، تعتبر خطايا. كما أن التمتع بجمال وخيرات الجنة في الحياة الأخرى، كان يبدأ التحضير له من الأرض. ويتطابق هذا التصور مع المبدإ القائل بأن الإنسان خلق في صورة مماثلة لله ليخلق على الأرض الظروف الايجابية المفضية للخلاص، وليس فقط الظروف

السلبية. ويمكن التأكيد في هذا الشأن بأن المسيح هو الذي أنقذ آدم وحواء من الجحيم. وبناء عليه، فإن التاريخ ليس دائما انحدارا نحو نهاية العالم، ولكنه أيضا صعود نحو الأعلى، نحو اكتمال العالم. وبالمثل، فإن التيار الذي أشاع في أوساط فئة قليلة من الناس الإحساس بنهاية العالم في حدود الألفية، ضخ في نفوس فئات عريضة منهم معنى ايجابيا لمفهوم التاريخ.

ومهما يكن من أمر، فقد ظهرت إلى جانب ما يمكن نعته "بالسلطات" الفكرية الأصيلة (les authentica)، التي كانت مصدر القيم، سلطات فكرية جديدة تمثلت في أساتذة الجامعات (les majistralia). أما في المجال الاقتصادي، فظهرت للوجود فكرة "النمو" (la croissance) التي ستحل بدلها منذ نهاية القرن السابع عشر فكرة التقدم (le progrès). وفي مجال التقنيات شاع استعمال الطاحونة، وتنوعت تطبيقاتها تبعا لأغراض مختلفة، وتم استبدال طريقة النسج العمودية بأخرى أفقية، وظهر نظام عمود الكامات (l'arbre à cames) الذي أصبح يستعمل في الطاحونات، و"المحركات"، فجعل دورتها ترددية بعد أن كانت متواصلة. وقد أفضت هذه التقنيات إلى ظهور قيمة جديدة هي الإنتاجية (la productivité). وفي المجال الزراعي، يبدو أن الله أرسل منة إلى عباده. فقد نزلت الوفرة من السماء على الأرض، حيث تم الشروع في استعمال نظام الدورات الثلاث بدل نظام الدورتين في المناطق التي تسمح فيها التربة والمناخ والنظام الزراعي بذلك، فانضاف سدس إلى مساحة الأراضي التي كانت مستثمرة مما ساعد على تنوع المنتوجات وفق الفصول. فظهرت تبعا لذلك قيم النمو والمردود. وغدا علم الفلاحة جديرا بأن يتم التأليف فيه، كما كان الأمر في المراحل المتأخرة من العصر القديم. فوضع الأنجليزي وولتير دو هنلي (Walter de Henley) حوالي سنة 1280 مؤلفه "Hosebonderie". ثم وضع الايطالي بيتروس دو كرسنتيوس (Petrus de Crescentius) بين سنتي 1304 و1306 مؤلفه "Ruralium commodorum opus" (فوائد العمل في الوسط الريفي) الذي أمر ملك فرنسا شارل الخامس بترجمته إلى الفرنسية في أواسط القرن الرابع عشر.

ورغم وجوب عدم المبالغة عند الحديث عن هذه التحولات، فأقر بأنها كانت مؤشرا على العودة إلى الأرض. فقد انتهى زمن كان فيه العار يلف بمصطلح الكسب ويعيق سعي المتعاملين لتحقيق الربح أو جني فوائد. وقد تغيرت المواقف من الربح والكسب المشروع تحت تأثير بعض الفعاليات، وأبرزها طوائف الإخوان الفقراء، الذين أصدروا ما يشبه مجموعة "فتاوى" ذات صلة بالحياة الاقتصادية، بعضها يهم التجارالذين رأوا بأنهم يمارسون نشاطا مشروعا ينتفع منه عدد كبير من الناس، طالما أنهم يضعون رهن إشارة هؤلاء الناس خيرات وهبها الله لهم.

وكان انتشار القيم الجديدة يتم في إطار لجوء متزايد للعقل وللحساب. وهذا بالذات ما يفيد به المصطلح اللاتيني المتداول "ratio" (نسبة). وقد تجلت العقلانية في طريقة استثمار الاستغلاليات الزراعية، وكذلك في عملية جمع المحاصيل التي كانت تجود بها. ولا شك أن العقلانية هي التي أملت على ملك أنجلترا وليام الفاتح (Guillaume le Conquérant) القيام بتلك العملية التي كانت سابقة في التاريخ وتمثلت في القيام بجرد كامل لمختلف الاستغلاليات الزراعية التي تقع في حوزة الأسرة المالكة، وجرد لمختلف منتوجاتها. وحصل ذلك الجرد سنة 1085. وتضمنه الكتاب الشهير باسم "Domesday Book".

ويمكن تأكيد صحة وجهة نظري القائلة بحدوث عملية تحويل (un transfert) من السماء إلى الأرض بالتذكير بالعملية التي قام بها قمط الفلاندر (la Flandre) سنة 1187. وتمثل امتدادا إلى حد ما لما قام به ملك أنجلترا، حيث أنجز هو الآخر جردا مدعما بالأرقام لمختلف مداخيله. وعلى غراره كان يقوم فليب أغسطس في فرنسا بنفس العملية بصورة منتظمة. ولا زالت الخزائن تحتفظ بنسخة جرد يغطي الفترة بين سنتي 1202 و1203. ورغم أن الحقيقة التي تفصح عنها مثل هذه العمليات حقيقة بسيطة في حد ذاتها، فإنها تسمح بالحديث عن ميلاد أوربا الميزانية. وكأن "هوس الحساب" أخذ يستبد بمجتمع غرب أوربا ابتداء من حوالي سنة 1200. فأصبح الناس يحصون كل شيء، حتى السنوات التي سيقضونها في المطهر. وهذا ما عبر عنه جاك شيفولو (Jacques Chiffoleau) بصيغة جميلة : "المحاسبة في العالم الآخر" (la comptabilité de l'au delà). فقد بدا فعلا وكأن رجال ونساء ما بعد القرن الثالث عشر، من منتمين للمؤسسات الدينية، ومن لائكيين، تجاوزوا حدودهم وتعدوا على مجال من مجالات الله تحذوهم الرغبة في التحكم أكثر في الزمن الذي يحيونه في يومهم. ومن هنا ظهرت في سائر أنحاء أوربا الساعة الميكانيكية. وحتى الجامعيون أنزلوا على كراسيهم العلمية جزءا من المعرفة التي كان الله وحده يقوم بتوزيعها. فمعرفة الله غدت بدورها معرفة إنسانية. فقد استعمل عالم اللاهوت والفيلسوف أبيلار مفهوم "الثيولوجيا" لأول مرة في مطلع القرن الثاني عشر. ووضح الأب شوني (le Père Chenu) كيف تحولت تلك "الثيولوجيا" إلى علم خلال القرن الثالث عشر. وفي نفس السياق، يندرج الحديث عن "البوركَتوريوم" (المطهر) الذي ابتدعته الكنيسة عند نهاية القرن الثاني عشر. فقد كان استحداثه نوعا من التعدي على حق الله على الأموات. لأن الكنيسة أرست من خلاله نظاما جديدا لتسليم أرواح الآدميين. إذ في المطهر كان يتم فرز (أو انتخاب) أرواح الأموات قبل تسليمهم لله.

ولا شك أن هذا الأمر، وغيره من الأمور، يفيد بأن المنظومة الفكرية والذهنية شهدت تطورا. وقد سمح تطورها للناس بالتحكم في أدوات المعرفة بصورة أفضل. وفي هذا السياق، لم يعد الكتاب تحفة فنية يقتنى للزينة كما كان الأمر سابقا، وإنما أصبح يقرأ لصقل المعرفة. وعلى غرار القراءة انتشرت الكتابة في أوساط التجار ورجال القانون. كما غدت أداة للتعليم في الدارس. وهكذا انتفى الطابع القدسي الذي كان يلف هذه الأداة، أو بالأحرى أضحت قوتها تفتعل على الأرض بعد أن كانت تفتعل في السماء. وغدا جسد الإنسان موضوع علاج وتطبيب بدل أن يكون شيئا يدفع إلى النفور. ويتضح ذلك، إذا علمنا بأن البابا بنديتو كايتاني (Benedetto Caetani) بونيفاس الثامن، أصدر سنة 1299 أمرا بمنع عملية تقطيع جثة الميت إلى أجزاء (le dépeçage). ولم تعد ظاهرة النهم تندرج ضمن الخطايا المرتبطة بالبذخ، بل ظاهرة مقبولة بالنظر للتطور الحاصل في مجال التغذية وفن الطبيخ. ويندرج، في هذا السياق بالذات، ظهور أول مصنف في فن الطبيخ أمر الأسقف ورجل الدولة الدانمركي أبسلون (Absalon) بوضعه حوالي سنة 1200. فكان ذلك إيذانا بميلاد أوربا الطبيخ والأكل. وعلى غرار النهم، كان الضحك ظاهرة غير محمودة وفق تعاليم بعض التنظيمات الديرية المتشددة، فغدا بعد القرن الثالث عشر من مظاهر نقاوة الروح، وصفاء السريرة، كما أخذ يقول بذلك أعضاء طائفة فرنسيس الأسيزي. وقد يفهم من هذه الإباحة، بأن الضحك يطيل العمر. ولذلك أخذ يسود شيئا فشيئا في أوساط الناس اتجاه نحو الرغبة في العيش لمدة أطول. فكأنهم لم يعودوا في عجلة من أمرهم. وهذا ما أكده أحد الباحثين الايطاليين حين أوضح بأن رجل الدين والعالم والفيلسوف روجي باكون (Roger Bacon) لم يكن يخفي رغبته في أن يعمر الإنسان طويلا على وجه الأرض.

وكما اشتهر باكون بالبحث في مجال الفلسفة والعلم، فقد اشتهر غيره بالبحث في مجالات أخرى كالبحث الخرائطي الذي ارتقى إلى مصاف العلوم وقطع مع الفكر الإيديولوجي الذي كان يلفه خلال العصر الوسيط الأعلى. فأضحت معرفة العالم تبعا لذلك قائمة على أسس علمية.

تجدر الإشارة في الأخير إلى أن القرنين الثاني عشر والثالث عشر شهدا تكون نموذجين من المثل الإنسانية (deux types d’idéal humain) التي كانت تهدف إلى تحقيق نجاح دنيوي في المقام الأول، وان كانت تروم أيضا الاستعداد للخلاص. يتمثل النموذج الأول في ظاهرة المجاملة التي غدت في القرن الثالث عشر تعني أدب السلوك والخلق الحميد، وتختزل الحضارة ككل. ويتمثل النموذج الثاني في السلوك المتزن القائم على الروية (la prud’homie). ويتضمن هذا النموذج معنى الحكمة،

والاعتدال. أي يفيد بنوع من التوافق بين الشجاعة والتواضع، بين الإقدام والعقل، أو النظرة الثاقبة. وغني عن البيان أن هذا المثل (un idéal) ذو مسحة لائكية بالدرجة الأولى.

وعلى العموم، فإن معاني النموذجين تجسدت بصورة جلية في شخصين تدور حولهما أحداث الكتاب الموسوم "أنشودة رولان". الشخص الأول هو الفارس رولان الذي يبدو في الكتاب رجلا باسلا، وفي نفس الوقت حكيما. والشخص الثاني هو ملك غالة لويس التاسع، الذي يبدو رجلا حكيما متزنا أكثر من كونه قديسا. ومعنى ذلك، أن الخلاص غدا يتحقق، ابتداء من القرن الثالث عشر، على الأرض كما في السماء.

ولكن يجب التنبيه بأن الحديث عن هذين النموذجين، لا يعني البتة، انتفاء المثل ذات الصبغة الجماعية من قبيل الانتماء "للعصبية"، أو الانتماء لطائفة معينة. ولكن الملاحظ أن فئة قليلة من رجال ونساء القرن الثالث عشر كانوا يجتهدون قدر الإمكان لإبراز ذواتهم. وكانت "باحة التطهير والفرز" (البوركْتوار) تستقبلهم عند نهاية حياتهم الدنيوية. والجدير بالذكر أن هذه "الباحة" كانت عالما أخرويا فرديا في الطريق نحو العالم الأخروي الجماعي الذي ينتظم بعد يوم القيامة. ولعل ظاهرة الفردانية المشار إليها هي التي تحدث عنها الباحث ميشال زانك (Michel Zink)[1] من خلال ملاحظته للاستعمال المتكرر لضمير المتكلم "أنا" (je) في كثير من المصنفات الأدبية. ومعنى ذلك أن الذاتية أخذت تحتل موقعا متميزا في أوربا القرن الثالث عشر.

[1] - أستاذ باحث فرنسي، ولد سنة 1945. وهو متخصص في فقه اللغة. حاضر في جامعتي تولوز والسوربون، وفي الكوليج دو فرانس. أصدر عددا من الدراسات والأبحاث تهم الأدب الفرنسي في العصر الوسيط. من بينها :

- Littérature française du Moyen Age, Paris, P.U.F., 1992.
- Les troubadours. Une histoire poétique, Paris, Perrin, 2013.

الفصل السادس

خريف العصر الوسيط
أم ربيع الأزمنة الجديدة

أستهل هذا الفصل بتنبيه القارئ الى أن عبارة "خريف العصر الوسيط" الواردة أعلاه، هي عنوان كتاب أصدره فليب ڤولف سنة 1980. ويعتبر في الأصل عنوان كتاب مشهور ألفه المؤرخ الهولندي يوهان هويزينكا (Johan Huizinga) سنة 1919. وعبارة "خريف العصر الوسيط" تتضمن توصيفا درج الباحثون في تاريخ

هذه الحقبة على إطلاقه على القرنين الرابع عشر والخامس عشر اللذين جرت العادة على اعتبارهما يمثلان نهاية العصر الوسيط. وخلالهما شهدت أوربا أزمة بعد الاستقرار والازدهار النسبيين اللذين عرفتهما في القرن الثالث عشر.

وقد اقترح الباحث كَي بوا (Guy Bois) مؤخرا إعادة النظر في هذا التوجه. وذهب إلى اعتبار ما حدث من مصاعب خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر مجرد أزمة عابرة شهدها النظام الفيودالي. وقد سعى إلى تبيان صحة وجهة نظره باختيار منطقة نورمانديا (la Normandie) كمجال جغرافي لبحثه[1]. وأرى من جانبي أن هذا الاختيار قلل نسبيا من قيمة وجهة نظرالباحث. وأعتقد على غرار كثير من الباحثين، بأن تلك المصاعب تفيد بأن الأمر يتعلق بأزمة بنيات، وبأزمة نمو عام للمجتمع الأوربي وظهور كارثي لمآسي جديدة. فرجال ونساء القرن الرابع عشر، الذين كانت تطغى على رؤاهم فكرة نهاية العالم وقيام القيامة، التي نزلت هي الأخرى من السماء على الأرض، لخصوا الكوارث التي واجهوها في صورة الفرسان الثلاثة أبطال يوم القيامة : المجاعة، والحرب، والوباء، مع العلم أن هذه الكوارث كانت معروفة خلال القرون السابقة، ولكن حدتها هي التي أذهلتهم أكثر.

1) المجاعة والحرب

يبدو أن المجاعة كانت ظاهرة مرعبة، لأن المؤرخين الذين اهتموا بدراسة المتغيرات المناخية، أمثال إيمانويل لو روا لادوري[2] وبيير الإسكندر (Pierre Alexandre)[3] خلصوا من خلال بعض المؤشرات إلى القول بأن مناخ أوربا شهد تحولا، وخاصة في المناطق الشمالية، ترتب عن انخفاض درجة الحرارة وزيادة في

---

[1] - يمثل هذا البحث في الأصل أطروحة جامعية أنجزها لنيل دكتوراه الدولة. وكان موضوعها :

Recherches sur l'économie rurale et la démographie en Normandie orientale du début du XIVe siècle au milieu du XVIe siècle.

ونشرها بباريس سنة 1976 تحت عنوان : Crise du féodalisme ضمن منشورات la Fondation Nationale des Sciences Politiques.

[2] - مؤرخ فرنسي شهير سبق أن أحلانا على أحد مؤلفاته في الهامش رقم 1، ص.86. أما دراسته حول المتغيرات المناخية، والتي يشير اليها لو كَوف دون الاحالة عليها، فصدرت بباريس سنة 1967، ضمن منشورات "فلاماريون" تحت عنوان :

Histoire du climat depuis l'an mil.

[3] - باحث بلجيكي متخصص في تاريخ أوربا الوسيط. ناقش بجامعة لييج اطروحة جامعية لنيل الدكتوراه في موضوع المتغيرات المناخية في العصر الوسيط. ونشرها سنة 1987 تحت عنوان :

Le climat en Europe au Moyen Age, contribution à l'histoire des variations climatiques de 1000 à 1420, d'après les sources narratives de l'Europe occidentale, Paris, les Editions de l'Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales.

التساقطات المطرية على شكل موجات متتالية. وقد أفضت البرودة والأمطار إلى حدوث مجاعة كبرى بين سنتي 1315 و1322.

وكانت الحرب في العصر الوسيط، كما هو معروف، ظاهرة تكاد تكون مزمنة، رغم أن الكنيسة، وبعض الملوك، اجتهدوا من أجل إقرار السلم وخلق الظروف الملائمة للعيش الكريم. كما بذل حكام الممالك الناشئة بدورهم جهودا للحد من الحروب الفيودالية التي كانت تستعر بين الأسر الأرستقراطية. وقد أدت جميع هذه المساعي إلى تراجع نسبي للعمليات الحربية.

ويتفق المؤرخون على أن الحرب عادت أدراجها خلال القرن الرابع عشر بشكل قوي. وإن ما شد انتباه المعاصرين لمختلف فصولها، هو كون الظاهرة الحربية اتخذت أشكالا مختلفة عما كان عليه الأمر من قبل. ذلك أن الدول المركزية، التي كانت آخذة في النمو شيئا فشيئا نجحت في الحد نسبيا من الحروب الفيودالية الخاصة، ولكنها دخلت فيما بينها في حروب ذات صبغة "وطنية". ومن أبرزها حرب المائة سنة بين فرنسا وأنجلترا التي أعادت للواجهة الصراع الذي كان محتدما بينهما خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

ولا شك أن ما أضفى شكلا جديدا على الحرب هو التطور التكنولوجي، الذي كان بطيئا، ولكنه كان خارقا. وتجسد في ظهور المدفع (le canon)، والبارود، بالإضافة إلى تطور تقنيات الحصار. وقد أدت هذه المستجدات إلى تراجع تدريجي لدور القصور المحصنة (les châteaux forts) لصالح نوعين من الإقامات (أو المنشآت) وهما القصور الأرستقراطية المخصصة للقامة والاستجمام، والقلاع الواقعة في ملكية الملوك أو الأمراء. وتميزت هاته المنشآت بقدرتها على الصمود أمام قصف المدافع.

ويظهر أن الحروب أصبحت مهنية أكثر. كما أن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية ساهمت بدورها في تزايد عدد المشردين، الذين كلما وجدت مجموعة منهم من يقودها، تحولت إلى فرقة مسلحة، أو تنظيم عسكري، يقوم بعمليات سلب ونهب أكثر حدة من العمليات التي كان يقوم بها المحاربون النظاميون. ففي ايطاليا، على سبيل المثال، كان "رؤساء" الحرب كثيري العدد وأقوياء إلى درجة أنهم كانوا "يمنحون" خدماتهم العسكرية للمدن وللحكام. وأحيانا كانوا يتحولون الى قادة سياسيين.

وفي هذا السياق المشحون بالصراع، لجأت بعض الدول، مثل فرنسا، إلى إنشاء فرق من المحاربين النظاميين كانوا يخوضون الحروب مقابل أجر. بينما استعانت المدن- الدول في ايطاليا بخدمات فرق المرتزقة الذين أضحوا أكثر تنظيما وأكثر

جاهزية. وكان السويسريون على رأس الأوربيين الذين اشتهروا بانتمائهم لفرق المرتزقة.

ومن المفيد التذكير بأن الباحث ويليام شيستر جوردان (William Chester Jordan) خص المجاعة الكبرى التي شهدتها أوربا في مطلع القرن الرابع عشر ببحث ممتا ز[1] أوضح فيه كيف أن الأوربيين الذين عاينوا تلك المجاعة عن كثب، ولم يذهبوا ضحيتها، اعتبروها فريدة من نوعها. كما نقل بعض شهاداتهم التي تسلط الضوء على الأسباب الطبيعية والبشرية و"الإلهية" التي كانت وراءها. فقد رأوا بأن المناخ، والتساقطات المطرية، والحرب، وغضب الله كانت وراء حدوثها. والظاهر أن عواقبها كانت جد وخيمة. فقد أدت إلى تراجع مهول لمحاصيل الحبوب، وأودت بحياة عدد كبير من الحيوانات والدواب. فارتفعت الأسعار التي زادت بدورها في مضاعفة عدد الفقراء والمعوزين. ولم ترتفع الأجور قط لمواكبة ارتفاع الأسعار. ويبدو أن ضعف أنظمة ومؤسسات الممالك الناشئة، وضعف إمكانيات تخزين المؤن، ونقص وسائل النقل، عوامل زادت من صعوبة الوضع وحدت أيضا من إمكانية التخفيف من النتائج المترتبة عن المجاعة. ولم تكن ثمة وسيلة بديلة للتخفيف من حدة معاناة الناس لأن أوربا التضامن، في الوسط الريفي، كانت لا زالت لم تنشأ بعد.

وكما خص ويليام شيستر جوردان المجاعة الكبرى ببحث ممتاز، خص الباحث فليب كونتمين (Philippe Contamine) بدوره الظاهرة الحربية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ببحث ممتاز[2] تطرق فيه إلى عدة جوانب من بينها تطور التأليف في علوم الحرب. وهكذا ظهرت، على غرار كتب الفلاحة التي تم الحديث عنها فيما مضى، كتب اهتمت بكل ما له صلة بالحرب وفنون القتال. وقد تم نقل بعض من تلك المؤلفات إلى اللغة اللاتينية من لغات أخرى أجنبية. كما أن نماذج منها تم نقلها إلى اللغات المحلية المتداولة. كما هو الشأن مثلا بالنسبة لكتاب ثيودور باليولوڭ (Théodore Paléologue)، أحد أبناء الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس الثاني (Andronic II)، الذي أمر فليب الجريء (Philippe le Hardi) دوق بورغونديا (la Bourgogne) بنقله إلى اللغة الفرنسية. وقام رجل الدين البندكتي هنوري بوڤي

---

[1] - مؤرخ أمريكي ولد سنة 1948. يحاضر منذ سنوات بجامعة برنستون (Princeton). أصدر مجموعة دراسات وأبحاث حول الحرب الصليبية، وحول نظم الحكم في أنجلترا وفرنسا العصر الوسيط. كما أنجز بحثا حول المجاعة الكبرى بعنوان :

The Great Famine: Northern Europe in the Early Fourteenth Century, Princeton, Princeton University Press, 1996.

[2] - يتعلق الأمر ببحثه الموسوم ب :

La guerre au Moyen Age, Paris, P.U.F., 1980.

(Honoré Bovet) بوضع مؤلف يتناول الجوانب القانونية والأخلاقية في الحرب. اختزله من كتاب أحد رجال القانون الايطاليين وأهداه لملك فرنسا شارل السادس. وعلى غراره وضعت الايطالية المدعوة كريستين دي بيزا (Christine de Pisan)، التي كانت تعيش في البلاط الفرنسي، مؤلفا حول الحرب والفروسية، أهدته للملك شارل السالف الذكر. ثم وضع الايطالي ماريانو دي جاكوبو طاكولا (Mariano di Jacopo Taccola) كتابا خصه للأدوات والآليات المستعملة في المعارك. وتناسلت المؤلفات بعد ذلك في مختلف أنحاء أوربا. وقام عدد من الباحثين المحدثين والمعاصرين بتحقيق معظم تلك المؤلفات وترجمتها ونشرها.

وانضم المختصون في البحث الأثري الى هذه الجهود. فقاموا بالكشف عن عدد من اللقى والمخلفات التي أثرت المصادر الخطية، من قبيل سلسلة حفر منتظمة في هيئة لوحة شطرنج تم الكشف عنها في البرتغال. يحتمل أن يكون الأنجليز قد قاموا بحفرها حوالي سنة 1358 لصد هجمات الفرسان القشتاليين. كذلك تم الكشف عن حفر مماثلة لها في جزيرة جوتلاند. وقد أفادت هذه الحفريات، ودراسات أخرى همت عددا من القصور والحصون، في التعرف على نماذج من التنظيمات الدفاعية التي كان يتم اللجوء إليها لصد الغرات. وبالإضافة إلى ذلك، تحتفظ مجموعة متاحف، في فرنسا وبلجيكا وايطاليا واسبانيا، بعدد من الأسلحة والأدوات التي كانت تستعمل في الوقائع. ويمكن أيضا من خلال معاينتها تكوين فكرة عن عالم الحروب في أوربا القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وقد توقف فليب كونتمين في مؤلفه عند نماذج كثيرة من الحملات والوقائع التي دارت رحاها في فرنسا وايطاليا واسبانيا وأنجلترا، كحرب المائة سنة، وحرب الوراثة المتصلة بها، وحرب الوردتين في أنجلترا، والحرب البحرية بين جنوة والبندقية، وغيرها من الوقائع التي دارت في أنحاء أوربا.

وقد سمحت دراسة الرسومات والأشكال والصور، فضلا عن اللقى الأثرية، بالقول بأن القرنين الرابع عشر والخامس عشر يمثلان فترة "ارتقاء" فصيل من الدواب، ونعني هنا الخيول المخصصة للقتال. وبالمثل، تميزت الفترة ذاتها بتراجع دور المشاة. وكان من الممكن أن يستمر دورهم في التراجع، لولا أن أعددا غفيرة من المقاتلين الجرمان والسويسريين انخرطوا في سلك المشاة كمرتزقة، ابتداء من منتصف القرن الخامس عشر، فأعادوا للمشاة بعض الهيبة.

ولعل أهم تحول سجلته الفترة المذكورة، هو ظهور المدفعية والبارود اللذين سبقت الإشارة إليهما. وقد انتقلا من الصين والعالم الإسلامي إلى أوربا عبر ايطاليا بين سنتي 1325 و1345. ولكن استعمالهما لم يفض إلى حدوث ثورة في مجال

تقنيات الحرب إلا في نطاق محدود، لأن فعاليتهما تجلت في تدمير الحصون والأسوار بشكل خاص. ومن ثم، فإن إقبال الممالك على استعمال وحدات من المدفعية كان من باب إظهار الهيبة وإفزاع الخصم، وليس من باب الفعالية. ورغم ذلك، تواصل الإقبال على استعمال المدفعية بعد منتصف القرن الخامس عشر، الأمر الذي يسمح بالحديث عن ميلاد أوربا القصف. وكان من جراء ذلك أن ارتفعت تكاليف الحروب لأنه أضحى لزاما على الملوك، وعلى حكام المدن- الدول، تخصيص مبالغ إضافية ضمن الميزانية العامة لاقتناء المدافع والبارود. فتطورت الصناعة المعدنية- العسكرية لتلبية الحاجيات. ونشأت عدة ورشات مختصة في هذا النوع من الصناعة في ايطاليا وفرنسا.

وتأكد الاتجاه نحو العسكرة في أوربا من خلال التحول العميق الذي طرا على الخدمة العسكرية. فقد اختفت الخدمة الفيودالية في أنجلترا في بحر القرن الرابع عشر. وحل محلها نظام المليشيات الوطنية، التي كان يتم تعزيز المنخرطين فيها ببعض المحاربين المتطوعين. أما في مملكة فرنسا، فتم اعتماد عقد الالتزام خلال نفس الفترة. وبعد مضي فترة قصيرة غدت كل كومينوطة (communauté)، وكل أبرشية، تقع ضمن دائرة نفوذ المملكة، ملزمة باستنفار عدد من الرماة وعدد من قاذفي الأسهم بواسطة "الأركوبالستا"، أي القوس المستعرض (l'arbalète)، عند كل نداء لخوض حرب من الحروب. أما في ايطاليا، التي صرف حكام المدن- الدول فيها أنظارهم عن الحرب، فكان يتم الاعتماد على المرتزقة بصورة خاصة. ورغم ذلك، ظل دور النبلاء حاسما في الحروب. فهم الذين كانوا يستنفرون العدد الأكبر من الفرسان. ومعنى ذلك أن أوربا النبلاء ظلت متشبثة بتقاليدها الحربية.

ومهما يكن من أمر، فإن الاتجاه الذي أضحى سائدا في أوربا هو أن القائمين على الأمر في كل كيان سياسي أصبحوا حريصين خلال القرن الخامس عشر على التوفر على قوات قارة دائمة. عكس ما كان يجري به العمل من قبل، حيث كان المحاربون يستنفرون عند كل وقعة. وغالبا ما كان ذلك يتم في فصل الربيع ولمدة محددة تنتهي بانتهاء الوقعة. بمعنى أن السنة الحربية في أوربا الفيودالية كانت تعتريها ثغرة. أما في أوربا الحديثة، فقد غدا النظام العسكري عبارة عن نسيج متصل. وحتى حكام المدن- الدول في ايطاليا اضطروا للانخراط بدورهم في هذا النظام نظرا لحاجتهم لمحاربين نظاميين. وهذا ما يوضحه بيان صدر عن مجلس شيوخ البندقية سنة 1421 ورد فيه : "تقضي سياستنا دوما بأن يكون رهن اشارتنا رجال ذوو قيمة أيام السلم، كما في أيام الحرب".

ولكن الملفت للانتباه هو أن اتجاه أوربا نحو إضفاء الطابع المؤسساتي على عنف المحاربين، لم ينس القائمين على الأمر فيها هاجس الجنوح نحو السلم الذي كان يجسد أحد المثل العليا بالنسبة للمجتمع وللكنيسة.

وهذا ما عبر عنه رجل الدين البندكتي هنوري بوڤي (Honoré Bovet) بنوع من الحرقة حين كتب في مؤلفه "شجرة الوقائع" (l'arbre des batailles)[1] : "إني أرى جميع أنحاء المسيحية المقدسة تئن تحت وطأة الحروب، والكراهية، والسلب والخلافات، إلى درجة أنه يصعب ذكر اسم بلد صغير واحد، أو دوقية واحدة، أو قمطية واحدة تنعم بالسلم". ويتجلى هاجس إقرار السلم أيضا فيما قام به جورج بوديبراد (Georges Podiebrad) ملك بوهيميا حين وضع سنة 1464 مشروعا لإقرار الأمن والسلم في ربوع أوربا، صاغه باللغة اللاتينية والتمس من جميع حكام الممالك الالتزام به. "وعبر فيه عن أمله في أن يستتب الأمن وينتهي العنف الذي أباد العباد وأفسد البلاد. وتغدو أوربا موطن الرأفة، والتكافل والأخوة عن طريق الاتحاد"[2].

ومما لا شك فيه أن الملك بوديبراد (الذي حكم في القرن الخامس عشر) منح للأوربيين أجمل مشروع، وأحسن مبرر من أجل قيام وحدة اعترضت سبيل تحقيقها صعوبات جمة طيلة ستة قرون بعد ذلك.

2) الطاعون الأسود

عرفت أوربا حدثا كارثيا بامتياز في أواسط القرن الرابع عشر تمثل في الطاعون الأسود. وقد نعت بهذا الاسم بالنظر إلى مضاعفاته التي اتخذت مظهرين : واحد تنفسي- رئوي، والثاني عضوي تجلى في عدة غدد كانت تظهر في أعلى الفخذ (عند التقاء أسفل البطن بالفخذ)، وتأخذ لونا أسود بفعل الدم المحتقن فيها. وكان لون هذا الدم يحدد لوحده طبيعة الداء الوباء.

والجدير بالذكر أن الطاعون ذي المضاعفات الرئوية سبق أن اجتاح مناطق الشرق والغرب منذ القرن السادس على عهد الإمبراطور جوستنيان. ثم اختفى من مناطق الغرب، ولكنه ظل يستوطن مناطق آسيا الوسطى، وربما أيضا في منطقة القرن الإفريقي. ويبدو أنه "استجمع قواه" وعاد ليبيد ساكنة أوربا سنتي 1347-1348.

---

[1] - وضع هنوري بوڤي هذا الكتاب بين سنتي 1382 و1387. وتمت ترجمته الى الفرنسية سنة 1493. ثم أعاد تحقيقه الباحث البلجيكي ارنست نيس (Ernest Nys) ونشره سنة 1883. كما تمت ترجمته الى الأنجليزية.

[2] - يعتبر عدد من الباحثين نص مشروع جورج بوديبراد أول وثيقة تتضمن أسس الوحدة الأوربية.

أصبح بالإمكان اليوم تحديد أصل الوباء وتاريخ بداية انتشاره. فقد حدث أن حاصر محاربون أسيويون حامية جنوية في كافا (Caffa) بشبه جزيرة القرم. وكان المهاجمون يلقون من على الأسوار جثث قتلى أودى بهم الطاعون. فانتقلت جرثومة الوباء عن طريق البراغيث والفئران، وربما عن طريق الاحتكاك بين الناس كما يعتقد ذلك اليوم بعض الباحثين المعاصرين، إلى أوربا على متن المراكب القادمة من كافا. وانتشر الوباء بسرعة بعد سنة 1348 في مختلف مناطق أوربا. وأضحى الطاعون الأسود ظاهرة كارثية تواصل تأثيرها في أوربا حتى حوالي سنة 1720، حيث حدث آخر طاعون في مرسيليا، قدم بدوره من الشرق.

ولا شك أن الطابع المرعب الذي ميز المرض هو الذي جعل الوباء يكتسي صبغة كارثية. فقد كان المصابون يلقون حتفهم بعد مرور وقت وجيز لا يتجاوز في أحسن الأحوال 36 ساعة. وفضلا عن ذلك، شاعت بين الناس حقيقة الانتقال السريع للعدوى مما ساهم في انتشار الرعب والفزع. والواقع أن الأوربيين ساد بينهم اعتقاد بأن مرض الجذري، مرض ينتقل من شخص لآخر، وهو ما اتضح في نهاية المطاف بأنه اعتقاد خاطئ، ولكنهم تقاسموا حقيقة لا يرقى اليها الشك، وهي أن الطاعون معد جدا

ومهما يكن من أمر، فقد رافقت الطاعون أعراض فيزيولوجية وظواهر اجتماعية مرعبة، حيث كانت تنتاب المصابين تشنجات عصبية قوية. ومما زاد الوضع استفحالا عجزالأسر والمؤسسات العمومية عن مجابهة الوضع الذي ترتبت عنه خسائر بشرية فادحة. لأن أفراد مجتمع أوربا كانوا يعيشون في إطار كومينوطات، وأبرشيات، وتنظيمات، وطوائف، وغيرها، مما سهل انتشار العدوى وسقوط عدد كبير من الضحايا، حتى أن عددا منهم لم يحضوا بالمراسيم الدينية الواجب القيام بها قبل عمليات الدفن. بل الأدهى من ذلك، أن عددا من الجثامين تمت مواراتها في مقابر جماعية. والحصيلة هي أن الخسائر المترتبة عن الطاعون الأسود كانت فادحة. ومن الصعب تحديد عدد الضحايا، لأن المصادر الخطية المعتمدة لا تتضمن معطيات رقمية تتيح هذه الإمكانية. ورغم أن نسبة الوفيات اختلفت بين منطقة وأخرى، فالأكيد أن الخسائر لم تنزل عن مستوى ثلث عدد السكان في أي مكان. ولا يختلف الباحثون في القول بأن أوربا فقدت ما يناهز النصف، أو الثلثين، من ساكنتها بسبب هذه الكارثة. وبناء عليه، فإن نسبة التراجع الديموغرافي بلغت في أنجلترا 70%، بحيث لم يعد سكانها يتجاوزون حوالي المليونين سنة 1400 بعد أن كانوا حوالي 7 ملايين. ولم تكن الساكنة تستطيع استرجاع أنفاسها لأن سلسلة طواعين كانت تأتي كل مرة، بصورة تكاد تكون منتظمة، لحصد عدد من الضحايا كما حدث بين

سنتي 1360 و1362، وبين سنتي 1366 و1369، وبين سنتي 1374 و1375، وسنة 1400، وسنة 1407، وبين سنتي 1414 و1417، وسنة 1424، وسنة 1427، وبين سنتي 1432 و1435، وبين سنتي 1438 و1439، وسنة 1445، ثم سنة 1464.

والجدير بالذكر أن الطواعين لم تكن وحدها وراء الوفيات، بل كانت تتظافر معها في معظم الحالات آفات أخرى من بينها الأمراض، كالدفتريا (الخناق)، والحصبة، والتيفويد، والحمى، والجذري، والسعال الديكي وغيرها من الأمراض. وكانت تنضاف أحيانا إلى الطاعون، الحروب والمجاعة. وكان مجرد ذكر هذا الثالوث يثير الرعب في نفوس الناس.

وقد وقف الأطباء الذين عاينوا الطاعون الأسود، وغيره من الآفات، مكتوفي الأيدي، حيث عجزوا عن إيجاد الأسباب الطبيعية المسببة لتلك الآفات، رغم قناعتهم بضرورة التصدي للعدوى. وكانت محاولاتهم في هذا الصدد ردا على وجهة النظر السائدة بأن تلك الآفات تعني غضب الله على خلقه.

ورغم عدم وجود معرفة طبية ملائمة، انتهى الأطباء إلى ملاحظات وخلاصات قيمة وفعالة من قبيل حظر التجمهر، وتحذير الأسر من التجمع حول الفرد المصاب منهم، ومنع الحضور الجماعي لمراسيم دفن من لقي حتفه، ومنع ارتداء ملابس المصاب بالداء من قبل شخص آخر. ورغم كل هذه الإجراءات، فيبدو أن الفرار بعيدا كان الحل الأمثل في أعين كثير من الناس. ولذلك كان يلجأعدد من الناس إلى البوادي. وتتضمن مقدمة كتاب "ديكاميرون" (Décaméron)، الذي وضعه جيوڤاني بوكاشيو (Giovanni Boccaccio)، فقرات تتحدث عن فرار أغنياء فلورنسا إلى البوادي المجاورة للاحتماء بقصورهم. وغني عن البيان أن هذا النوع من التصدي للوباء لم يكن متاحا سوى للنخب. ولذلك، زاد الطاعون من مصاعب وبؤس المعوزين. كما زاد من حدة الصراع الاجتماعي. فعد واحدا من بين الأسباب التي أذكت العنف الاجتماعي كما سيأتي الحديث عن ذلك في الصفحات الموالية.

ولا بأس من الإشارة إلى أن المؤسسات العمومية حاولت القيام بما يمكن القيام به للحد من العدوى أو لتخفيف الجلل. وبرزت في هذا المضمار المدن- الدول الايطالية التي اتخذ حكامها عدة إجراءات من قبيل الحرص على نظافة الفضاءات العمومية، والدعوة للوقاية، وردع الأغنياء عن التباهي بالثراء الذي كان يستفز الفقراء.

وفي هذا السياق، ظهرت بعض الأشكال الجديدة من التفاني والتقديس في أوساط المسيحيين. فعادوا إلى تقديس سان سبستيان (Saint Sébastien) الذي استشهد في مطلع القرن الرابع في سياق حملات الإمبراطور دقلديانوس ضد معتنقي المسيحية.

كما قدس مسيحيو الجنوب القديس روك (Saint Roch)، الراهب، الجراح والمختص في مداواة المصابين بأمراض جلدية.

3) الموت والجثة ورقصة الموت

ساهم الطاعون في تغذية حساسية ذهنية ودينية جديدة. فقد كان الرجال والنساء حتى بداية تفشي الطاعون الأسود لا يخشون الموت بقدر ما كانوا يخشون جهنم. وبعد تفشي هذا الوباء وتراكم الجثث هنا وهناك، عاين الناس الموت عن كثب. فرأوا أنه جحيم من نوع آخر لا يمكن، في اعتقادهم، مقارنته بأي جحيم آخر.

والحقيقة أن الكثير من رسومات ما بعد سنة 1348، والخلاصات التي توصل إليها بعض الذين بحثوا في ظاهرة الموت، تفيد بأن الخوف من جهنم ظل حاضرا في أذهان الناس، حين يستحضرون جحيمها في مقابل نعيم الجنة، ولكن تفشي الموت أرسى دعائم تلك الحساسية الجديدة. وكان المستفيد الأكبر من هذا التوجه هو الجثة.

فقد أفضت معاينة الأحياء للجثث صباح مساء إلى ظهور موضوع ايكونوغرافي جديد حقق نجاحا كبيرا هو التقاء الأحياء الثلاثة بالأموات الثلاثة. ويجسد هذا الرسم ثلاثة شبان، خلقتهم جميلة، تبدو على محياهم علامات الابتهاج وعدم الاكتراث، مقابل ثلاث جثث (تظهر الجثث في نماذج من تلك الرسومات مسجات في توابيت). وانتشرت بموازاة هذا الرسم المقولة المأثورة : "تذكر بأنك ستموت" (memento mori) التي أدت بكثير من الناس إلى مراجعة نمط حياتهم وأسلوب تفكيرهم. ووجدت المقولة أيضا من أسالوا حولها المداد. فظهرت مؤلفات مزدانة بالصور حول "فن الموت" (les artes moriendi) انكب على دراستها عدد من الباحثين المحدثين والمعاصرين، من بينهم الفرنسي- الايطالي ألبيرتو تنينتي (Alberto Tenenti). وتطور التفكير في الموت، والاحتضار، ليغدو فيما بعد إحساسا وفلسفة. كما اتخذ هذا التفكير تجليات أخرى من بينها الرسومات الكثيرة المختلفة التي تم انجازها هنا وهناك. فكانت، إما عبارة عن هياكل كاملة مرسومة على جدران بعض الأضرحة والكنائس، وإما عبارة عن جمجمة لوحدها، وإما مشهدا يمثل مجموعة أفراد يراقصون هياكل فيما يعرف "برقصة الموت" (la danse macabre).

تعتبر هذه الرقصة تعبيرا عجيبا لمجموعة أفراد في حركة جماعية انسيابية. ويحمل مشهد الراقصين عدة دلالات. فكل راقص يمثل أحد أفراد المجتمع. وتختزل المجموعة كلها سائر فئات المجتمع بغض النظر عن انتماءاتهم الاجتماعية أو العمرية.

يبدو البابا والإمبراطور قائدان للمجموعة الراقصة. ومعنى ذلك أن الموت "يراقص" جميع الناس دون تمييز بين حاكم أو محكوم، أو بين نبيل وفلاح، أو بين غني وفقير.

والغريب في الأمر، أن الرقص الذي كانت الكنيسة تحضر تعاطيه لأنه تعبير ماجن ينتمي لعهود الوثنية، أضحت تجسده هذه اللوحات. وسيغدو بعد القرن السادس عشر من التعابير الجسدية المباحة في البلاطات. وتعد رقصة الموت، من هذه الوجهة، تعبيرا "انتقاليا" جمع بين الثقافة اللائكية (العلمانية) والنظرة الدينية، لأنها كانت تعني نوعا من المرح البريء. كما كانت تعني بأن المجتمع ذاهب لملاقاة مصيره في رقصة لا حاجة له فيها إلى الشيطان ليقوده.

وخلاصة القول هي أن المجموعة المشاركة في رقصة الموت تمثل أوربا التي فقدت عقلها. وبذلك أخذ يتموضع في تاريخ أوربا الطويل الخط الأحمر الذي يجسد سنوات "الحماقة" وفقدان العقل.

ومن المفيد التذكير بأن اللوحات التي اتخذت من رقصة الموت موضوعا لها اكتسحت جدران أوربا المسيحية خلال القرن الخامس عشر. وكانت أول لوحة مثلتها قد رسمت سنة 1425 على أحد جدران مقبرة "القديسين الأبرياء (les Saints-Innocents) بباريس. وبعد سنة 1440 بقليل، تم رسم لوحة مماثلة للوحة مقبرة القديسين الأبرياء على أحد جدران مقبرة القديس بولس بلندن. ثم توالت اللوحات هنا وهناك في عدة مدن أوربية.

وكان الملفت للانتباه، هو أن نماذج من هذه اللوحات أصبحت ترسم على جدران بعض الكنائس الصغرى الموجودة في المدن الصغرى، أو في بعض القرى كما هو الشأن في كنيسة كرنسكليدن (Kernescleden) بمنطقة بروطاني (la Bretagne) بفرنسا، وكنيسة القديس نيكولا ببلدة تلين (Tallinn) الإستونية.

4) أوربا العنف

شهدت أوربا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر أعمال عنف ترافقت مع الطاعون والمجاعة والحرب. وبغض النظر عن تلك الأعمال، فقد شهدت اصطدامات وحالات عنف أخرى أسهمت بدورها في إضفاء شيء من القتامة على صورة أوربا عند نهاية العصر الوسيط. كما كانت تهدد أيضا مسيرة القارة نحو الوحدة.

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تأويلهم لتلك الأحداث. ومن بين هؤلاء المؤرخين، التشيكي فرانتيسك ڤروس (Frantisek Graus)[1] الذي توقف في أحد أبحاثه عند أعمال العنف والشغب، المعروفة باسم "البوڤروم" (les pogroms)، والتي انطلقت منذ سنة 1320، واشتد أجيجها بعد سنة 1348. وقد استهدفت بعض فصولها اليهود الذين اتهموا بتسميم الآبار.

والأهم، هو أن الباحث المذكور اقترح تفسيران للظاهرة. يتمثل التفسير الأول، الذي سبق أن اقترحه باحثون آخرون، في كون العنف الذي استهدف اليهود يعكس كراهية فئات عريضة من المجتمع المسيحي لليهود. أما التفسير الثاني، فيفيد بأن أعمال العنف اندلعت في سياق الأزمة البنيوية التي كان يتخبط فيها الاقتصاد الأوربي، والتي أثرت سلبا في أوضاع فئات اجتماعية عريضة. فأججت الصراع بين الفلاحين والأرستقراطية، وبين الحرفيين والتجار. وفضلا عن ذلك اندلعت تلك الأعمال في ظرفية تميزت فيها الممالك بضعف في التدبير وانغماس في صراعات عقيمة.

وتناولت الفرنسية كلود ڤوڤار(Claude Gauvard)[2] بدورها بعض فصول هذه الأحداث في فرنسا. فاقترحت بأن أعمال العنف والشغب تلك تعكس ظهور نوع جديد من السلوك، هو "سلوك إجرامي" مختلف تماما عما ألفته أوربا الفيودالية. تزامن ظهوره مع تطور أجهزة الشرطة التابعة للممالك. ويمكن تفسير هذا السلوك عموما بكونه يمثل ردة فعل إزاء تشكل الدول المركزية الحديثة. وكان من الطبيعي أن تتصدى الدول لهذا الإجرام، فتضاعفت تبعا لذلك الوثائق التي يمكن اعتمادها اليوم لتكوين فكرة عن الجريمة والإجرام، وعن أعمال العنف عموما. وتترك عملية تصفح تلك الوثائق لدى الباحث انطباعا بأن أعمال العنف تضاعفت، وبأن عمليات قمعها، والوثائق التي تعنيها، حققت تقدما ملحوظا. ومن ثم، يمكن التساؤل عما اذا كانت تتوفر في هذا الرصيد عناصر يمكن اعتمادها لتفسير أعمال العنف التي تشهدها أوربا اليوم.

---

[1] - ولد سنة 1921 وتوفي سنة 1989. اختص بالبحث في الظواهر الاجتماعية في العصر الوسيط، وفي أوضاع الأقليات. وقد خصص للأحداث التي يشير اليها جاك لو ڤوف صفحات مطولة في كتاب أصدره سنة قبل وفاته هو :

Pest-Geissler-Judenmorde, das 14 Jahrhundert als Krisenzeit.

[2] - ولدت سنة 1942. تشتغل حاليا أستاذة باحثة بجامعة السوربون. أنجزت عددا من الأبحاث تتناول قضايا مختلفة تهم العصر الأوربي الوسيط. من بينها كتابين خصصتهما لظاهرتي العنف والجريمة هما :

- " De grace especial" . Crime, Etat et société en France à la fin du Moyen Age, Paris, Publications de la Sorbonne, 1991.

- Violence et ordre public au Moyen Age, Paris, Picard, 2005.

وعلى كل، فقد توقفت كلود ݣوفار مطولا في بحثها عند بعض القيم التي ظل مجتمع العصر الوسيط متشبثا بها مثل الشرف. كما توقفت عند مجموعة ظواهر ذات صلة بالسلطة، من بينها ظاهرة سايرت التاريخ في مداه الطويل، وهي وظيفة العقاب التي تلجا إليها السلطات السياسية اليوم، كما لجأت إليها بالأمس القريب والبعيد. ولكن لا بد من الإشارة، بأن ظاهرة العقاب قابلتها دوما ظاهرة العفو. ففي فرنسا القرنين الرابع عشر والخامس عشر تصدى القائمون بالأمر بقسوة لظاهرة العنف، ولكنهم كانوا يمنحون العفو أيضا في بعض الحالات لبعض المتهمين. وكانوا يجسدون ذلك بمنح المعفى عنهم "رسائل عفو" (des lettres de rémission). والظاهر أن ذلك العفو السياسي كان يحمل بعض دلالات الغفران الإلهي.

ولا شك أن الحديث عن هاتين الظاهرتين، في هذا الوقت المبكر، يفيد بأن أوربا العقاب والعفو كانت ترتسم في الأفق.

وبالعودة الى وجهات نظر بعض الباحثين في تفسيرهم لظاهرة العنف في أوربا، لا بأس من الاشارة هذه المرة بأن الأمريكي داڤيد نيرنبرݣ (David Nirenberg) شكك مؤخرا فيما ذهب إليه المؤرخ التشيكي السالف الذكر بخصوص البوݣروم. إذ أوضح، وهو يبحث في أشكال العنف الذي طال الأقليات المسلمة واليهودية في مملكة أرغون في نهاية القرن الرابع عشر، "بأن العنف ظاهرة مركزية ذات صلة بكنه التواجد في [مجال واحد] بين أغلبية وأقلية"[1]. ومعنى ذلك اذن، أن تواجد أغلبية وأقلية في شبه جزيرة أيبيريا، وفي مناطق عدة من أوربا قد يكون وراء تصاعد أعمال العنف هنا وهناك. وكان من الممكن أن يفضي ذلك العنف إلى نهاية تماسك أوربا. وعلى كل، فهذا الأمر يستدعي إبداء ملاحظتين : الأولى هي أن الحديث عن التسامح واللاتسامح في أوربا، القرنين الرابع عشر والخامس عشر، حديث لا معنى له. وحتى إذا جاز هذا الحديث، فيمكن القول بأن التسامح حقق تطورا مهما، ولكنه يحتاج اليوم إلى أن يولد من جديد. والملاحظة الثانية، هي أن اليهود طردوا من جهات كثيرة في أوربا. فقد طردوا من أنجلترا منذ نهاية القرن الثالث عشر. وطردوا من فرنسا في نهاية القرن الموالي. ثم طردوا من اسبانيا بعد سنة 1492. ومن ثم، فلا يتعلق الأمر، بأي حال من الأحوال، بمبرر ديني. فمعاداة اليهودية، التي يضعها البعض في الواجهة، هي تبرير عنصري. وخلافا لما تم القيام به تجاه اليهود في غرب أوربا، ففي جهاتها الوسطى والشرقية تم تبني حلين : إما التسامح تجاههم كما حدث

---

[1] - عبر نيرنبرݣ عن وجهة نظره هاته في كتاب أصدره سنة 1996 تحت عنوان :
Communities of Violence: Persecution of Minorities in the Middle Ages, Princeton University Press.

في بولندا، وهذا ما لم يتم التعبير عنه بصريح العبارة، وإما "الزج" بهم في "گيتوهات" تحت الحماية كما حدث في ايطاليا وألمانيا. ولكن ما يمكن تأكيده هو أن أوربا نهاية العصر الوسيط، هي "قارة" قامت بطرد اليهود.

أ) اضطهاد الساحرة

ظهر شكل من العنف خلال القرن الرابع عشر وتأكد خلال القرن الموالي. تمثل هذا العنف في محاربة الشعوذة والسحر.

والجدير بالذكر أن الكنيسة حاربت دوما جميع أشكال المعتقدات والممارسات السحرية، والقائمين بها. ولكن حربها هاته، غدت ثانوية حين تفرغت لمحاربة الهرطقة. وقد استهدفت عمليات التفتيش في القرن الثالث عشر الهرطقة في المقام الأول كما تم توضيح ذلك في صفحات سابقة. ولكن بعد ذلك أضحت الشعوذة والسحر ضمن أهداف الكنيسة. وهذا ما تفصح عنه نماذج من المؤلفات الموجهة "للمحققين"، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لمصنفي كل من رجل الدين اللانگدوكي بيرنار گي (Bernard Gui)، ورجل الدين الكطلاني نيكولا أيمريك (Nicolas Eymeric). وقد أكد بعض الباحثين المعاصرين، أمثال نورمان كوهن (Norman Cohn)، بدورهم اتجاه الكنيسة خلال القرن الخامس عشر نحو تشديد قبضتها في مواجهة السحرة والمشعوذين.

ويعد جول ميشلي (Jules Michelet) واحدا من بين الباحثين الذين تناولوا ظاهرة الشعودة التي شهدها القرن الرابع عشر. وأعتقد أنه كان مفرط الذكاء والحس حين تنبه، إلى غلبة التأنيث على تلك الظاهرة، رغم أنه استند فيما ذهب إليه على نص اتضح فيما بعد أنه نص ملفق. وبغض النظر عن طبيعة النص، فإن الدلالة المستخلصة منه، والتي أكدتها الأحداث، هي أن المشعوذة (أو الساحرة) احتلت واجهة الأحداث في أوربا منذ هذه الفترة، وظلت كذلك حتى القرن السابع عشر. ومن المفيد القول أيضا بأنها ستغدو ضحية عدة محارق. وقد تضمن كتاب (ملوس ملفيكاروم) "Malleus Maleficarum" (مطرقة الساحرات) الذي وضعه الراهبان الدومنيكيان هنريخ كرامر (Heinrich Kramer) وجاك سبرينجر (Jacques Sprenger) سنة 1486 عدة مشاهد من مسلسل مطاردة المشعوذات. ومن المفيد التذكير بأن واضعي الكتاب نقلا تلك المشاهد في أجواء دراماتيكية قل نظيرها، تنوعت فيها ضروب العسف التي طالت المشعوذات. وهذا ما دعا جون ديليمو (Jean Delumeau) إلى وسم المسيحية التي اتخذتها الكنيسة شعارا لملاحقة المشعوذات بكونها "مسيحية التخويف". وكان هذا الترهيب الذي رام استئصال اعتقاد تبناه نفر من الأشخاص

موضوع كثير من الرسومات واللوحات. وإن أقل ما يمكن أن يقال في الموضوع، هو أن ظاهرة ملاحقة المشعوذات أعطيت لها إشارة الانطلاقة في أوربا.

ب) حركات الفلاحين

شكلت انتفاضات الشغيلة، من فلاحين وعمال وحرفيين، مظهرا آخر من مظاهر العنف التي ميزت نهاية العصر الوسيط. وقد نعت الفرنسي روبير فوصيي (Robert Fossier) هذه الانتفاضات بكونها تمثل "طفرة جديدة في الصراع بين الطبقات". وكان البريطاني رودني هلتون (Rodney Hilton) جريئا أكثر حين تبنى رؤية ماركسية في تناول هذه الانتفاضات. وأعتقد أنه لا سبيل للإنكار بأن هذه الرؤية تجد ما يبررها، لأن التطور الاقتصادي أفضى فعلا إلى إفقار عدد كبيرمن الفلاحين، ولكنه أغنى في الوقت ذاته آخرين.

والملاحظ، أن ثورات الفلاحين في فرنسا، لم يكن يتصدرها دوما فلاحون فقراء. بل على العكس من ذلك، كان يقوم بها في كثير من الأحيان فلاحون أثرياء يخشون ضياع ما يحظون به من امتيازات. والدليل على ذلك هو أن كثيرا من الثورات التي شهدتها فرنسا، اندلعت في مناطق خصبة مثل بوڤيزي (le Beauvaisis) وڤالوا (le Valois). وكما اندلعت في جهات أوربية أخرى، في مناطق كانت تحتضن تجمعات كبيرة. كما حدث مثلا في قطلونيا والفلاندر. وقامت نماذج منها في المناطق المحاذية لطرق التجارة المهمة على طول نهري الراين والإلب مثلا.

وعموما، فإن أهم ثورة قام بها فلاحو فرنسا، تمثلت في ثورة ماي 1358 التي اندلعت في منطقة بوفيزي السالفة الذكر. واتسع نطاقها بسرعة ليشمل مناطق السواسوني (le Soissonnais) وبري (la Brie) و ڤالوا.

تميزت هاته الحركة بلجوء الذين قاموا بها إلى السلب والنهب، وإضرام النيران في القصور دون أن يلقوا من يتعاطف معهم في المدينة. كما لم يجدوا من بينهم قائدا محنكا يتزعم حركتهم. كما لم يعبروا عن أي مذهب واضح. وكان مآلها الفشل بعد أن تصدى السنايير للمنتفضين بعنف وشراسة.

وشهدت منطقة اللانڭدوك حركة مماثلة اندلعت سنة 1378 على اثر موجة كساد وفقرعمت المنطقة وتزامنت مع نشاط غير مسبوق لفرق من اللصوص وقطاع الطرق (des brigands). ونظرا لكثرة أعداد هؤلاء، فقد نعت الفلاحون الذين قاموا بالثورة باسم (التوشان) "les Tuchins"، وهو الاسم الذي كان يطلق وقتها على اللصوص الذين يتخذون الغابات ملاذا لهم. وانتهت هذه الحركة بدورها إلى الفشل بعد أن تصدى لها السنايير.

والجدير بالذكر، أن الانتفاضات من هذا القبيل، كانت قليلة وضعيفة في ايطاليا نظرا لثقل الحواضر.

وانطلاقا مما تقدم، يمكن القول بأنه لا مجال للحديث عن "مسألة فلاحية" في أوربا القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وإن أكبر وأهم حركة قام بها فلاحو أوربا هي تلك التي حدثت في ألمانيا عند مطلع القرن السادس عشر. وهي الحركة المشهورة باسم "حرب الفلاحين".

ج) الانتفاضات في الحواضر

خلافا لعالم الأرياف، يمكن، عند التطرق للانتفاضات التي شهدتها الحواضر، الحديث عن "مسألة حضرية". ذلك أن الحواضر التي شهدت تطورا متواصلا منذ مطلع القرن الحادي عشر، دخلت مرحلة تدهور بعد حوالي سنة 1260. تجلت مظاهره في البطالة، وتدني الأجور، وتزايد أعداد الفقراء والمهمشين. فترتب عن ذلك ظهور حركات احتجاج وانتفاضات تصدرتها الفئات الدنيا التي كانت تعيش أوضاعا صعبة. فكانت هذه الفئات توجه غضبها أحيانا ضد اليهود. ولكن كانت في معظم الأحيان تنتفض ضد ممثلي السلطات الحاكمة نظرا للاشتطاط الذي كانت عرضة له من قبل الجباة، والتعنيف الذي كان يطالها من قبل أجهزة الشرطة.

وانخرط عدد من الحرفيين في تلك الحركات، لأنهم كانوا هم الآخرين يئنون تحت سلطة رؤساء الطوائف الحرفية. ونظرا لاشتراك هؤلاء وأولئك في نفس المصير، فقد حاولوا تنظيم صفوفهم منذ وقت مبكر. وقد أورد رجل القانون الفرنسي بومانوار (Beaumanoir) في مؤلف أصدره سنة1285 بأنه "كان يحدث تحالف ضد الاستغلال، حين كان مجموعة من الناس يتعهدون، أو يتوافقون، على عدم الاستمرار في العمل بأجور متدنية عن السابق".

والجدير بالذكر أنه حدث قبل ذلك بسنوات، وبالضبط سنة 1255 أن كون حرفيو مدينة فيجاك (Figeac) ما يشبه تنظيما نقابيا (colligatio) لتحديد مطالبهم ومشاريعهم. وكانوا يطالبون، عموما، بتخفيض ساعات العمل. كما اتضح ذلك جليا في انتفاضة مدينة ݣاند (Gand) سنة 1337، التي نادى فيها العمال بضرورة تحسين ظروف العمل، وبمزيد من الحرية.

وإذا كان الفلاحون قد لاقوا صعوبات في إيجاد من يتزعم حركاتهم، فإن المنتفضين في الحواضر لم يفتقدوا للزعامات. وقد أورد روبير فوصيي أسماء عدد منهم من أمثال برنݣير أولير (Berenguer Oller) في مدينة برشلونة، وجون كبوس (Jean Cabos) في مدينة كان، وبيير ديكونانك (Pierre Deconinck) في مدينة

بروج، وميشيل دو لاندو (Michel de Lando) في مدينة فلورنسا، وسيمون كبوش (Simon Caboche) في مدينة باريس، وهنري دو دينان (Henri de Dinant) في مدينة لييج، الذي تفرد عن غيره، في نظر المؤلف، بكونه كان زعيما محنكا، ناضل من أجل مجتمع بدون طبقات. واستطاع قيادة عمال المدينة المذكورة لمدة أربع سنوات بين سنتي 1352 و1356.

وبالإضافة إلى مدينة لييج، شهدت ثلاث مدن أخرى، هي باريس ولندن وفلورنسا، حركات "حضرية" في النصف الثاني من القرن الرابع عشر. كانت عنيفة وذات طابع ثوري

ففي باريس اندلعت حركة اجتماعية قوية سنة 1358، شارك فيها عدد كبير من سكان المدينة، على اثر هزيمة تلقتها الجيوش الفرنسية على يد الأنجليز في وقعة بضواحي بواتيي سنة 1356. ووجد المنتفضون في شخص إيتيان مارسيل (Etienne Marcel) من قاد حركتهم. وكان هذا الأخير "عميد" التجار، وأحد أكبر بورجوازيي المدينة. ولم يكن قط ثوريا، ولكنه كان يسعى للحد من سلطة الملكية، التي كان يرى بأنها كانت تنحو في اتجاه أن تصبح مطلقة. وبعد كر وفر ومحاولات لإقحام فلاحي الضواحي في الحركة، انتهت انتفاضة الباريسيين باغتيال زعيمها في يوليوز 1358، واستئصال شأفة المشاركين فيها.

واندلعت حركة أخرى قصيرة المدى، ولكنها عنيفة جدا، سنة 1382 بعد أن أعادت السلطة الحاكمة إقرار مجموعة ضرائب كان قد أسقطها الملك شارل الخامس وهو يحتضر في شبنبر 1380. فعمد المنتفضون إلى تسليح أنفسهم بأعداد من المطارق الكبيرة الحجم (des maillets) سطوا عليها من "قصر البلدية" (l’Hôtel de ville)، حيث كانت مودعة استعدادا لرد هجوم كان يحتمل أن يقوم به الأنجليز. ولذلك نعتت هذه الحركة باسم انتفاضة "المطرقيين" (les Maillotins).

واندلعت شرارة حركة ثالثة في سياق صراع مسلح نشب بين الأرمنياكيين (les Armagnacs) والبورڭينيين (les Bourguignons) وتزامن مع مجريات حرب المائة سنة. وكسب المنتفضون، بقيادة جزار يدعى كبوش (Caboche)، تأييد ومساندة البورڭينيين. وتمكنوا من الضغط على أعضاء البرلمان لاستصدار قانون إصلاح سنة 1413. ولكن استعادة الأرمنياكيين لزمام المبادرة حال دون نجاح الحركة فيما كانت تروم تحقيقه.

ومهما يكن من أمر، فإن أهم ما يجب استخلاصه من خلال استعراض بعض الانتفاضات التي شهدتها باريس، هو أن هذه الحركات تفيد، من جهة، بظهور محاولات إصلاح في فرنسا، وفي جميع أنحاء أوربا، تم إجهاضها. وتفيد، من جهة

أخرى، بانطلاق زمن الحركات الاجتماعية في الحواضر، وهو الزمن الذي تواصل حتى اندلاع الثورة الفرنسية.

وعلى غرار باريس، انطلق مسلسل الانتفاضات الاجتماعية في لندن بحركة عمالية اندلعت سنة 1381 احتجاجا على طبيعة قانون الشغل الضاغط على العمال، واحتجاجا على إقرار ضريبة جديدة تدعى "البول- طاكس" (الضريبة على الرأس). وخلافا لمنتفضي باريس،الذين لم تلق حركتهم صدى في الأرياف، فإن حرفيي وعمال لندن وجدوا من يتآزر معهم في الأرياف مما أكسب انتفاضتهم زخما قويا. كما وجدت الانتفاضة في شخص وات تايلر (Wat Tyler) زعيما محنكا آزره رجل الدين جون بال (John Ball)، الشهير بقولته : "حين كان آدم يقلب التربة، وكانت حواء تنسج، أين كان الجنتلمان ؟ ".

وقد كانت الانتفاضة عارمة، حيث تمكن القائمون بها من السيطرة على لندن لفترة وجيزة. ولكنهم فشلوا في مواصلة السيطرة على المدينة نظرا للقمع العنيف الذي جوبهوا به، ونظرا لاغتيال زعيمهم.

أما في فلورنسا، فقد اتخذت الانتفاضات منحى آخر لأن المدينة كانت مركزا انتشرت فيه وحدات صناعة النسيج. كما كان الأغنياء وكبار التجار هم المسيطرين على طوائف العمال في هذه الوحدات. ولذلك شكل العمال غالبية متصدري حركة 1378. وتمكنوا من السيطرة على المدينة لفترة تزيد عن الثلاث سنوات. بل استطاعوا أن يجعلوا لهيب حركتهم يمتد خارج فلورنسا. ورغم ذلك، آلت الانتفاضة إلى الفشل. وتمكن أغنياء المدينة من السيطرة على الوضع، ومن تثبيت نفوذهم. فأضحت فلورنسا خلال القرن الخامس عشر تحت سيطرة أسرة الميدتشي (les Médicis).

ولا بأس من الاشارة بمناسبة استعراض أبرز الانتفاضات، الى أن مدن أوربا شهدت أيضا حركات اجتماعية أخرى قام بها عاطلون عن العمل ومهمشون. كانوا يتجمعون في بعض الضواحي التي غدت مناطق خطيرة. وقد حدث أن اندلعت في وقت مبكرحركات مماثلة لها في مدن أوربا، من قبيل تلك التي قام بها العاطلون والمهمشون بين سنتي 1280 و1310 في كل من دواي (Douai)، وإيبر (Ypres) وبروج، ولييج، وبيزيي، وتولوز، وريمس، وباريس، وفلورنسا. ثم اندلعت انتفاضات مماثلة لها بين سنتي 1360 و1410. انخرط فيها العمال كذلك. ووقعت أعنفها في مدن شمال غرب أوربا. ثم اندلعت موجة ثالثة من هذه الانتفاضات بين سنتي 1440 و1460 في بعض مدن ألمانيا، ومدن منطقة الفلاندر، وفي باريس أيضا. ولكنها كانت انتفاضات قصيرة المدى وأقل حدة من سابقاتها. ولا بأس من الإشارة في هذا الصدد بأن الباحث بيير موني (Pierre Monnet) خص هذا الموضوع ببحث. وأحصى ما

يناهز 250 حركة اندلعت في حوالي 100 مركز حضري بألمانيا بين سنتي 1300 و1350.

وعلى العموم، لم تفض هذه الانتفاضات إلى إرساء أنظمة طاغية كما حدث في ايطاليا. كما لم تترتب عنها "دمقرطة" الحرف. وإن العودة إلى السلم ظلت دوما من اهتمامات النخب التي نجحت في الحفاظ على سلطاتها.

د) الصراعات في أوربا الشمالية

اكتست الحركات الاجتماعية في مناطق أوربا الإسكندناڤية طابع التعقيد بسبب تعدد أطراف الصراع بين حرفيين وفلاحين، واختلاطه بالنزاع المحتدم بين التجار الهانسيين، وبالتجاذبات بين ممالك الشمال الدنمركية والنرويجية والسويدية.

فقد سبق لهذه الممالك أن انخرطت تحت قيادة سياسية موحدة سنة 1397. ولكن النبلاء والفلاحين انتفضوا في السويد سنة 1434. ثم اندلعت انتفاضة في مدينة بيرجن (Bergen) النرويجية سنة 1455 بإيعاز من بعض الأطراف الهانسية. وانتهت بإعدام أسقف المدينة وستين شخصا من بين متزعميها والمشاركين فيها

وظل سكان العالم الإسكندناڤي منقسمين على أنفسهم، ولكنهم مشتركين في كراهية التجار الألمان والهولنديين. وبذلك بدا هذا العالم متفردا بعدم استقراره مقارنة مع باقي مناطق أوربا. وحدث سنة 1478 أن سيطر أمير موسكوڤيا على نوڤݣرود، فاختفت التجارة الهانسية. وظهرت بموازاة ذلك روسيا التي كانت قوتها في تنامي متواصل. فأخذت تنتفي تبعا لذلك العناصر التي كانت تربط روسيا بأوربا.

5) انفراط وحدة الكنيسة وظهور الشقاق

ساهم حدث آخر، لا يقل أهمية عن الطاعون وعن الانتفاضات، في خلق البلبلة والاضطراب في أوربا المسيحية. يتمثل هذا الحدث في التطورات التي شهدتها البابوية. وقد تجسدت مقدماتها في اضطرابات هزت سكان مدينة روما بعد الحفل الديني الذي نظمته البابوية سنة 1300. وتفاديا لاندلاع موجة جديدة من هذه الاضطرابات، تقرر اجراء عملية انتخاب البابا سنة 1305 بمدينة ليون. كما وضع التاج البابوي على رأس البابا المنتخب الفرنسي كليمون الخامس (Clément V) بنفس المدينة. ومكث بها حتى سنة 1309، ثم انتقل إلى مدينة أڤنيون (Avignon). وظل الباباوات، الذين تعاقبوا على كرسي البابوية بعد كليمون الخامس، مستقرين بالمدينة ذاتها التي شيد بها قصر فخم، ومرافق دينية، وإدارية أنفقت فيها أموال طائلة، من حصيلة الضرائب المستخلصة، حتى أضحت المدينة مقرا لأكثر الحكومات نجاحا

خلال القرن الرابع عشر. ولا شك أن موقع المدينة في قلب العالم المسيحي ساعد كثيرا على تحقيق هذا النجاح. ورغم ذلك، لم تنس هذه النجاحات المسيحيين في مدينة روما نظرا لقدسيتها ومكانتها في القلوب، ولذلك ظل كثير من رجال الدين، ومن اللائكيين أيضا، يطالبون بعودة البابوية إلى مدينة روما.

وقد استجاب البابا أوربان الخامس (Urbain V) لهذه النداءات، فغادر أفنيون إلى روما سنة 1367. ولكنه سرعان ما عاد إلى أڤنيون، بعد أقل من ثلاث سنوات، نظرا لعدم استتباب الوضع في روما. وفي سنة 1378 قرر ڭريڭوار الحادي عشر، الذي كان يعتلي كرسي البابوية آنذاك، العودة نهائيا إلى روما.

ومن المفيد التذكير بأن الصراع كان على أشده بين الأسر الأرستقراطية في روما خلال فترة وجود مقر البابوية بمدينة أڤنيون. وكان سكان المدينة منقسمين بدورهم بين فريق مؤيد لهذه الأسرة وفريق مؤيد لتلك الأسرة. مما خلق المناخ الملائم لظهور بعض الزعامات. فحالف الحظ المدعو كولا دي ريينزو (Colla di Rienzo)، الذي استطاع بفضل حنكته وفصاحته وكراهيته للأسر الأرستقراطية وللبابوية استقطاب جمهور غفير من سكان المدينة. فقادهم سنة 1347 للسيطرة على مقر البلدية، وإعلان نفسه حاكما للمدينة. ورد عليه البابا إينوسنت السابع بأن أرسل إليه فيلقا من المحاربين تحت إمرة الكاردينال ألبرنز (Albornoz)، فاضطر كولا إلى اختيار المنفى. ثم سرعان ما عاد إلى المدينة التي ثار فيها ضده بعض أنصار الأمس، فانقضوا عليه وأردوه قتيلا.

هز هذا الحدث مشاعر كثير من مسيحيي روما ومسيحيي أوربا، وخاصة منهم أولائك الذين ظلوا يحنون لأيام مجد روما زمن الأباطرة الرومان.ولم تفض عودة البابا ڭريڭوار الحادي عشر إلى روما في تهدئة الخواطر، بل زادت من تفاقم الوضع. وحدث أن توفي هذا البابا فجأة فعقد كبار الكرادلة مجمعا تحول إلى فوضى عارمة. فاعتلى عرش البابوية في هذه الظروف أوربان السادس (Urbain VI) الذي عارض عملية انتخابه عدد من رجال الدين آثروا عليه كليمون السابع (Clément VII). ولكن أوربان ظل متمسكا بأحقيته في تولي المنصب. فأضحى على رأس البابوية رجلان : الايطالي أوربان في روما والسويسري كليمون في أڤنيون. فانقسم المسيحيون بين مؤيد للايطالي ومؤيد للسويسري. فكان في صف الايطالي مسيحيو ايطاليا، وأنجلترا، والإمبراطورية الجرمانية، وممالك أوربا الشرقية والشمالية. وكان في صف السويسري مسيحيو فرنسا، وقشتالة، وأرغونة، وإيكوسيا.

وأحاط كل بابا نفسه بنفر من الكاردينالات ورجال الدين والمساعدين. وعند وفاة البابا أوربان السادس سنة 1389 عقد كاردينالات روما مجمعا انتخبوا فيه

بونيفاس التاسع الذي شغل منصب البابوية حتى سنة 1404. وكذلك عند وفاة كليمون سنة 1394 خلفه بينوا الثالث عشر على كرسي البابوية في أڤنيون.

والجدير بالملاحظة، أن أمرا حدث خلال هاته الفترة وسيتأكد خلال القرن السادس عشر في سياق الإصلاح الديني، وهو أن الكنائس الوطنية أصبحت تأتمر بأمر الملوك والساسة المحليين (الوطنيين). وقد أثارت هذه المسألة حفيظة كثير من المسيحيين المنتمين لتلك الكنائس والمسيحيين من عامة المجتمع. فحاول ساسة فرنسا رأب الصدع، واقترحوا سنة 1395 انسحاب الباباوين بينوا الثالث عشر وكْريكْوار الثاني عشر. غير أن البابا بينوا رفض المقترح وظل الوضع يراوح مكانه حتى سنة 1409 حيث انعقد مجمع ديني ضم كرادلة المعسكرين، وانتهى بعزل البابوين وتعيين بابا آخرمكانهما، هوالإسكندر الخامس (Alexandre V) الذي اعتلى كرسي البابوية بين يونيو 1409 ومارس 1410. وبما أن البابا بينوا والبابا كْريكْوار لم يمتثلا لقرار العزل، فقد أضحى على رأس البابوية ثلاثة باباوات. وظل المنصب موضوع تجاذبات حتى شهر نونبر 1417 تاريخ انعقاد مجمع ديني انتهى بتعيين بابا واحد حصل حوله التوافق هو مارتان الخامس (Martin V).

ورغم حصول هذا التوافق، ظل الانقسام بين المسيحيين الكاثوليك ساري المفعول، ولكن بدرجة أقل حدة عما كان عليه الأمر في الماضي. وفي سنة 1449 انعقد مجمع ديني آخر بمدينة فلورنسا تم خلاله تعيين أوجين الرابع (Eugène IV) بابا جديدا. فعمل هذا الخير بشكل دؤوب على تحقيق المصالحة بين المسيحيين الكاثوليك. بل سعى إلى تحقيق الوئام بين الكنائس الكاثوليكية والكنائس الأرثوذوكسية.

ومهما يكن من أمر، فإن الخلاصة التي يمكن استخلاصها هي أن الشقاق الكبير كان امتحانا عسيرا بالنسبة للمسيحيين. وكان من الممكن أن يستشري وتترتب عنه نتائج وخيمة بالنسبة لوحدة المسيحية والمسيحيين، لأن الكنائس الوطنية بدأت فعلا، في ضوء ذلك الانقسام تبتعد عن روما. كما شرع ملوك الممالك في إبرام اتفاقيات ثنائية مع البابوية.

6) الهراطقة الجدد : الوايكليفيون والهوسيون

تميزالقرنان لرابع عشر والخامس عشر، باختفاء حركات الهرطقة التي شهدتها أوربا خلال القرون السابقة باستثناء بعض بقاياها التي انحصرت في مناطق جبلية وعرة. وبالمقابل، ظهرت حركات "حداثية" تبشر بانبثاق حركة الإصلاح البروتستانتي التي ستشهدها أوربا في القرن السادس عشر. تمثلت هذه الحركات بشكل خاص في حركة جون وايكليف (John Wyclif) واللولارديين (les Lollards)

بأنجلترا، وحركة جون هوس (Jean Hus) والهوسيين (les Hussites) في بوهيميا.

كان جون وايكليف، المتوفى سنة 1384، أستاذا لعلم اللاهوت بجامعة أكسفورد. انطلق في موقفه من المسألة الدينية من فكرة قديمة وهي أن صلاحية الأسرار المقدسة (les sacrements) ليست متصلة بوظيفة أولائك الذين يقدمونها، ولكنها متصلة بمسألة كونهم في حالة خلاص. ومن ثم، تبطل، في نظره، صلاحية الأسرار التي يقدمها الرهبان الغير جديرين بمناصبهم. وفي هذا السياق، رأى بأن الطقوس والشعائر، وعموم مكونات الدين، الموثوق بها هي تلك التي يتضمنها الكتاب المقدس وحده. وبذلك أنكر ضمنيا صحة القرارات التي تتخذها الكنيسة، والتي لا يتم فيها الانطلاق من النص المقدس. كما انتقد إباحة الكنيسة استعمال الصور وتشجيع الحج، ومنح الغفران للأموات. وتطورت مواقفه، قبيل وفاته، لتنحو منحى راديكاليا. فقد انتقد ما يعرف بالقربان المقدس، وانتقد كذلك الطوائف الدينية، التي اعتبرها شكلا من أشكال "خوصصة الدين"، لأنها تنتشر في أوساط المسيحيين "ديانات خاصة".

وكان من المنتظر أن تدين الكنيسة مواقف وايكليف. وذلك ما حدث في أكسفورد سنة 1380، وفي لندن سنة 1382. وبدأت مقدمات الإجراءات التي ستتخذ ضده بنشر شائعات تفيد بمساندته للعمال المشاركين في انتفاضة 1381. وانتهى الأمر فعلا بأن صدرت في حقه الإدانة.

ولعل أهم تأثير مارسه وايكليف على المدى البعيد تجلى في كونه حاول تعميم الكتاب المقدس حين قام بترجمته إلى اللغة الأنجليزية. وسيقدر لهاته النسخة المترجمة أن تنتشر فيما بعد. ولكن هذا لا يمنع من القول بأن أفكاره كان لها صدى على المديين القريب والمتوسط. فقد وجدت من ينتصر لها في أكسفورد بعد وفاته. بل استمرت مؤثرة بعد ذلك حتى قيام حركة الإصلاح الديني التي تبنى أقطابها بعض وجهات نظره.

وقبل أن ينتقل إرث وايكليف إلى مصلحي القرن السادس عشر، فقد ألهم بعض "مصلحي" نهاية القرن الرابع عشر، ومن ضمنهم "اللولارديين" الذين يمكن اعتبارهم من أتباعه. كان هؤلاء عبارة عن تنظيم شبيه بطوائف الفقراء. ينتمي معظم أعضاءه لمدينة أكسفورد، وانضم إليهم عدد من "الرهبان الفقراء'. وتكاد التسمية التي أطلقت عليهم ترادف كلمة "فقراء". كما أنها تعني من منظور قدحي "رجال الدين المهمشين".

عمل اللولارديون على نشر نسخة الإنجيل الأنجليزية التي أنجزها وايكليف. واستطاعوا كسب تأييد عدد من رجال السياسة ومن علية القوم. كما كسبوا عطف

جمهور من عامة البسطاء. وأشاعوا في أوساطهم رغبتهم في إسقاط الطابع الديني عن ثروات المؤسسات الدينية وثروات رجال الدين. وقد وجدت رغبتهم هاته صدى لدى عدد من البرلمانيين الذين فكروا سنة 1410 في تقديم مقترح لمصادرة ثروات الأسقفيات والأديرة.

ورغم هذا النجاح، لم يكن القائمون على الأمر في أنجلترا ينظرون بعين الرضا إلى هاته الحركة. فلاحقوا أعضاءها ونكلوا بهم، خاصة بعد حركة احتجاج قاموا بها سنة 1414. فاضطر اللولارديون للجوء للعمل السري. واستمرت كثير من أفكارهم خلال القرن السادس عشر، حيث تبناها متزعمو حركة الإصلاح البروتستانتي.

وعلى غرار حركة وايكليف، اكتست حركة جون هوس زخما قويا منذ شبابه. فقد انخرط في الجدل الدائر حول القضايا الدينية والسياسية حين كان طالبا بجامعة براغ، التي كانت حديثة النشأة. ثم اشتغل أستاذا بنفس المؤسسة، فعميدا لكلية الفلسفة، فرئيسا للجامعة سنة 1410. وشرع في نشر أفكاره التي اتسمت بكونها كانت ذات صبغة راديكالية وواقعية في ذات الوقت. وتقوم على أساس وجود كليات في الذكاء الإلهي، لأن الأفكار هي عبارة عن وقائع تتميز بالسمو.

وتجاوزت أفكاره حدود الحرم الجامعي لتنتشر في مدينة براغ حين شرع، ابتداء من سنة 1402 في الوعظ باللغة التشيكية في كنيسة المدينة. ولم يتردد في المطالبة بإصلاح الجوانب الأخلاقية للقائمين بأمور الكنيسة المسيحية، وبضرورة طاعتهم لكلام الله. فكان ذلك يعني دخوله في مواجهة مباشرة مع رجال الدين الذين نجحوا في استصدار قرار من البابوية، في دجنبر 1410، قضى بحرمانه وبإحراق كتبه أمام الملإ. فاضطر جون هوس إلى مغادرة براغ واللجوء إلى أحد القصور بجنوب بوهيميا، حيث عكف على التأمل وتحرير مؤلفات أثارت الجدل بين متداوليها. ومن بينها كتاب "De ecclesia" (الكنيسة) الذي رأى فيه بأن هذه المؤسسة الدينية شبيهة بالجمعية زمن الإغريق، ينتمي إليها قدريون، وعلى رأسها شخص (أي البابا) لا يجب الإقرار بسموه.

وكان على جون هوس أن يخرج من عزلته في نونبر 1414 ليمثل أمام المحققين في المجمع الذي التأم بمدينة كونستانس (Constance) الألمانية. ورغم دفاعه عن وجهة نظره، فقد اتهم بكونه هرطيق. وصدر في حقه حكم بالإعدام، وألقي به في السجن حتى يوم 6 يوليوز من السنة الموالية، حيث تم اعدامه حرقا.

رفض معظم التشيكيين الحكم الصادر في حق جون هوس، فانتفضوا وعملوا على نشر أفكاره. فنشأ تبعا لذلك أول انقسام مذهبي بين المسيحيين. ثم أعلن الهوسيون

الثورة على الإمبراطور، وأحكموا قبضتهم على مدينة براغ. وتأجج لهيب الثورة عندما سيطر عليها الطابوريون، المشهورين بكونهم كانوا أكثر الهوسيين تطرفا.

والجدير بالملاحظة أن هذه الثورة كانت تحمل عدة دلالات. فهي تعني، من وجهة نظر دينية، انفصال التشيكيين عن الكنيسة الرومانية. بينما كانت تعني، من وجهة نظر وطنية، اعتزاز التشيكيين بهويتهم اللغوية وبقيمهم وثقافتهم، ورفضهم لما هو دخيل، خاصة من جهة الألمان. وكانت تعني، من وجهة نظر اجتماعية، إعادة الاعتبار للفلاحين، ورفض البنيات والمؤسسات الفيودالية.

وأخذت الثورة منحى دراماتيكيا حين تحولت إلى حرب مفتوحة بين الهوسيين من جهة، والكنيسة والألمان من جهة ثانية. وبما أن موضوعها كان الخلاف الديني، فقد أخذت طابع الحرب الصليبية. وشنت خلالها الكنيسة والألمان أربع حملات على الهوسيين بين سنتي 1421 و1432. ورغم أن معظم المحاربين الهوسيين كانوا في الأصل فلاحين يحاربون "على الأقدام"، فقد زرعوا الرعب في صفوف الفرسان الأعداء. ونقلوا الحرب إلى عدة مناطق ألمانية خربوها وأفنوا أهلها. وبذلك يمكن اعتبار حركة الهوسيين أول حركة ثورية أوربية عظيمة أذهلت الأوربيين. فاضطر الإمبراطور سجيسموند (Sigismond)، تحت وقع الأحداث، إلى إعلان الهدنة وإبرام اتفاق مع الهوسيين المعتدلين. فوافق هؤلاء على المقترح، وعينوا على رأسهم جورج بوديبراد (Georges Podiebrad) الذي كان زعيم حرب، ثم ملكا لبوهيميا بين سنتي 1458 و1471. وقد اشتهر بكونه أثار الرعب في أمراء اللوكسمبورغ، ودمر مواقع الألمان في بوهيميا.

7) التفاني العصري

لا يمكن أن يكتمل الحديث عن الحركات الدينية السالف ذكرها، وعن المشاكل الدينية التي أثارتها في أوربا بدون الحديث عن ذلك التيار الروحي الذي تطور في هدوء. والمقصود هنا ما يسمى بالتفاني العصري (la devotio moderna).

تعود نشأة هذا التيار للمسيحي (الغير نظامي) الى جيرارد كُروت (Gérard Grote) أحد أبناء تاجر أقمشة هولندي. ترك الدنيا سنة 1374 وآثر التفرغ للدين. واعتكف في إحدى المؤسسات الدينية، ثم تحول للدعوة. فكون تنظيما دينيا ضم رجال دين و"إخوانا" لائكيين. كما كون بموازاته تنظيما آخر نسويا. اجتهد كُروت وأتباعه في دعوة عموم المسيحيين إلى مراجعة سلوكهم، واجتناب الغنى الفاحش واكتناز الثروات، والامتناع عن شراء المناصب الكهنوتية. وحث رجال الدين على السلوك القويم والتخلي عن معاشرة النساء.

والملاحظ أن تيار التفاني العصري لم يكن قائما على ذلك العمق الروحي أو "الصوفي" الذي قامت عليه بعض التيارات الدينية التي ظهرت في القرن الثالث عشر، أو تلك التي ظهرت في النصف الأول من القرن الرابع عشر. فقد أراد متزعمه وأتباعه التركيز على جوانب من واقع المسيحيين في حياتهم اليومية. ومعنى ذلك أن حركته كانت تقترح إصلاحا بسيطا وسهل التحقيق مستمدا من الجانب الإنساني والسلوكي في حياة السيد المسيح. وهذا ما أوضحه توما كامبيس (Thomas a Kampis)، أحد أقطاب التيار، في مؤلفه "الاقتداء بيسوع المسيح" الذي اتخذه كثير من مسيحيي ومسيحيات أوربا نبراسا لهم في حياتهم.

وعلى كل، فإذا كان تيار گروت ضعيف الحضور في حركات الإصلاح البروتستانتي التي ظهرت في القرن السادس عشر، فقد شكل مصدر الهام بالنسبة لحركة الإصلاح اليسوعي التي سيتزعمها اينياس دي ليولا (Ignace de Loyola) في اسبانيا.

8) ميلاد المشاعر الوطنية

نشأت ظاهرة بسيكولوجية في أوربا، وقد تكون، في اعتقاد بعض المؤرخين، السبب الذي غذى الصراعات الدامية التي شهدتها القارة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ويتعلق الأمر بالشعور الوطني، رغم أن مؤرخين آخرين شككوا في وجود مثل هذا الشعور في هذه الفترة. ويعتقد الفرنسي بيرنار گني (Bernard Guenée)[1] أن السؤال حول وجود، أو عدم وجود، شعور وطني طرح بشكل خاطئ. وعليه، فيجب التساؤل على لسان أحد أوربيي، نهاية العصر الوسيط ماذا كانت تعني بالنسبة إليه "الأمة" في دولة معينة؟ وهل كان ُينظر إلى السكان آنذاك كأمة؟ وما هو مكون الشعور الوطني، وما هي حدته؟ وما هي القوة، وما هو التجانس، الذي كانت تجنيه تلك الدولة من الشعور الوطني؟

يجيب بيرنار گني على هذه الأسئلة المتصلة بأن كلمة "أمة" لم تأخذ معناها الحديث إلا في القرن الثامن عشر. أما في نهاية العصر الوسيط، فكانت كل من كلمات "جنس" (أو عرق)، و"دولة"، و"مملكة" كلمات مرادفة لكلمة "أمة". وبناء عليه، فإن حديث البعض عن الأمة في نهاية العصرالوسيط كان مرتبطا بالوعي الوطني

---

[1] - مؤرخ باحث في التاريخ الأوربي الوسيط. كان يحاضر قبل وفاته سنة 2010 بجامعة السوربون. انصب اهتمامه على القرنين الرابع عشر والخامس عشر الذين خص قضاياهما بعدة مؤلفات من بينها كتاب :
L'Occident aux XIVe et XVe siècles : Les États, Paris, P.U.F., 1971.
الذي يتضمن المعلومات التي أوردها جاك لو گوف.

الحديث، وتم إسقاط هذا الحديث على حقائق لم تكن لها صلات بكلمة أمة. كما حدث مثلا في ألمانيا حين تم تبني فكرة الإمبراطورية التي لم تكن متطابقة قط مع فكرة ألمانيا، كما لم تكن متطابقة أيضا مع فكرة جرمانيا. وقد حدث في فرنسا أن ربط بعض الباحثين بين نشأة الشعور الوطني وحرب المائة سنة.

ويؤكد بيرنار كُني في نهاية المطاف بأن للشعور الوطني أصول قديمة تعود للقرن الثالث عشر. ويبدو أن هذا الشعور تأكد في انجلترا في وقت مبكر نسبيا. وهذا ما يميل إليه أيضا الباحث اوليڤيي دو لابردري (Olivier de Laborderie) الذي أوضح في أحد أبحاثه بأن بعض تراجم الملوك الأنجليز، التي تعود لنهاية القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر، لا يمكن فهم مضامينها إلا بالنظر إليها من منظور الشعور الوطني[1]. وتأكد هذا الشعور في انجلترا بمناسبة حرب المائة سنة. وحتى إن افترضنا بأن تلك الحرب لم تكن أصل شعور وطني حقيقي، فقد كان لا بد أن تفضي في انجلترا إلى تحول عميق ينشأ عنه شعور وطني. وربما كان من تجليات هذا الشعور الوطني أن الأنجليز تخلوا عن الفرنسية، لأنها أضحت لغة العدو، واستبدلوها بالإنجليزية لغة الشعب. وهكذا، فرغم أن الانسجام اللغوي ليس دائما مرتبطا بالشعور الوطني، ففي أنجلترا عمل على تقوية هذا الشعور. ونجد كذلك تعبيرا صريحا عن هذا الشعور الوطني الأنجليزي في المسرحية التاريخية "ريتشارد الثاني" التي وضعها ويليام شكسبير سنة 1595. ويمكن كذلك النظرفي ذات السياق إلى مسألة اتخاذ كلمة فرنسا كمرجعية في المؤلفات التي أنجزت في دير سان دوني، ابتداء من سنة 1274، تحت عنوان : "الإخباريات الكبرى لفرنسا" (les Grandes Chroniques de France).

ومهما يكن من أمر، فإن الخلاصة التي يمكن استخلاصها من وراء استعراض وجهتي نظر الباحثين السالفي الذكر هي وجود روابط متينة بين "الشعورالوطني" والممالك. وتتأكد هذه الروابط عند الحديث عن جان دارك (Jeanne d'Arc). ورغم أن هذا الحديث يحيل إلى موقف "شعبي"، فهو يفيد بأن الاتجاه نحو تبلور شعور وطني ارتبط بما قامت به نخبة محدودة العدد. كما أن هذا الشعور لم يكن قد اتخذ بعد ذلك المحتوى الغني الذي سيأخذه فيما بعد. فهل يجب في هاته الحالة الحديث عن "روح وطنية"؟ يبدو هذا ممكنا بالعودة إلى ما أورده المؤرخ الألماني- الأمريكي إرنست كانتوروفيتش (Ernst Kantorovicz) في الموضوع. فقد أوضح كيف

---

[1] - لا بأس من الاشارة الى أن لابردري (Laborderie) عاد للتعبير عن هذا الموقف بشكل مستفيض في كتابه : Histoire, mémoire et pouvoir. Les généalogies à rouleau des rois d'Angleterre (1250-1422), Paris, Garnier, 2013.

انتشرت في نهاية العصر الوسيط القولة المأثورة: "الموت من أجل الوطن" (Propatria mori)[1].

وبالرغم مما قيل، فيجب مع ذلك الاحتراس عند الحديث عن الشعور الوطني في أوربا القرنين الرابع عشر والخامس عشر. كما أن البحث عن بدايات تكون الأمة يجب أن يتم في نطاق أوسع يتجاوز الشعور والبسيكولوجيا.

ويجب التذكير في هذا المضمار بأن مجالات استعمال كلمات مثل أمة ووطن، خلال القرن الخامس عشر، كانت مجالات خاصة. فقد كانت هذه الكلمات تستعمل في الجامعات وفي المجامع الدينية على وجه الخصوص.

ففي الجامعات كانت "الأمم" (les nations) تضم طلبة من مختلف "الجنسيات" بهدف تحقيق سير جيد للمؤسسة. وقد ظهرت نماذج من هذه "الأمم" في وقت مبكر بجامعة بلوني (Bologne). وبمقتضاها تم توزيع الطلبة على مجموعتين حسب انتماءاتهم الجغرافية. وظهر هذا "التنظيم الأممي" في باريس سنة 1222، وانحصر العمل به في كلية الفنون التي توزع طلبتها على أربع "أمم" هي: نورمانديا، وبيكارديا، وفرنسا، وأنجلترا- ألمانيا. ويوضح هذا المثل، كيف أنه لا يمكن إطلاقا إيجاد أي تطابق بين "الأمة الجامعية" والأصل المشترك لأعضائها. ويتضح هذا الأمر جليا في "أمة فرنسا" التي كانت تضم طلبة وأساتذة ينتمون لدول متوسطية. أما "أمة أنجلترا- ألمانيا" فكانت خليطا هجينا يتنافى في حقيقة الأمر مع التقاليد الجامعية المعمول بها آنذاك.

وخلافا لما قيل عن "أمم" كلية الفنون الباريسية، نجد أن الأمة التشيكية، وكذلك الأمة الألمانية، اللتين تم الحديث عنهما بمناسبة أحداث براغ، كانتا تقومان على أسس إثنية خالصة. وهذا ما أفضى إلى اندلاع ذلك الصراع العنيف الذي انتهى بإقصاء الأمة الألمانية.

أما في المجامع الدينية الكبرى التي انعقدت في بداية القرن الخامس عشر، وأهمها مجمع كونستانس، فقد جرى العمل بنظام الأمم. وبمقتضاه، كانت كل "أمة" مشاركة في أشغال المجمع تضم مجموعة دول متجانسة، كثيرا أو قليلا، من الناحية الجغرافية والتاريخية واللغوية.

وخلاصة القول، هي أن الأمة بالمعنى القديم كانت شكلا أصيلا من أشكال تنظيم المجال والمجتمع الأوربيين. ومن هذا المنطلق نجد أن التجار الأوربيين المقيمين في مرافئ ومراكز تجارية خارج أوربا، بعد عمليات التوسع، كانوا ينتظمون

---

[1] - نشير الى أن الصيغة الفرنسية لهذه العبارة وهي "mourir pour la patrie" تمثل عنوان كتاب أصدره بباريس سنة 1984 ضمن منشورات المطابع الجامعية الفرنسية (P.U.F.).

في "أمم". وكل واحدة من تلك الأمم كانت تضم التجار المنحدرين من نفس المدينة، أو المنحدرين من نفس الجهة. وكانت هذه الأمم بمثابة تمثيليات، أو مؤسسات مساعدة.

9) النبوءة السياسية

نشأت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشرظاهرة جديدة عبرت عن نفسها بقوة : إنها ظاهرة النبوءة السياسية. فقد جعلت قراءة كتاب العهد القديم، والتدبر في معانيه، رجال الاكليروس يولون أهمية كبرى للأنبياء، وللمظاهر السياسية التي تجلت فيها نبوءاتهم. وتعد الباحثة كوليت بون (Colette Beaune)[1] أبرز من توقف عند هذه المسألة. فقد أوضحت بأن معظم ممالك أوربا، والمدن الدول الايطالية كانت تصنع خلال القرن الرابع عشر نبوءات خاصة بها.

ففي فرنسا مثلا، تم الترويج آنذاك لنبوءة جعلت الملك شارل يعتلي سدة الحكم وهو في سن الثالثة عشرة، ويتفوق على المنتفضين، ثم على الأنجليز، ويوضع فوق رأسه تاج امبراطوري في روما وآخر في بيت المقدس، ثم يقوم بغزو الأرض المقدسة ويتوفى في القدس.

وفي اسبانيا ارتأى مروجو النبوءة أن يكون فردناند ملك أرغونة البطل الذي بشر المسيحيين بالنصر النهائي على المسلمين، ويقيادتهم لإقامة عالم جديد.

والمحصلة كما توضح ذلك الباحثة كوليت بون هي أن "النبوءة أضحت عند نهاية القرن الخامس عشر عملة متداولة في جميع أنحاء أوربا. وقد استعملت لتبرير الحروب الايطالية. وهذه النبوءة بالذات هي التي كانت وراء خوض كريستوف كولومبس لغمار المحيطات. وبما أن الأفراد والمجتمع كانوا يلاقون صعوبات في تمثل فكرة التقدم، فإن النبوءة كانت من الوسائل القليلة التي لجأوا إليها لتمثل مستقبل كان مسطرا من قبل".

ومهما يكن من أمر، فإن أوربا النبوءة، تحيل، في نهاية المطاف، إلى أوربا المنتصرة والمهيمنة، أوربا الأزمنة الحديثة.

10) الطباعة

[1] - مؤرخة فرنسية من مواليد 1943. تحاضر في التاريخ الأوربي الوسيط بجامعة نانتير. ناقشت سنة 1984 أطروحة جامعية لنيل دكتوراه الدولة في موضوع "نشأة أمة فرنسا" نشرتها خلال السنة الموالية. وأنجزت بحثان تناولت فيهما ظاهرة النبوءة السياسية في أوربا.

في الوقت الذي كانت فيه أوربا القرن الخامس عشر تحلم بغد مجيد، كانت تنفتح على حضارة جد سعيدة. فقد اتسع نطاق القراءة، كما حققت الكتابة والكتاب نجاحا بفضل اكتشاف الطباعة.

ظهرت أولى أشكال الطباعة في الغرب حوالي سنة 1400 فيما يبدو. وكانت عبارة عن لوحات من خشب تحمل نقوشا بارزة، استعملت لإعادة إنتاج نصوص على الورق تسمى كسيلوغرافيا (xylographies). ولم تكن هذه التقنية فعالة بالمقارنة مع تقنية النسخ اليدوي للمخطوطات والوثائق التي كانت تتم في ورشات متخصصة. كان عشرات الخطاطين في هذه الورشات يقومون بنسخ ما يمليه عليهم أحد الأساتذة.

وقد سهل استعمال الورق إمكانية الطبع، قبل أن يتم الشروع في استعمال تقنية الحروف المعدنية المتحركة حوالي سنة 1450. وكان للألماني يوهان كُتنبركْ (Johannes Gutenberg) الفضل في اختراع هذه التقنية، أو بالأحرى الفضل في ضبط استعمالها وإشاعتها. ولذلك اشتهر بكونه كان وراء ظهور الطباعة.

ومهما يكن من أمر، فقد تم الشروع في استعمال تقنية الحروف في صناعة الكتب بمدينة مايونس (Mayence) الألمانية منذ سنة 1457 في ورشات كان الساهرون عليها يصنعون الحروف المعدنية المتحركة بواسطة قوالب مجوفة تحتوي على قطع نحاسية داعمة لشكل الحرف.

ويبدو أن تقنيات الطبع تطورت بإيقاع سريع، إذ أن تلك الورشات أصدرت خلال نفس السنة أول سفر باللونين الأحمر والأزرق بالإضافة إلى اللون الأسود. وما كاد القرن الخامس عشر يشرف على النهاية حتى كانت الطباعة منتشرة في معظم أنحاء أوربا. كما أدرجت الطباعة ضمن برامج المؤسسات الجامعية، حيث تم تخصيص كرسي علمي لتدريسها بجامعة باريس سنة 1466. وبعد مضي أربع سنوات ظهرت أول مطبعة بباريس. ثم ظهرت مطابع في كل من أنفير (Anvers)، والبندقية، فاقت مطبعة باريس، فغدت المدينتان منارتين في مجال صناعة ونشر الكتاب.

ورغم ذلك، فإن هذه التطورات المتلاحقة لا تعني بأن ثورة تحققت في مجال الطباعة. فقد كان يجب العمل بشكل حثيث لتجاوز كثير من النقائص. وفي انتظار تحقيق هذا المسعى، ظلت الكتب التي أمكن للمطابع وضعها رهن إشارة عموم القراء متدنية الجودة، ومرتفعة الثمن. وتمثلت هذه الكتب في الكتاب المقدس، الذي اهتمت المطابع بتوفير عدة نسخ منه، وفي كتب دينية أخرى. وكان يجب انتظار حلول القرن السادس عشر ليتغير مضمون الكتب المطبوعة. ومع ذلك، فقد أثر الكتاب في طبيعة

المعرفة وفي عملية القراءة، مما مهد الطريق أمام ظهور أجيال جديدة من القراء في أوربا.

11) اقتصاد ـ عالم

مثل القرن الخامس عشر فترة انفتاح كبير بالنسبة لاقتصاد أوربا. وقد وجد هذا الانفتاح الاقتصادي في شخص فرنان بروديل مؤرخا كبيرا رسم خطوطه وشرح تفاصيله من خلال مفهوم : "اقتصاد-عالم" (l’économie-monde) الذي استحدثه.

ويفيد هذا المفهوم بأن مجالا اقتصاديا تشكل. وكانت تتم فيه مبادلات اقتصادية منتظمة موجهة من طرف مدينة أو جهة مركزية. وفي ضوء هذا التعريف، يمكن القول بأن علاقات اقتصادية منتظمة قامت خلال القرن الرابع عشر بين أوربا الشمالية، ومنطقة الفلاندر، والعالم الأسيوي، والمرافئ الايطالية الكبرى كجنوة والبندقية. فتشكل تبعا لذلك اقتصاد-عالم أوربي أضحت مدينة أنفير تمثل مركزه خلال القرن الخامس عشر[1].

ويتضح جليا بأن هذا التنظيم الاقتصادي، الذي أعقب العولمة الرومانية التي انحصرت في العالم المتوسطي، مثل أول عولمة كبرى حديثة. وكان واضحا أن تعمل هذه العولمة على اغتناء المدن، والجهات، والفئات الاجتماعية، والعائلات التي ساهمت فيها. وبالمقابل، كان واضحا أيضا أن يكون هذا الغنى على حساب ضحايا لم تنصفهم تلك المبادلات. ولذلك، فإن مدنا كثيرة تزايد عدد فقرائها، وأضحت فيها فئات عديدة تعيش على الهامش.

وقد وضح فرنان بروديل بأن عولمة من هذا القبيل لا تنحصر فقط في الميدان الاقتصادي، ولكنها تتجلى أيضا على مستوى النظام السياسي والحياة الثقافية. وهكذا فإن اقتصاد-العالم أدى على المستوى السياسي إلى حدوث، ما يمكن تسميته "بالتوازن الأوربي". وباختصار، فإذا كانت المبادلات الاقتصادية قد اتجهت في أوربا نحو العولمة، فإن هذا الاتجاه أفضى إلى تفاقم اللامساواة الاجتماعية والاختلالات السياسية.

---

[1] - لمزيد من التفاصيل بخصوص دلالات مفهوم "اقتصاد-عالم" يمكن العودة لمؤلفي فرنان بروديل :

- Civilisation matérielle, économie et capitalisme (XV^{e} - XVIII^{e} siècle) Paris, Armand Colin, 1967, 3 tomes.

تتوفر نسخة عربية من الكتاب وضعها مصطفى ماهر، وصدرت عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع بالقاهرة بين سنتي 1992 و1995 في ثلاثة أجزاء. وأعاد المركز القومي للترجمة بالقاهرة نشر الأجزاء الثلاثة سنة 2013.

- La dynamique du capitalisme, Paris, Arthaud, 1985.

يمكن الاطلاع على ترجمة عربية للكتاب أنجزها شفيق محسن، وصدرت عن دار الكتاب الجديد المتحدة ببيروت سنة 2008.

12) أوربا تنفتح وتتفتح

وجد هذا التطور الذي حدث في أوربا، والذي غلب عليه النمو والانفتاح، مجالا للإخصاب تجلى فيما يصطلح على تسميته بالنهضة التي ظهرت معالمها بجلاء منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وأذكر القارئ هنا بأنني توقفت مليا في كتاب "عصر وسيط بالصور" (Un Moyen Age en images)[1] عند التعابير الايكونوغرافية لهذا الانفتاح. وأعود للتأكيد مرة أخرى بدون تردد بأن معظم الرسوم واللوحات تركز أولا، وقبل كل شيئ، على الطفل المقدم كقربان، أي المضحى به، ليس في الحياة اليومية حيث كان يحظى بحب والديه، ولكن بوصفه قيمة كما وضح ذلك فليب آرييس (Philippe Ariès) بدوره.

ومن نافلة القول، أن هذه القيمة ارتقت إلى هذا المستوى لأنها ارتبطت بمسألة المسيح الطفل التي شكلت موضوع بحث في نصوص الأناجيل الغير الأصيلة التي تزايدت أعداد نسخها المتداولة تحت تأثير عملية تقديس عيسى الطفل. وقد غدا عيسى الطفل، في سياق هذا التقديس، طفلا جميلا يعرض لعبه، وهو في ذات الوقت طفل يهيمن على عالم الأطفال الملائكة.

ولا بأس من التذكير بأن عملية تقديس عيسى الطفل تأكدت بموازاتها أهمية المرأة من خلال عملية تقديس مريم العذراء، التي غدت صورها،هي الأخرى، منتشرة في كل مكان. فكانت بعض الصور تظهرها امرأة باكية مثيرة للشفقة تضع ابنها على ركبتيها (la Vierge de pitié ou pietà). بينما كانت صور أخرى تظهرها في هيأة أنثى عذراء راعية للمستضعفين (la Vierge de miséricorde). والملاحظ أن تلك الصور أزاحت من المشهد حواء المرأة الخطيرة، ووضعت في الواجهة حواء المثيرة للرغبة، أي حواء الأرض التي يضاهي جمال وجهها (محياها) جمال وجه العذراء.

وقد ظهر شكل فني جديد في مطلع القرن الرابع عشرسيحقق نجاحا خارقا فيما بعد. تمثل هذا الشكل الفني فيما يعرف بالبورتري (le portrait) الذي هو عبارة عن منتوج يؤكد حضور الشخص ويجسد الاتجاه نحو الواقعية، سواء كان الشخص موضوع الصورة حيا أو ميتا. كما أن صور وجوه الأشخاص، الذين كانت ترسم لهم صور أو توضع لهم تماثيل وهم ممتدون (des gisants)، أضحت حقيقية أكثر من أي وقت مضى. والملاحظ أن أقوياء زمانهم، من باباوات، وملوك، وسناتيير،

[1] - صدر هذا الكتاب بباريس سنة 2000 .

وأغنياء، هم الذين كانوا موضوع "البورترهات" القديمة الأولى. ثم بعد ذلك بدأت "تهب رياح الديمقراطية" على هذه المنتوجات الفنية.

واستفاد واضعو البورترهات، في انجاز أعمالهم، من اكتشاف الصباغة الزيتية في القرن الخامس عشر. كما استفادوا من تطور فن الرسم على الدعامات. ولذلك ظلت للبورترهات حظوة طيلة فترة من الزمن، يحق معها القول بأن "أوربا البورترهات" قد ولدت. وستستمر هذه الأشكال الفنية في التطور والتوهج حتى القرن التاسع عشر لتتسلم منها الصورة (la photographie) المشعل.

وأعتقد بأن تفتح أوربا تأكد أيضا بتطور فن الطبيخ. فقد تحسن كثيرا. وتزايدت أعداد الولائم والمآدب الفاخرة التي أقبل الأكابر على تنظيمها مثل مأدبة 1445 الشهيرة التي أقامها دوق بوركونيا.

وقدمت الألعاب بدورها إضافة نوعية في عملية التفتح. وقد أقبل عليها الأفراد من مختلف الفئات الاجتماعية، وتنوعت بين ألعاب الورق، وألعاب الرهان، التي انتشرت في أنجلترا بشكل خاص. وكأن الناس الذين أقبلوا على تلك الألعاب حاولوا العودة إلى عالم الفرسان والفروسية لمداراة مضاعفات الطاعون. وهذا ما تحدث عنه المؤرخ الهولندي يوهان هويزينگا باستعماله لمجموعة عبارات من قبيل "نكهة الحياة الصعبة"، و"تطلع الأفراد نحو حياة أفضل"، و"الحلم بالبطولة والحب"، و"الحلم بحياة شاعرية". ويمكن الاضافة في ذات السياق بأن الأوربيين لم يعودوا يرقصون فقط "رقصة الموت" التي سبق الحديث عنها، بل انخرطوا كذلك في رقصات جماعية بمناسبة الحفلات والمناسبات، كانت تتم على إيقاع موسيقى آخذة في التجدد منذ القرن الرابع عشر في سياق النمط الموسيقي المعروف بالآرس نوڤا (l'ars nova) الذي كان يسمح آنذاك باستغلال كل الطاقات الصوتية، واستعمال جميع الآلات الموسيقية المتوفرة.

ومما لا شك فيه، أن اللحظة كانت غنية بالدلالات. فخلالها أكدت أوربا ذاتها عن طريق الرقص، والغناء، واللعب، والموسيقى.

13) فلورنسا زهرة أوربا ؟

اجتمعت جميع تعابير التفتح، الذي سبق الحديث عنه، في فلورنسا القرن الخامس عشر. فمظاهر ما يسمى بالنهضة تجلت في هذه المدينة التي غدت في القرن الخامس عشر أفضل نموذج يجسد تطور المدينة- الدولة نحو نظام الاستبداد المستنير. وحصل هذا التطور نتيجة جهود عائلات كبرى جمع أفرادها بين التجارة والأعمال البنكية، وعلى رأسهم عائلة المديتشي. والملاحظ أن التطور في هذه المدينة، لم يكن

يسير في نفس الاتجاه الذي كان يسير فيه مستقبل أوربا السياسي، لأن ذلك المستقبل كانت موعودة به دول مثل فرنسا، وأنجلترا، أو قشتالة. ولكن الأنظمة الحضرية المستبدة كانت خادمة للفن. ومن هذا المنطلق، فإن العائلات التي حكمت المدن، والمدن-الدول في ايطاليا كانت راعية للفن.

ويعد لورينزو الرائع (Lorenzo il Magnifico)، أحد أفراد عائلة المديتشي، واحدا من بين أبرز رعاة الفن المشار إليهم. وكان هو نفسه شاعرا رقيق الإحساس. ورث السلطة عن أبيه كوزيمو (كوسم) (Cosme) الذي حكم فلورنسا بين سنتي 1434 و1464. واشتهر هذا الأخير بكونه كان مولعا باقتناء وجمع التماثيل الرومانية، والأحجار الكريمة، وقطع النقود القديمة، والميداليات. كما اشتهر تيشجيعه، لعموم الناس عامة وللمثقفين بوجه خاص، على إقامة خزانات الكتب. وكان يتوفرعلى خزانة شخصية تضم ما ينيف عن 400 مجلد، بعضها لا يتوفر في ايطاليا، اشتراها من أوربا ومن الشرق، أو أمر باستنساخ ما لم يتمكن من شرائه منها. وكان جناح من إحدى إقاماته بمثابة صالون أدبي. تحول بعد ذلك إلى أكاديمية أفلاطونية يديرها مارسيليو فشينو (Marsilio Ficino) أحد أبناء طبيب كوزيمو الذي درس وتكون على نفقة هذا الأخير. ولم يكن فشينو العالم الوحيد الذي "احتضنه" كوزيمو، فقد احتضن ورعى عددا آخر من أهل العلم والفن. وبالإضافة إلى ذلك اشتهر كوزيمو بتشييد عدة منشآت دينية ودنيوية. تراوحت بين قصور، ومؤسسات تعليمية، ومراكز صحية، وكنائس، وأديرة، ومونـاستيرات وغيرها.

وعلى كل، اشتهرت فلورنسا باحتضانها لأروع المنشآت التي تجلى فيها إبداع أكبر الفنانين من رسامين ونحاتين. وبها تقع أبواب البابتستير (les portes du Baptistère) التي تجسد أفضل ما تم إبداعه في مجال النحت، وأحدث ما تم التوصل إليه في مجال الرسم عند مطلع القرن الخامس عشر. ولم يتجل الابداع في هذه البواب فقط، بل تجلى أيضا في منشآت أخرى، من بينها قبة كاتدرائية المدينة.

وأكتفي بما استعرضته من نمادج تجلى فيها ابداع فن مطلع القرن الخامس عشر لأنني لا أنوي هنا الحديث عن تاريخ الفن بفلورنسا. أضيف فقط بأن الفنانين والعلماء وجدوا في عائلة المديتشي من رعاهم وشجعهم على الابداع كما سبق القول. ولا شك أن هذه الرعاية وهذا التشجيع، كانا وراء مقدم العديد من علماء وفناني بيزنطة إلى فلورنسا بعد سقوط القسطنطينية في حوزة الأتراك العثمانيين. فأسهموا بقسط في نهضة المدينة.

ولعل أبرز مظاهر التجديد في تلك النهضة تجلت في انبثاق تيار الأفلاطونية الجديدة حول مارسيليو فشينو ورواد الأكاديمية التي كان يشرف عليها. والحقيقة أن

هذا التجديد في حد ذاته، كان يمثل امتدادا لذلك الموقف الفكري الذي ميز العصر الوسيط، وهو وضع ثياب قديمة على الأفكار الجديدة، حتى غدا هذا الموقف تقليدا أوربيا ميز جميع النهضات منذ الفترة الكارولنجية حتى نهاية القرن الثامن عشر.

14) من أقطاب الفكر المنفتح في القرن الخامس عشر

برز جمهور كبير من العلماء والفنانين في القرن الخامس عشر. وقد قام عدد من الباحثين بالتعريف بهم وبتسليط الضوء على أعمالهم. ولكن ثلة منهم ظلت مغمورة، ومن بينهم الألماني نيكولا دي كوزا (Nicolas de Cuesa)، والبولندي باويل ڤلودكوڤيتش (Pawel Wlodkowic) (أو باولوس فلاديميري).

أ) الألماني نيكولا دي كوزا

ولد سنة 1401 في قرية صغيرة تدعى كوزا (Cusa) تقع على ضفاف نهر الموزيل. ثم تنقل بين عدة مدن أوربية درس بها الفنون والقانون واللاهوت. وشارك في أشغال المجمع الديني الذي انعقد ببال سنة 1432. ثم ارتقى إلى مصاف الكاردينالات، واشتغل لحساب عدد من الباباوات، أمثال البابا أوجين الرابع (Eugène IV) واينيا سلڤيو (Enia Silvio) (أو بيوس الثاني)، الذين أناطوه بمهام إدارية وسياسية أبان فيها عن مقدرة عالية. ولكن تلك المهام لم تصرفه عن البحث والتأليف في مجال الأدب واللاهوت. فوضع سنة 1440 كتاب "العالم الجاهل" (De docta ignorancia) المؤلف من ثلاثة أجزاء : جزء أول عرف فيه بالله، وجزء ثان خصصه للكون، وجزء ثالث للمسيح. انطلق في هذا الكتاب من فكرة مفادها أن المرء غير قادر على بلوغ الكمال في معرفة الله مهما اتسعت معارفه. ولكن هاته المعرفة، الضرورية كأداة في التعرف على الله، تسمح للمتسلح بها من التعرف على الكون بصورة أفضل. وأنكر بالمناسبة على أرسطو وبطوليمي قولهما بثبات الأرض وسط العالم، رغم أن وجهة نظره هاته لا تفيد بكونه مهد الطريق لما سيقول به كوبيرنيكوس في هذا الشأن. وكان يرى بأن الكون لا متناهي، ويقع مركزه في كل مكان، كما يقع محيطه في كل مكان. وبما أن تأكيد مثل هذه القضايا يحتاج إلى شروح، فقد وجد نفسه يخوض في علوم الرياضيات، عامة وفيما له صلة بمسألة التربيع بوجه خاص، قصد التمكن من حل الإشكالات الرياضية. ولكن استمراره في البحث أوصله إلى قناعة وهي أن الرياضيات العقلانية غير كافية لبلوغ المراد، ولا بد من إيجاد فرع مكمل لها

يتمثل في "رياضيات عليا" أو "رياضيات فكرية". فوجد نفسه يضع لبنات ما سيعرف على يد ليبنيز ونيوتن بحساب التفاضل.

وبما أن صلة نيكولا دي كوزا بالباباوات ظلت قائمة، وخاصة مع البابا اينيا سلڤيو الذي كان من مقربيه، فقد شاركهم انشغالاتهم بأمور العقيدة وبضغط الأتراك العثمانيين على العالم المسيحي، ففكر في إقرار نوع من "هدنة العقيدة" بين المسيحيين. وكان يرى في هذا المجال بأن القائمين على الديانات في العالم مطالبين بتجاوز حدود كل عقيدة على حدة والإقرار بأن جميع الديانات تقوم في الأساس على نفس الثوابت، وأن الاختلافات المذهبية (بين الأديان) ليست اختلافات حول الثوابت بقدر ما هي اختلافات في الشعائر. ورغم أنه كان يرى بأن العقيدة واحدة مشتركة بين الأديان، فقد كان يميل في قرارة نفسه إلى تفضيل المسيحية.

وعلى كل ، رغم أن نيكولاس لم يذهب بعيدا في هذا الاتجاه فقد نال شرف السبق إلى طرح مسالة التعدد الديني بكل وضوح وشفافية. وهو بذلك لم يكن أول من وضع أسس ما يعرف بالحوار المسكوني، وإنما كان أول من حاول وضع أسس التسامح الذي كان العصر الوسيط يفتقد إليه كثيرا.

ب) البولندي باويل ڤلودكوڤيتش

ولد سنة 1350 وتوفي سنة 1435. درس في مدينة بادو (Padoue). وشغل منصب رئيس جامعة كراكوڤيا. كما قام بدور بارز في أشغال المجمع الديني المنعقد بكونستانس، ورغم ذلك ظل شخصا مغمورا، ولكنه أنجز مؤلفا بالغ الأهمية أغفل الحديث عنه المؤرخون. وتكمن أهميته في كونه قدم إضافة في حقل الفكر السياسي الأوربي.

أصدر فلودكوفيتش هذا المؤلف سنة 1410، أربع سنوات بعد وقعة كُرونڤلد (Grunwald) التي دارت رحاها بين البولنديين والفرسان التوتونيين. وقد توقف مليا عند الصراع بين الطرفين، الذي توج بتلك الوقعة، وارتأى معالجته من زاوية قانونية آخذا بعين الاعتبار دور الكنيسة في حياة المجتمع المسيحي في العصر الوسيط. فرأى أن هذا الصراع كان يمكن تجنبه لو كان غير المسيحيين يتمتعون بحقوق مدنية وسياسية، على غرار الأقليات، كاليهود. واقترح أن يطبق في حقهم القانون إذا كانوا يجنحون للسلم ويرغبون في العيش بين المسيحيين. وسيرتكب أي ملك خطيئة إذا ما حاربهم دون مبرر أو صادر ممتلكاتهم. ويمكن التعامل بذات الطريقة مع الطوائف المسيحية التي تتبنى أفكارا مناوئة للكنيسة. وكأنه أراد أن يذكر الكنيسة بمقولة الدين لله والوطن للجميع. أما الوثنيون وغير المسيحيين الذين يعيشون في أوطانهم، فمن

حقهم الوجود، وإتباع الدين الذي ارتضوه لهم، لأن وجودهم هو بأمر الله، كأمره للشمس التي تشرق بأنوارها على الجيد والسيئ، على الخير وعلى الشر.

ويبدو في ضوء ما تقدم أن فلودكوفيتش وضع، من خلال وجهة نظره، أسس القانون الدولي، وأن أوربا التي اقترحها لا تتطابق مع الحدود التي كانت تسود فيها المسيحية.

15) انمحاء الإمبراطورية ؟

رغم التحولات التي شهدتها أوربا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كان من الصعب أن يتخيل أحدهم اختفاء الإمبراطورية كحقيقة ترابية وسياسية، وكمعطى يؤثث المخيال الأوربي. وكل ما تواترته النصوص في هذا الشأن هو تدهور الإمبراطورية، أو تجزئة الإمبراطورية، لأن هذا الكيان السياسي ، ظل تعبيرا رمزيا عن الوحدة الأوربية رغم تبلور ممالك وطنية، كفرنسا وأنجلترا، وظهور مجموعة دول- مدن في ألمانيا وايطاليا.

وتجلت بعض جوانب هذه الحقيقة في الخامس والعشرين من شهر دجنبر 1356 حين أصدر شارل الرابع، الذي حكم الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة بين سنتي 1347 و1378، مرسوما نص على إصلاح بنية وطريقة عمل هيئة الناخبين للإمبراطور. فقد أصبح عددهم سبعة بموجب هذا المرسوم. يتمثلون في أساقفة كل من مدن مايونس (Mayence) وكلوني (Cologne) وتريڤ (Trêves)، وملك بوهيميا، وماركيز براندبورڭ (Brandebourg)، ودوق دوقية ساكس- ويتنبرڭ (Saxe-Wittenberg)، والقمط البلاطي (Comte palatin) حاكم قمطية الراين. كما أضحى الإمبراطور يحكم بمساعدة جمعية تشريعية (رايشتاغ)، كانت تتشكل منذ هذا التاريخ من "الدول"، يعني الأمراء اللائكيين والدينيين، ومن مدن الإمبراطورية. وبموازاة هذه الإجراءات، حاول الامبراطور نشر ما يعرف بالسلم الإمبراطوري (Reichslandfriede) في ربوع الإمبراطورية. ولكن تأثيره بدا محدودا مقارنة مع تأثير سلم أمراء الجهات (Landfrieden). وكان هؤلاء الأمراء هم المشرفون أيضا على سير المؤسسات الدينية، ولذلك انتفى وجود كنيسة مركزية في الإمبراطورية.

ويبدو، أن انقسام الإمبراطورية إلى جهات أمر أثر على الطابع الأوربي لألمانيا منذ القرن الخامس عشر، لأن هذه الأخيرة كانت مقسمة فعلا إلى 350 جهة (Land-schaften) كان رؤساؤها هم المشرفين الفعليين على سير المؤسسات الدينية، والمؤسسات القضائية، وعلى جباية الضرائب، وتدبير الشؤون العسكرية.

ولا بأس من الإشارة إلى أن قوة الجهات كانت متفاوتة. وفي سياق هذا الجنوح نحو الجهوية ظهرت في ألمانيا، منذ القرن الخامس عشر، ثلاث قوى اقتسمت النفوذ في المناطق الشرقية هي: البراندبورڭ (le Brandebourg)، والساكس (la Saxe)، والنمسا (l'Autriche). وقد تمكن الهوهنزولرن (les Hohenzollern) ماركيزات الجهة الأولى (أي البراندبورڭ) منذ سنة 1442 من بسط نفوذهم على كبريات المدن، وأهمها برلين، ومن استعادة ثغر كان تحت سيادة التوتونيين. وتمكنوا أيضا من توسيع دائرة نفوذهم على حساب القوى المجاورة. وأعادوا تنظيم المؤسسات القضائية والجبائية. ونجحوا بذلك في إرساء دعائم ما يشبه مملكة وراثية، أصبح يعتلي عرشها الذكور البكر بمقتضى قانون منظم للحكم صدر سنة 1473.

وخلافا لماركيزة البراندبورڭ،، ظلت جهة الساكس دوقية متواضعة. أما جهة النمسا، فقدر لها، بعد فترة مخاض وتجاذبات سياسية، أن تغدو كيانا قويا على يد مكسمليان النمساوي (Maximilien) بعد اقترانه سنة 1477 بماريا (Marie) ابنة شارل الجريء (Charles le Téméraire) دوق بورغونديا. وبما أنها كانت الوريثة الوحيدة لأبيها، فقد آلت لمكسمليان دوقية بورغونديا، والأراضي المنخفضة التي كان يشملها حكم شارل.

وابتداء من سنة 1486، تم انتخاب مكسمليان ملكا على الرومان. ولم يؤل جهدا في توسيع مجال نفوذه. فضم إلى سلطته فيينا، وتيرول، وبوهيميا، وهنغاريا. وعند وفاة والده الامبراطور فردريك الثالث سنة 1493 أصبح يحكم كيانا شاسع المساحة يمتد من تريستي (Trieste) بشمال شرق ايطاليا حتى أمستردام بالأراضي المنخفضة. وقد احتلت النمسا موقعا متميزا في هذا الكيان، واستمرت قوتها في التنامي حتى غدت عشية انبثاق الأزمنة الحديثة من أقوى الكيانات السياسية الأوربية.

16) خارطة أوربية بسيطة

تميزت خارطة أوربا السياسية خلال القرن الخامس عشر بكونها أخذت تتجه نحو البساطة باستثناء الإمبراطورية، وما سيحدث في ألمانيا.

ويجب التأكيد على أن هذا الاتجاه نحو البساطة حدث دون "علم الناس" لأن الصراع بين فرنسا وأنجلترا كان يشغل العقول. وانتهت فصول هذا الصراع بانتصار فرنسا. حيث تمكن شارل السابع، المعروف بشارل المنتصر، من استعادة كثير من الأراضي التي سبق أن فقدتها فرنسا. إذ استعاد باريس سنة 1436، ثم نورمانديا سنة 1449، وبعدها بايون سنة 1451. وتأكد انتصار فرنسا في موقعة فورميني (Formigny) في أبريل 1450، وفي موقعة كاستيون (Castillon) في يوليوز

1453. ولم تتمكن أنجلترا من استعادة زمام المبادرة بعد فشل هنري السابع في حملة على منطقة بولوني (la Boulogne). فتخلت على اثر ذلك على جميع ممتلكاتها القارية باستثناء مدينة كالي (Calais). وبذلك انتهت فصول حرب المائة سنة.

وحققت فرنسا نصرا آخر حين نجح ملوكها في إحباط محاولة قيام كيان سياسي في مناطقها الشرقية. ورغم خسارتها للأراضي المنخفضة التي آل حكمها لمكسمليان بعد اقترانه بابنة شارل الجريء المتوفى سنة 1477، فقد عوضت تلك الخسارة باسترجاع كل من بيكارديا (la Picardie)، ومنطقة بولوني، ودوقية بورغونديا، ومنطقتا أرتوا (l'Artois) وفرانش- كونتي (la Franche-Comté) بموجب معاهدة صلح آراس التي ابرمها لويس الحادي عشر (Louis XI) مع مكسمليان في دجنبر 1482. وعادت أيضا قمطية أنجو (Anjou) لحظيرة المملكة سنة 1475 بعد أن تعذر على ملكها روني (René)، سليل الآسرة الأنجولية، إيجاد خلف يرث عرشه. وقام بهذا التنازل نظير أن يظل أحد أصهاره محتفظا بحكم قمطيتي المين (le Maine) وبروڤونس (la Provence). وظل هذا الاتفاق ساري المفعول حتى سنة1481، حيث أضحت القمطيتان جزءا من المملكة الفرنسية. فشكل هذا الأمر مقدمة نحو تسوية وضعية ممتلكات التاج الفرنسي في الجنوب، "ورسم الحدود" مع كل من ناڤار وأرغونة.

ولم تبق خارج نفوذ التاج الفرنسي في أواخر القرن الخامس عشر سوى دوقية بروطاني (la Bretagne) التي أصبحت بدورها تحت السيادة الفرنسية بعد زواج آن (Anne)، ابنة فرانسيس الثاني (François II)، ووريثة عرش الدوقية، من الملك شارل السابع سنة 1491. ثم تأكدت هذه العودة بصفة نهائية سنة 1499 حين تزوجت آن للمرة الثانية بلويس الثاني عشر خليفة شارل.

وعلى غرار خارطة فرنسا، اتجهت الخارطة السياسية في شبه جزيرة ايبيريا نحو البساطة. فبعد فترة صراع وتجاذبات بين ملوك البرتغال وملوك كل من قشتالة وأرغونة هدأت الأوضاع في شبه جزيرة ايبيريا. وتخلى ملوك البرتغال عن رغبتهم في ضم قشتالة. وقد حدثت التسوية بين مختلف قوى الصراع بمقتضى معاهدة ألكشوفا (Alcaçovas) التي أبرمها ألفونسو الخامس ملك البرتغال مع الملوك الكاثوليك (إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة وفرديناند الثاني ملك أرغونة) في شتنبر 1479. وقد حدث قبل إبرام هذه المعاهدة أن انضمت قمطية قطلونيا إلى حضيرة مملكة أرغونة، بينما كان فرديناند ملك أرغونة قد تزوج إيزابيلا ملكة قشتالة. فسرعت هذه الأحداث من وتيرة الاتجاه نحو الوحدة في اسبانيا.

ويبدو أن هذه الأجواء ألهبت حماس الملوك الكاثوليك، فشنوا حربا صليبية جديدة على آخر مملكة إسلامية في شبه جزيرة ايبيريا وقاعدتها غرناطة. ونجحوا في استرداد مالقة سنة 1487، ثم باجة، وألمرية سنة 1489. وتمكنوا أخيرا من استرداد غرناطة يوم ثاني يناير 1492 بعد أن شددوا عليها الحصار فترة طويلة.

وشهدت السنة ذاتها طرد اليهود من قشتالة، واكتشاف كريستوف كلومبوس، العامل لحساب ملوك اسبانيا، لأرض جديدة ستحمل اسم أمريكا.

17) التهديد التركي

تواصلت تهديدات الأتراك العثمانيين لمناطق أوربا البلقانية منذ أواسط القرن الرابع عشر. وقد أفضت الى سيطرتهم على مدينة كاليبولي (Gallipoli) (Kallipolis). ثم تقدموا نحو منطقة تراقيا بين سنتي 1353 و1356. وتمكنوا من ضم سلونيك سنة 1387. وألحقوا بعدها بسنتين هزيمة نكراء بالصربيين في كسوڤو. وحاول الأوربيون التصدي لهم في حرب صليبية، ولكنهم هزموا في وقعة نيكوبوليس سنة 1396. فواصل الأتراك العثمانيون، على اثر ذلك، زحفهم الذي توجوه بالسيطرة على القسطنطينية سنة 1453. وخلف هذا الحادث صدى كبيرا في أوربا، ولكن الرد عليه كان ضعيفا. ولذلك واصل الأتراك العثمانيون إحكام سيطرتهم على مدن ومناطق أوربية مثل البوسنة. وشرعوا في التوغل في مناطق أوربا الغربية، حيث نجحوا سنة 1480 في بسط سيادتهم على أوترانتي (Otrante) بجنوب ايطاليا. وهددوا ممتلكات إمبراطورية جنوة بسيطرتهم على كافا سنة 1475.

خلف سقوط القسطنطينية صدى قويا في أنحاء أوربا حسبما يتضح من رسالة بعث بها البابا بيوس الثاني (Pius II) إلى المفكر الألماني نيكولا دي كوزا (Nicolas de Cues) يوم 21 يوليوز1453 نبهه فيها بأن زحف الأتراك العثمانيين على سواحل ايطاليا المشرفة على بحر الأدرياتيكي، يشكل تهديدا حقيقيا للعالم المسيحي. وعبر له بصريح العبارة بأن "السيف التركي يوجد اليوم معلقا فوق رؤوسنا، ونحن منشغلين في حروب عقيمة. ونقوم بمطاردة إخواننا، ونترك أعداء الصليب ينقضون علينا". وعاد البابا ليذكر بانقسام العالم المسيحي، وعدم قدرته على التصدي للمد العثماني في رسالة بعث بها يوم 25 شتنبر1453 للمدعو ليوناردو بنفكلينتي (Leonardo Benvoglienti) سفير سيينا (Siena) في البندقية. وأهم ما يلاحظ في الرسالة هو أن البابا استعمل فيها كلمة "أوربا" في قوله : " وهذا هو وجه أوربا، وهذه هي وضعية الديانة المسيحية".

18) المشروع الأوربي لجورج بوديبراد

تزامنت رسائل البابا، والأحداث العسكرية السالف ذكرها، مع محاولات كان يقوم بها ملك بوهيميا، معتنق الهوسية المعتدلة، جورج بوديبراد (Georges Podiebrad) لاحتواء المد العثماني. ولتحقيق هذا المسعى، اقترح إنشاء جمعية (لم ينعتها بالأوربية) قوامها المسيحية الكاثوليكية. وقد مثلت محاولة بوديبراد أول مشروع يروم قيام جامعة تلتئم فيها أوربا موحدة.

وردت تفاصيل المشروع الجامع (l'Universitas) في نص لاتيني يعود لسنة 1464. ارتأى قسطنطين جلينيك (Konstantin Gelinek)، الذي قام بترجمته، أن يختار له كعنوان : "معاهدة من أجل أوربا" (Tractatus pour l'Europe). وقام جون- بيير فاي (Jean-Pierre Faye) بإصدار كتاب سنة 1992 تحت عنوان : "أوربا واحدة" تضمن هذا النص[1].

أقر ملك بوهيميا في مشروعه صراحة بأن تحقيق الوحدة يقتضي، قبل كل شيء، وضع حد للحروب بين الدول الأوربية. وبناء عليه، فإن السلم بين الأوربيين يمثل المقصد والأداة، او بعبارة أخرى، السلم هو هدف الوحدة ووسيلة تحقيقها في ذات الوقت. هكذا حصل منذ خمسة قرون أن رفع نداء من أجل أوربا مسالمة. وشكل السلم مطلبا رئيسا من أجل وحدة أوربية.

وتضمن المشروع جملة من المقترحات يمكن إجمالها في العناصر التالية :

- تشكيل قوة أوربية مشتركة تتدخل كحكم ووسيط في حالة اندلاع نزاع مسلح بين دولتين.
- إقامة مؤسسات الجامعة في مكان "طاهر" محايد. واتاحة الفرصة لالتحاق أعضاء مسيحيين جدد بالجامعة.
- إقرار ضرائب جديدة، وإيجاد مصادر لتمويل نفقات الجامعة.
- عقد لقاءات دورية (مؤتمرات قمة) كل خمس سنوات في إحدى مدن أوربا.

واقترح بوديبراد أن ينعقد أول لقاء في مدينة بال (Bâle)، على أن ينعقد اللقاء الثاني في مدينة فرنسية، والثالث في مدينة ايطالية.

---

[1]- صدر هذا الكتاب تحت عنوان :"L'Europe une. Les philosophes et l'Europe"، ضمن منشورات دار ݣاليمار. وقام بالتصدير له جاك دولور.

كما أعادت الباحثة كوليت بون (Colette Beaune) نشر نص مشروع جورج بوديبراد كملحق لمقال مطول تحت عنوان :

" Chrétienté et Europe : le projet de Georges Podiebrad au XVe siècle", Chrétiens et sociétés, 1994. (article en ligne) sur http://chrétenssociétés.revue.org/68

- الاتفاق على اتخاذ شعار ورموز موحدة للجامعة، وخاتم، ومصلحة لحفظ الوثائق والمستندات، وأمين مال، وأطقم من الموظفين الساهرين على سير مختلف المؤسسات والمصالح.

- تمتيع كل دولة من دول أوربا (فرنسا، ألمانيا، ايطاليا، اسبانيا) بصوت في الجامعة.

- المصادقة على القرارات بالأغلبية، وفي حالة تعادل الأصوات يتم الفصل باللجوء إلى أصوات المنتدبين الممثلين لكبار السنايير الممثلين في الجامعة. أما الدول الأخرى الموقعة على ميثاق الجامعة، فعلى كل واحدة منها الانضمام، عند اتخاذ القرارات، إلى طرف من الأطراف.

يتضح بجلاء أن العناصر السالف ذكرها تمثل خلاصة مشروع مدهش لم يتم تطبيقه أبدا مع الأسف. .ويحق القول في ضوئه بأن أوربا الموحدة ولدت في وقت سابق لأوانه، أي منذ أواسط القرن الخامس عشر. ومن المدهش أيضا أن أميرا تفرد عن نظرائه، فكان صاحب هذه الفكرة الخارقة بطابعها الحداثي.

19) ايطاليا منارة وفريسة أوربا

تميزت ايطاليا، دون غيرها من دول أوربا، بكونها أثارت انتباه المعاصرين. ورغم عجزها عن تشكيل أمة، فقد ظلت مصدر إلهام العديد من المفكرين الإنسيين. كما أيقظت الشعور الوطني عند بعضهم كماكياڤلي على سبيل المثال. ولكن الواقع يفيد بأن ايطاليا كانت كيانا ممزقا ومتناقضا خلال القرن الخامس عشر. وشكلت في ذات الوقت موطن حركة إنسية، كانت متوهجة منذ هذا الوقت المبكر، وموطن النهضة الكبرى التي ستأتي فيما بعد. ولذلك كانت تستقطب أعدادا من الأوربيين الذين كانوا يزورونها لدواعي دينية وللسياحة أيضا. وكان عدد من الحجاج المتوافدين على مدينة البندقية في اتجاه مدينة القدس والبقاع المقدسة يقضون بهذه المدينة زهاء شهر قبل الإبحار إلى وجهتهم. فكانوا يزورون خلال مقامهم بها ما تزخر به من مآثر عمرانية، ومراقد كبار القديسين.

ويبدو أن ظاهرة التجزئة أخذت تخف تدريجيا. فحكام فلورنسا، مثلا، استطاعوا توحيد إقليم توسكانيا بضمهم لمدينتي بيزا وليڤورنو، فاستطاعوا بذلك أن يرتقوا بمدينتهم- دولتهم إلى مصاف القوى البحرية الكبرى. وبالمثل استطاع حكام البندقية تمتين سيطرتهم على معظم مناطق شمال شرق شبه الجزيرة الايطالية بضمهم لكل من بيرگامو (Bergame)، وبريشيا (Brescia). وعلى غرارهم استطاع حكام ميلانو ضم جنوة.

كانت عمليات الضم تتم عبر حروب بين العائلات الحاكمة لهذه المدن- الدول. وكثيرا ما استقوت بعض تلك العائلات بفرنسا، أو بأرغونة التي كانت لها ممتلكات بالجزر الايطالية. واستمرت تلك الحروب حتى سنة 1454، تاريخ توقيع معاهدة بين العائلات تحت إشراف البابا. وقد أحدثت تلك المعاهدة نوعا من التوازن بين مختلف القوى الايطالية، وجعلت السلم يسود بينها زهاء ربع قرن.

كانت ايطاليا منقسمة على نفسها وبراقة في ذات الوقت كما سبق القول، ولذلك أثارت معظم الأوربيين. ولكن هذه الإثارة ولدت في نفوس المعجبين نوعا من الشهوة جعلت ايطاليا المنارة تتحول إلى ايطاليا الفريسة كما وضح ذلك الباحث جيرولامو أرنلدي (Girolamo Arnaldi) في بحثه "ايطاليا وغزاتها"[1]. وقد تشكلت القوى الغازية من أرغونة والامبراطورية المقدسة وفرنسا.

ويظهر أن فرنسا كانت أبرز المفترسين. وقد كشر ساستها عن أنيابهم منذ سنة 1489، حين طلب البابا اينوسنت الثامن من شارل الثامن التدخل في جمهورية نابولي. ثم أتى دور ليدوفتش حاكم ميلانو الذي إلتمس، سنة 1494، من شارل السالف الذكر التدخل في ميلانو. وانطلقت الجيوش الفرنسية من مدينة ليون، يوم 22 غشت 1494، بدعوى القيام بحرب صليبية ضد الأتراك العثمانيين، لتتجه صوب نابولي التي حطت بها وطالبت حاكمها بالحقوق التي كان يستخلصها ملك فرنسا من عائلة أنجو، فكان هذا التحرك بداية اندلاع الحروب الايطالية.

20) الأوروبي فليب دو كومين

إن أوربا التي كانت تتشكل آنذاك في إطار منظومة إيديولوجية دينية واحدة تستند إلى حقائق وطنية واضحة، بدت وكأنها تفرض نفسها كهوية. ومن ثم، كان على المفكرين والمؤرخين ورجال السياسة، إعادة النظر في تمثلانهم. فقد أخذوا ينظرون لأوربا كهوية. وهذا ما تفصح عنه مؤلفات فليب دو كومين (Philippe de Commynes) أحد أكبر مؤرخي القرن الخامس عشر[2]. فقد قام في أحد تلك المؤلفات

---

[1] - صدر كتاب "L'Italia e suoi invasori" سنة 2004. وصاحبه أستاذ باحث في التاريخ الأوربي الوسيط. حاضر بجامعتي بولوني وروما.

[2] - اخباري ورجل سياسة فرنسي ينحدر من أسرة نبيلة. ولد سنة 1447 وتوفي سنة 1511. عاش طفولته يتيما في وضعية مادية مزرية بعد أن كان أبوه قد بدد ثروته قبيل وفاته. قدر له أن يعود الى حياة النبلاء منذ سنة 1464 حين عينه الملك فليب الطيب (Philippe le Bon) مرافقا عسكريا (écuyer) لابنه شارل، الذي سيعتلي العرش باسم شارل الجريئ.

جمع فليب دو كومين بين العمل السياسي والفكري، حيث وضع بعض المؤلفات، أهمها الكتاب الضخم الذي يشير اليه جاك لو كُوف. أنجز هذا الكتاب بين سنتي 1489 و1498. وقام بننشره المؤرخ والمترجم دوني سوڤاج (Denis

باستعراض لأوضاع العالم المسيحي في عصره. وختم هذا الاستعراض بقوله : "لم أتحدث سوى عن أوربا لأنني لا أتوفر على معلومات تهم القسمين الآخرين، أي آسيا وإفريقيا". واكتفى بخصوصهما بالقول : "يبدو من خلال ما بلغني من معلومات، أنهما يشتركان مع أوربا في خاصيات سلبية هي الحروب والانقسامات". وأضاف في موضع آخر" وفضلا عن ذلك، فإن إفريقيا تشكو من بؤس آخر وهو أن أهلها يبيع بعضهم بعضا للمسيحيين، وإن البرتغاليين بدأوا من هنا تجارة يومية للسود". ويمكن القول في ضوء ما أورده دو كومين بأن مرحلة جديدة انبثقت في أوربا، مرحلة اكتشفت فيها أوربا إفريقيا، وستكتشف بعدها أمريكا. ولكن بداية هذه المرحلة طبعها الخزي والعار بسبب قيام أوربا بتزويد العالم الجديد بعبيد كانوا يؤخذون من إفريقيا.

21) أوربا في ملاقاة العالم الخارجي

لعل أهم ما يثير الانتباه عند رصد تطور أوربا في نهاية القرن الخامس عشر، هو ظاهرة التوسع خارج أوربا. ورغم أن أحد الباحثين خص المكتشفين في العصر الوسيط بدراسة قيمة، فالواقع أن مصطلح "مكتشف"، وكذلك الدور المنوط بهذا الشخص، لم يكونا معروفين خلال هذه الحقبة التاريخية. وبالإضافة إلى ذلك فإن الرحلات القليلة التي قام بها مسيحيون خارج أوربا، كانت إما رحلات تبشيرية، أو رحلات تجارية.

فقد رحل بعض المسيحيين من أجل التبشير، ومن بينهم، على سبيل المثال، الفرانسسكاني جون دي بلان كاربان (Jean de Plan Carpin) الذي رحل خلال القرن الثالث عشر إلى المناطق التي كان أهاليها قد اعتنقوا المسيحية قبيل بداية رحلته، مثل العالم الإسكندناڤي، وبوهيميا، وبولندا، وهنغاريا. وقد حمل، زمن قيامه بهذه الرحلات، رسائل من البابا اينوسنت الرابع إلى الأمراء الروس والخانات المغول، يدعوهم فيها إلى إحداث نوع من التقارب بين دياناتهم والمسيحية الكاثوليكية.

كما رحل بعض التجار من أجل التصدير والاستيراد. وأبرزهم في هذا المجال أفراد عائلة بولو (Polo)، وصهرهم ماركو(Marco) الذين اشتغلوا في التجارة بسيلان. ودخلوا أيضا في خدمة المغول. ويحتمل أن يكونوا قد وصلوا إلى الصين.

وبغض النظر عن الكيانات المسيحية المؤقتة التي أقامها الأوربيون بفلسطين، فإن أهم الحملات الجماعية التي قاموا بها في العصر الوسيط، أفضت إلى تأسيس إمبراطورية تجارية، كانت أحيانا ترابية، وأخذت شكل استيطان، في بعض مناطق

(Sauvage) سنة 1552. وأعيد تحقيق الكتاب ونشره تحت عنوان Mémoires de Philippe de Commynes كما تمت ترجمته الى مختلف لغات أوربا والى الروسية أيضا.

الإمبراطورية البيزنطية والشرق الأدنى. وساهم التجار الايطاليون عامة، وتجار البندقية وجنوة بشكل خاص، بدور قيادي في هذا المجال. ويبدو أن ما أثار اهتمام الأوربيين بمناطق شرق البحر المتوسط هو غناها بالمنتجات، وأهمها العقاقير والتوابل، التي أقترح بعضهم أن عددها كان يقارب سنة 1340، 286 نوعا. والأهم من الرقم، هو أن هذه الأنواع كان بعضها يدخل في صناعة مواد الصيدلة، وبعضها في الصباغة، وبعضها في صناعة المواد العطرية، وبعضها الآخر في تحضير الوجبات والأكلات، لأن الكثير من نساء ورجال العصر الوسيط لم يكونوا يخفون رغبتهم في تناول وجبات تتضمن كميات من التوابل. وكان ربع كمية التوابل المتداولة في مدن أوربا يجلب من الهند، والصين، والشرق الأقصى. وقد كان سعرها مرتفعا لأن مسيحيي أوربا كانوا يقتنونها من التجار العرب المتواجدين بالشرق الأوسط. وكانت هذه المواد تنتقل من موانئ عكا، وبيروت، والإسكندرية في اتجاه موانئ أوربا.

والجدير بالتذكير في هذا الصدد أن تجار البندقية كانوا يمثلون أكبر نسبة من بين التجار الذين تعاطوا لتجارة التوابل عند نهاية العصر الوسيط. وتفيد بعض المعطيات بأنهم كانوا يستثمرون 400 ألف دوقة سنويا في هذه التجارة. وكانوا يبعثون من المرافئ السالف ذكرها إلى أوربا ما بين ثلاثة وخمسة مراكب كل سنة. ويعد هذا الأمر مهما جدا بالنظر لارتفاع سعر التوابل، ولصغر حجمها.

وانضم تجار جنوة، وقطالونيا، وأنكونا لهذه التجارة. ولكن نصيبهم منها كان محدودا، بحيث لم يتجاوز مركبا أو مركبين في السنة.

ومهما يكن من أمر، فالراجح أن رجال الأعمال والمستهلكين الأوربيين الأغنياء انشغلوا كثيرا عند نهاية القرن الخامس عشر بإيجاد مصادر جديدة للتزود بالتوابل، والسكر، فضلا عن الذهب والمعادن النفيسة التي تزايد عليها الطلب.

22) التوجه نحو المحيط الأطلسي وإفريقيا

حاول الأوربيون صرف أنظارهم قليلا عن البحر المتوسط حين أخذت تعكر صفو مياهه قطع أسطول الأتراك العثمانيين. فأخذت أعناقهم تشرئب، منذ نهاية القرن الخامس عشر، نحو مياه المحيط الأطلسي. وبدأ هذا الاهتمام بالاتجاه أولا نحو إفريقيا الغربية.

ولا بد من الاشارة في هذا المقام بأن نظرة الأوربيين لإفريقيا كانت سيئة منذ العصر القديم. ويبدو أنها ازدادت سوءا خلال العصر الوسيط. فقد كان الأوربيون ينعتون الأفارقة "بالإثيوبيين"، كما كانوا يشمئزون منهم بسبب لون بشرتهم الداكن.

أما إفريقيا، فكانوا يعتبرونها موطنا يعج بالثعابين والدواب الضخمة. وعلى غرارها كان الشرق موطن الوحوش، ولكنه كان يحتوي، مقابل ذلك، على كثير من الغرائب والعجائب.

ويمكن الوقوف على مثل هذه الصورة عند غوتيي أو غوسوان دو ميتز (Gautier ou Gossuin de Metz) الذي نظم سنة 1245 قصيدة مطولة باللغة اللورينية عرف فيها "إثيوب" (Ethyope)، أي إفريقيا، بكونها "موطن يقطن به أناس أكثر سودا من القطران. تسود فيه حرارة مفرطة تبدو معها الأرض وكأنها تحترق. وباستثناء الشريط الشمالي، تبدو [إثيوب] عبارة عن صحاري مليئة بالحشرات والحيوانات المفترسة"[1]. وبناء على هذه الصورة، يبدو أن التواصل الوحيد المثمر بين أوربا وإفريقيا كانت تقوم به مجموعة محدودة من التجار المختصين، كانوا يقتنون، عن طريق المقايضة، كميات من ذهب السودان من سجلماسة لعرضها على تجار الحلي والمجوهرات بأوربا.

والراجح أن صورة الأوربيين عن إفريقيا تغيرت بشكل ملحوظ منذ مطلع القرن الرابع عشر. فغدت هذه القارة موضوع إثارة. ولذلك توالت عليها الحملات التي بدأت في أول الأمر بمحاولة اقتحام فاشلة قام بها بعض التجار الايطاليين سنة 1291. ثم تلتها محاولة ثانية فاشلة قام بها البحار المايوركي خاييم فرير سنة 1346. وتوالت المحاولات الجادة منذ حملة غشت 1415 التي تمكن البرتغاليون على إثرها من السيطرة على سبتة، المحطة الرابطة بين أوربا وذهب السودان. فكانت تلك الحملة إيذانا ببداية التوسع البرتغالي. كما كانت أيضا مقدمة في مسلسل الصراع بين البرتغاليين، الراغبين في السيطرة على المغرب، وقوى أوربية أخرى كانت تطمح في الاتجاه بعيدا نحو مناطق غرب إفريقيا.

ولا بأس من التذكير بأن تحركات البرتغاليين كان وراءها هنري الملاح ابن الملك جواو الأول (João I)، أحد أقطاب الكشوفات الجغرافية، وعمليات التوسع البرتغالي فيما وراء البحار.

وقد بدأ البرتغاليون تلك العمليات باحتلال جزر ماديرا، وجزر الآسور بين سنتي 1418 و1433. ثم واصلوا تحركاتهم في اتجاه الجنوب، حيث وصلوا إلى رأس بوجدورسنة 1435. وبعده حطوا الرحال بجزر الرأس الأخضر سنة 1444. ووصلوا

---

[1] - ترجم هذه القصيدة الى اللغة الأنجليزية التاجر والمترجم "ورجل الأعمال" الأنجليزي وليام كاكستون (William Caxton) سنة 1481. كما اهتم بنشرها الباحثون الجامعيون، ومن بينهم أوليڤيي هربير بريور (Olivier Herbert Prior) الذي حققها في اطار أطروحة جامعية لنيل دكتوراه الدولة، ناقشها بجامعة لوزان ونشرها سنة 1913.

إلى مصب نهر السينغال سنة 1461. ثم عبروا رأس الرجاء الصالح ووصلوا إلى الهند.

ولكن البرتغاليين عادوا في عهد الملك ألفونسو الخامس إلى الاتجاه القائل بالسيطرة على المغرب، فاحتلوا مدينة طنجة سنة 1471.

ودون المضي قدما في تتبع مراحل التوسع البرتغالي، أميل للاعتقاد بوجوب اعتبار هذا التوسع أجرأة لعملية تحول أنظار الأوربيين من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي. وقد اختلطت في هذا التحول الرغبة في التوسع الاقتصادي بالرغبة في نشر المسيحية، فضلا عن حب المغامرة والرغبة في اكتشاف آفاق جديدة. وفي إطار هذا التحول بالذات قدر للبرتغال ولاسبانيا أن تظهرا على واجهة الأحداث، فأضحت كل من لشبونة واشبيلية مركزين قويين للتجارة والأعمال؛ اتجهت أنشطتهما نحو المحيط الأطلسي وأوربا في ذات الوقت.

23) مظاهر العتاقة والتقدم في المراكب البحرية والملاحة

لم يكن من الممكن أن يتم اهتمام الأوربيين بالواجهة الأطلسية لولا التقدم الذي حصل في مجال الملاحة بشكل عام، وفي مجال صناعة المراكب البحرية بشكل خاص.

ويمثل القرن الثالث عشر الحيز الزمني الذي تحقق فيه ذلك التقدم من خلال إقبال أهل البحر على استعمال دفة إيطومبو (le gouvernail d’étambot) في مؤخرة المراكب بدل الدفة الجانبية. فغدت المراكب أكثر استقرارا على سطح الماء، ومن السهل تحريكها في الاتجاه المراد الابحار صوبه. وكذلك من خلال إقبالهم على استعمال الشراع المربع، الذي أضحى من الممكن التحكم في مساحته بواسطة الحبال.

ولا بأس من التنبيه بأن الأوربيين لم يقبلوا على استعمال هذه التقنيات بشكل مكثف إلا في أواخر القرن الرابع عشر. وكان ذلك يعكس رغبتهم الأكيدة في تحسين إنتاجية النقل البحري كما وضح ذلك الباحث جون- كلود هوكي (Jean-Claude Hocquet)[1]. وكانت عمليات تحسين الإنتاجية تحدث كل ثلاثين، أو أربعين سنة، وتشمل تقنيات الملاحة، وأنواع المراكب، وحمولتها وما إلى ذلك. ويكفي التذكير في هذا المقام بأن تحسين تقنية المزاوجة بين الشراع المربع، والشراع اللاتيني القديم سمح للملاحين بالإبحار بمراكبهم كيفما كان اتجاه هبوب الرياح دون الاضطرار إلى التوقف عن الإبحار خلال فترات من فصل الشتاء. وقد اجتمعت آخر التقنيات

[1] - أستاذ باحث فرنسي من مواليد 1936. حاضر في التاريخ الأوربي الوسيط بجامعتي البندقية وليل الثالثة. ركز معظم الأبحاث التي نشرها حول قضايا الملاحة البحرية والملح وتجارته.

المستحدثة في المركب المعروف بالكرڤيلا (la caravelle) الذي طبقت شهرته الآفاق، وترك بصمة في ذاكرة الأوربيين. كانت الكرڤيلا مزودة بثلاثة حصائر (des mâts) بدل حصير واحد. كما كانت أخشابها الجانبية ملساء وغير متقابلة مما سهل عملية انسيابها في الماء. وفضلا عن ذلك، كانت تسع لما بين أربعين وستين برميلا. كما تميزت بخاصية السرعة، فلا غرو اذا وجدنا أن كريستوف كلومبوس اعتمد في الرحلة التي قادته لاكتشاف أمريكا على مركبين من نوع الكرڤيلا كانا من بين الثلاث قطع التي تشكل منها أسطوله.

قادت البرتغال واسبانيا الأوربيين للاقتحام غمار مياه المحيط الأطلسي. وقد باركت البابوية تحركاتهما في هذا الاتجاه. بل إن البابا الإسكندر السادس أصدر سنة 1493 مرسوما يقضي بأن الأراضي التي وصلت إليها مراكب أوربية، ولا يحكمها ملوك أو أمراء أوربيون تؤول ملكيتها للبرتغاليين والاسبانيين. ووضع خط يمر غرب جزر الآسور كحد فاصل بين ممتلكات الدولتين. وفي السنة الموالية أبرمت اسبانيا والبرتغال معاهدة توردبسيسلاس الشهيرة التي تم بموجبها تعديل هذا الخط، الذي أصبح يمر بالجزء الغربي من المحيط الأطلسي. فكانت تلك المعاهدة إيذانا ببداية اقتسام العالم بين الأوربيين. ويمكن بالمناسبة اعتبارها إيذانا ببداية الأزمنة الحديثة. ولكن لا يجب أن يغرب عن بالنا أن الأحداث السالف ذكرها كانت تتسارع في وقت ظلت فيه أفكار الأوربيين عن العالم فضفاضة، وتشوبها نقائص كثيرة. فقد كانوا يعتقدون، على سبيل المثال، أن الأراضي الواقعة وراء رأس الرجاء الصالح هي أراضي الراهب خوان، الرجل المدهش مالك عالم الغرائب. كما كانوا يعتقدون بأن الصين تقع ما وراء المحيط الأطلسي.

ولم تكن هذه التصورات الخاطئة حكرا على عامة المسيحيين، بل حتى المتعلمين، وكثير من علماء العصر كانت معرفتهم عن العالم قاصرة. فالخرائط المتداولة كانت مليئة بالأخطاء، رغم التقدم الملحوظ الذي حصل. كما أن رواد حركة الكشوفات الجغرافية لم يكونوا بدورهم يعرفون جيدا مواقع المناطق التي كانوا يتجهون إليها. فهذا كريستوف كلومبوس، أبرزهم، كان يعتقد أن المسافة الفاصلة بين نهاية اليابس الاسباني واليابس الهندي قصيرة جدا يمكن قطعها في بضعة أيام إذا كانت الرياح مساعدة. كما كان يعتقد أن المسافة الفاصلة بين جزر الكناري والصين لا تتجاوز 5000 ميل بحري، والواقع أنها تبلغ 11766 ميل بحري.

ومما لا شك فيه أن كريستوف كولومبوس يمثل نموذجا صارخا لتلك العقليات التي ظلت تنخرها تمثلات وتهيؤات العصر الوسيط ؛ وهاته الأخيرة هي التي وجهت إلى حد بعيد حركة الكشوفات.

وبناء عليه، فإن أوربا التي غامرت في مياه المحيط الأطلسي، هي أوربا قروسطوية بكل تأكيد.

خاتمة

تبدو أوربا نهاية القرن الخامس عشر، إذا نظرنا إليها من "شرفة" مطلع القرن الواحد والعشرين، وكأنها مفصولة بصراع جديد يتموضع بين التمزقات الداخلية التي كانت القارة تستعد لها (الحروب الايطالية، حرب الفلاحين في ألمانيا، وإصلاحات كل من مارتن لوثر وجون كالڤن) من جهة وسراب الآفاق البعيدة التي كانت تفتح إمكانات واعدة في كل من إفريقيا، والمحيط الهندي والعالم الجديد من جهة أخرى. فهل كانت تلك اللحظة تتضمن بعض المستجدات، وبعض مظاهر القطيعة، التي تسمح بالحديث المشروع عن انتقال من حقبة تاريخية طويلة مرت بها الإنسانية في أوربا إلى حقبة أخرى تفيد بأن العصر الوسيط قد انتهى؟

يمكن اعتبار القرن الخامس عشر، من وجهة نظر تاريخية، بمثابة منطلق فعلي لحقبة تاريخية أخرى طويلة تسمى عادة "بالعصور الحديثة". ولكن يجب التساؤل قبل إنهاء التفكير حول السؤال العريض الذي يمثل عنوان هذا الكتاب هل يتعلق الأمر حقا بنهاية العصر الوسيط ؟ وهل يمكن تقييم العلاقات بين هذا العصر ومسألة تكوين أوربا؟

جوابا على هذا السؤال، أذكر بأنه سبق لي أن اقترحت بأن مسألة "عصر وسيط طويل الأمد" هي الأقرب إلى الحقيقة التاريخية. ولمزيد من التوضيح، لا بأس من الاضافة بأنه "من المؤكد، حسب وجهة المؤرخ البولندي ويتولد كولا (Witold Kula)[1]، أن كل حقبة تاريخية تتضمن بعض خاصيات اللاتزامن، أو التطور وفق إيقاعات مختلفة. ولهذا السبب فإنني لا أستعمل كثيرا عبارة الأزمة التي تخفي غياب مجهود في تحليل التغيرات التي تحدث في مجتمع ما. وأعتقد بالمقابل بوجود تحولات (des mutations) ومنعطفات". فهل حدث تحول أو منعطف عند نهاية القرن

---

[1] - مؤرخ بولندي ولد سنة 1916 وتوفي سنة 1988. اختص بالبحث في تاريخ بولندا الاقتصادي، وفي مناهج البحث في التاريخ الاقتصادي.
أنجز عدة مؤلفات، أشهرها ذلك الذي حاول فيه شرح ميكانيزمات النظام الفيودالي في بولندا من خلال البحث في أوضاعها الاقتصادية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. وصدرت نسخة فرنسية من الكتاب بتصدير فرنان بروديل تحت عنوان :
Théorie économique du système féodal. Pour un modèle de l’économie polonaise (XVIe-XVIIIe siècles), Paris Mouton, 1970.

الخامس عشر؟ وفي سياق هذا السؤال بالذات يفرض مفهوم "النهضة" (الانبعاث) وجوده. وهو مفهوم اقترحه، كما نعلم، المؤرخ السويسري بوركهارد (Burckhardt) في نهاية القرن التاسع عشر. ويجب التذكير في هذا المقام بإمكانية تطبيق هذا المفهوم على فترات أخرى من العصر الوسيط. وقد طبقه فعلا عدد من المؤرخين على الفترة الكارولنجية وعلى القرن الثاني عشركذلك.

فلنر جميعا ما الذي يميز نهضة ما بعد نهاية القرن الخامس عشر. لقد قام عدد من المؤرخين باستعراض مظاهر هذه النهضة، وإن ركزوا بشكل خاص على جانبيها الفني والفكري. مما يستدعي طرح السؤال التالي : هل لم يكن الفن "ناهضا" في ايطاليا منذ القرن الثالث عشر؟ وهل لم تكن الحركة الإنسية، بوصفها إحدى خاصيات النهضة، قد ابتدأت في البزوغ منذ القرن الرابع عشر؟ وأكثر من ذلك، يمكن التساؤل هل لم تكن الظواهر الكبرى ذات الصلة بمجتمع وحضارة أوربا "تمسك بفخذ" العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر؟ وعلى سبيل المثال، فقد ظهر الطاعون الأسود في أوربا بين سنتي 1347 و1348 واستمر في تخريب مجتمعها حتى حدود سنة 1720. وفي نفس السياق، لا بأس من التذكير بأن المؤرخ مارك بلوك تناول بالبحث واحدا من الطقوس (un rite) ذي صلة بالسلطة الملكية في العصر الوسيط، وهو قيام بعض الملوك، الموسومين بالملوك المتوفرين على كرامة المداواة (les rois thaumaturges)، بملامسة المرضى وإشفائهم. وقد ظهر هذا الطقس منذ القرن الحادي عشر. واستمر في أنجلترا بعد القرن الثالث عشر حتى مطلع القرن الثامن عشر. في حين استمر في فرنسا حتى حوالي سنة 1825 رغم أنه كان يختفي من حين لآخر ليعاود الظهور.

وبغض النظر عن هذا المثال، يمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى أكثر أهمية هذه المرة من بينها ازدهار حركة التمدين التي سبق التوقف عند مظاهرها وعند دلالاتها الأوربية. فقد تناول الظاهرة بإسهاب الباحث برنار شوڤاليي (Bernard Chevalier) واستعرض لائحة المدن الفرنسية التي ظلت تدين بالولاء للملوك. وبين بأنها شكلت شبكة حضرية خلال القرن الثالث عشر. ولم تعد لها أية دلالة ابتداء من مطلع القرن السابع عشر.

ويبدو أن أهم عملية تحقيب للتاريخ الأوربي هي تلك التي اقترحها كارل ماركس. وفيها جعل تطابقا بين العصر الوسيط والنظام الفيودالي. فجعل فترة سيادته تمتد من نهاية العصر القديم، الذي ساد فيه النظام العبودي، حتى بداية الثورة الصناعية.

وبالمثل يمثل هذا العصر الوسيط الحقبة التاريخية التي ظهر فيها مخطط التراتبات الثلاث ذي الأصول الهندو-أوربية كما حدد معالمه جورج دوميزيل (Georges Dumézil). فقد ظهرت بوادره بأنجلترا في القرن التاسع، ثم أصبح المجتمع منظما وفق أسسه خلال القرن الحادي عشر فيما يعرف بالتراتبات الثلاث الشهيرة : رجال الدين، المحاربون والفلاحون. وظل ساري المفعول في فرنسا إلى ما بعد الثورة. وبموازاته ظهر عقب الثورة الصناعية مخطط الوظائف الثلاث المختلف تماما، والذي ينص على تقسيم الأنشطة الاقتصادية إلى ثلاثة قطاعات : قطاع أول، وقطاع ثان، وقطاع ثالث.

وفي مجال التعليم، لا بأس من التذكير بظهور الجامعات منذ القرن الثاني عشر. وقد ظلت هذه المؤسسات على حالها في فرنسا منذ هذا التاريخ حتى الثورة. أما على المستويين الابتدائي والاعدادي، فقد سمحت المؤسسات التربوية بظهور حركة تعليمية بطيئة الايقاع استمرت على نفس المنوال حتى بداية تعميم التمدرس في القرن التاسع عشر.

هذا العصر الوسيط الطويل هو أيضا العصر الذي ظهرت فيه الثقافة الشعبية والفلكلور في سياق أوربي. واستمرا حتى بداية هبوب رياح التجديد على الفلكلور في القرن التاسع عشر. فلا غرابة إذا رأينا بعض الحكايات، من قبيل تلك التي تهم موضوع الملاك والناسك، تنتقل من خرافة تعود للقرن الثاني عشر إلى رواية (زاديگ) "Zadig"[1] التي وضعها ڤولتير، وتنتقل الى حكاة بروتانيا القرن التاسع عشر. وكان العصر الوسيط أيضا عصر هيمنة المسيحية والكنيسة، كما رأينا. وحدث منعطف أول خلال القرن السادس عشر تمثل في انقسام المسيحية بين كاثوليكية وبروتستانتية. ولم تعد للديانة، منذ ذلك الوقت، والى يومنا هذا، نفس المكانة ونفس الدور في سائر دول أوربا. ويمكن القول عموما، بأن هذه المواقف من الدين في سائر أنحاء أوربا تمثل تطورا له جذور في العصر الوسيط. وفي ذات السياق حدت انفصال بين الكنيسة والدولة. فرد المسيحي لقيصر ما له الحق في امتلاكه. وعلى خلاف الوضع في بلاد الإسلام أو في بيزنطة، تم التخلي في أوربا عن الثيوقراطية، كما تمت ترقية الأطفال والمرأة والأفراد اللائكيين. وحدث نوع من التوازن بين العقيدة والعقل. ولكن جميع هذه الخاصيات ظلت محتجبة نوعا ما تحت تأثير السلطات الحاكمة والكنيسة حتى قيام الثورة الفرنسية.

---

[1] - "زاديگ أو المصير"،عنوان رواية ذات طابع فلسفي ألفها الأديب الفرنسي فولتير سنة 1747. تدور أحداث هذه الرواية في المشرق (في بلاد بابل بالتحديد). وبطلها رجل شاب يدعى زاديگ.

وانطلاقا مما تقدم يمكن القول بأن أهم ما يجب استخلاصه هو أن قطيعة ما يسمى بالنهضة لا وجود لها. وأدعو قراء هذا الكتاب إلى اعتبار نهاية القرن الخامس عشر مجرد عملية توقف (une halte) مهمة في مسيرة تاريخ أوربا العصر الوسيط. ومثل هذا الاعتبار لا يسلب عنوان الكتاب أية مشروعية في نظري.

إن المعطيات التي تم تناولها في الفصول السابقة تتعلق بمسألتي بناء وانفتاح عصر وسيط أوربي. ومن ثم، كان من المشروع التوقف عند نهاية القرن الخامس عشر للقيام بعملية تقييم وللتساؤل عما إذا كان من الممكن تقديم جواب عن السؤال الذي يمثل عنوان هذا الكتاب.

ويستدعي الحديث عن مظاهر العلاقة بين أوربا والتاريخ التوقف عند مظهر أساسي هو المجال، بالنظر إلى كون مجريات أحداث التاريخ تتم دائما في مجال معين. كما أن الحضارة، بدورها، تتبلور في حدود رقعة ترابية معينة ثم تنتشر بعد ذلك. وتأسيسا على ذلك، فإن القرن الخامس عشر يمثل في حقيقة الأمر منتهى النشأة القروسطوية لمجال أوربي كان قد بدأ في التكون منذ الغزوات الكبرى التي شهدها العصر الوسيط الأعلى. ففي القرن الخامس عشر لم يكن هناك وجود لوثنيين، كما كان من الممكن ألا يكون هناك وجود لمسلمين لو لم تنطلق الحملات التركية العثمانية. لقد أفضت تلك الحملات إلى نتيجتين متناقضتين. فقد شكلت تهديدا لأوربا من جهة، وأدت، من جهة أخرى، إلى نشأة هوية جماعية على حساب التناقضات الداخلية رغم أن مقاومة الأوربيين للأتراك لم تكن بالشراسة التي كان يتمناها البابا بيوس الثاني. وبذلك ساهمت تلك الحملات في رأب الصدع وتلاحم الأوربيين.

بجدر الذكر أيضا بأن الجامعات كانت تقوم بنشر معرفة موحدة على طول المجال الممتد من البحر المتوسط حتى بحر البلطيق. كما أن الحركة الإنسية اخترقت بدورها الثقافة الأوربية من السويد حتى جزيرة صقلية رغم التخلي عن اللاتينية وتبني اللغات المحلية. أما على صعيد الحياة الاقتصادية فقد غدت مدينة أنفير (Anvers) مركز اقتصاد- عالم ظل لفترة طويلة اقتصادا أوربيا قبل أن يمسي اقتصادا عالميا وقعت في شركه جميع القوى العالمية كما أوضح ذلك فرنان بروديل.

تبقت مسألة واحدة اكتنفها نوع من الغموض، رغم أن التساؤل حولها عند نهاية القرن الخامس عشر كان واضحا. تتعلق هذه المسألة بحدود أوربا القارية في الجهة الشرقية خلال تلك الفترة التاريخية. ويجب التنبيه في هذا المقام أن حدث سقوط القسطنطينية في حوزة الأتراك العثمانيين سنة 1453 كان له صدى قوي في أوساط الأوربيين عامة وفي أوساط النخبة المثقفة بشكل خاص. لم يكن ذلك الحدث يعني فقط سقوط الإمبراطورية البيزنطية بصورة كارثية كما تؤكد على ذلك الإسطريوغرافيا

التقليدية، وإنما كان، على المدى البعيد، يعني ارتفاع حاجز أمام وحدة أوربا، لأن الديانة الأرثوذكسية التي استمرت حتى اليوم في شرق أوربا، لم تعد مرتبطة بذلك المركز السياسي والديني الذي كانت تمثله الإمبراطورية البيزنطية. ومعنى ذلك، مرة أخرى، أن حاجزا ارتفع منذ سنة 1453 أمام وحدة أوربا المستقبلية.

وقد قامت الدول السلاڤية بتحديد سياساتها في مجال الإدارة الترابية بشكل غير طبيعة مشاكل حدود أوربا في جهة الشرق. فبولندا، الدولة الأوربية بامتياز، والتي غدت موحدة في نهاية القرن الرابع عشر مع ليتوانيا بواسطة أسرة "الججوليين" (les Jagellons) البولونية الليتوانية، نهجت سياسة توسعية في الشمال على حساب بروسيا، وكذلك في الشرق وفي الجنوب الشرقي. فغدت حدودها تمتد في نهاية القرن الخامس عشر من بحر البلطيق حتى البحر الأسود. أما روسيا، التي تحررت من قبضة المغول، فقد تطورت في اتجاه أن تصبح دولة مركزية. وقام ايڤان الثالث (Ivan III) الذي حكمها بين سنتي 1462 و1505 بخوض سلسلة حروب مكنته من ضم مزيد من الأراضي لحوزة الدولة من قبيل أراضي نوڤڴرود (Novgorod) وتڤير (Tver). فوطد دعائمها وأصبح يحكم دولة مركزية متماسكة تتوفر على جهاز إداري قوي ومؤسسات قضائية أمدتها مدونة 1497 بنفس جديد.

وفي ضوء ما تقدم، يمكن التساؤل : هل يحق للمؤرخ أن يعتقد بأن كفة التهديدات كان بإمكانها أن تميل، عند نهاية القرن الخامس عشر، على حساب كفة المكتسبات التي تحققت خلال العصر الوسيط ؟ أو على حساب وعود "العصر الوسيط الطويل الأمد" لأوربا؟ رغم بعض المتغيرات التاريخية، ورغم أهمية الصدفة ، فإنه بالإمكان استعراض حظوظ أوربا عند نهاية القرن الخامس عشر، لأنه لم يكن باديا بأن التهديدات ستأتي من جانب الأمم الناشئة، ولا من جانب الخلافات الدينية التي كان من الممكن أن تتحول إلى شقاق لا رجعة فيه.

آمل أن يكون هذا الكتاب قد وضح للقارئ بأن عملية تكوّن أوربا قد بدأت تتبلور في العصر الوسيط انطلاقا من مصطلحات وحقائق الوحدة و"الأمة"، رغم أن تطور مفهوم السيادة وتبلور تطبيقاته ابتداء من القرن الثالث عشر أفرزا مشكلا بالنسبة لمستقبل هذا المفهوم.

والجدير بالذكر، أن نهاية دور الاحتكار الذي كانت تقوم به الكنيسة الكاثوليكية لا يعني نهاية الثقافة المسيحية المشتركة. كما لا يعني نهاية حضارة وقيم كانت تتضمن جانبا من اللائكية سيغدو هو الوريث والمتمم للقيم المسيحية وليس خصما كما تجلى ذلك في الصراعات التي احتدمت في نهاية القرن الخامس عشر. يبدو أن التهديد كان يأتي من الصراعات المسلحة بين الأمم ومن الخصال الحربية التي تميز

الأوربيين، والتي تحدث عنها أبقراط منذ العصر القديم. ولا شك أن التهديد كان مرتبطا أيضا بالاتجاه الذي كانت ستأخذه حركة التوسع والاستعمار التي انطلقت منذ القرن الخامس عشر. كما كان مرتبطا بالعلاقة التي أضحت قائمة بين أوربا ومستعمراتها في مختلف أنحاء العالم.

أعتقد أنه من المفيد التذكير بأن علاقة العصر الوسيط بالتقدم طبعها التشنج، حتى أن الصورة التي يمكن رسمها في هذا المجال، تبدو متناقضة المعالم. فالإيديولوجية المهيمنة، والمواقف الذهنية السائدة، كانت تدين كل جديد وتنعته بالخطيئة. ورغم ذلك، كان العصر الوسيط عصر الخلق والإبداع والاختراع في الميدان المادي وفي الميدانين الفكري والروحي. وباختصار، كان عصر تقدم هائل نحو الأمام. ومن ثم، فإن ما يجب التأكيد عليه واعتباره مكسبا لمجموع أوربا في اتجاهها نحو الوحدة، هو أن القدرات على التقدم تأكدت خلال العصر الوسيط، وتقوت أكثر خلال القرن الخامس عشر.

ومما لا شك فيه، أن استعمال مفهوم التقدم بالنسبة لهذه الحقبة التاريخية قد يثير حفيظة البعض بالنظر إلى كون مسألة الوعي بالتقدم، والى كون مسألة السمو بالتقدم كمثل (un idéal) قضيتين حديثتي العهد. إذ يعود تاريخهما إلى نهاية القرن السابع عشر، أو بالأحرى إلى القرن الموالي. هما من زهرات عصر الأنوار. ورغم ذلك، تحقق التقدم في العصر الوسيط. ومن هذه الزاوية، فإن ما حققته أوربا خلال هذه الحقبة التاريخية، وشرعت في إظهاره للعالم يتناقض كثيرا مع ما سيحدث في العالم الإسلامي عموما، وفي الصين بوجه خاص.

ومن غريب الصدف أن الصين كانت خلال القرن الخامس عشر من أقوى الدول وأغناها وأكثرها تقدما في مختلف الميادين، ولكن ساستها ارتأوا جعلها منغلقة على نفسها. وتركوا للأوربيين مسألة السيطرة على العالم، بما في ذلك بعض المناطق الواقعة في الشرق. أما المسلمون، فقد فقدوا الدينامية التي كانت تميزهم في العصر الوسيط رغم نجاح الأتراك العثمانيين في تكوين إمبراطورية، ورغم دخول الإسلام إلى بعض مناطق إفريقيا وآسيا. يبدو اذن، أنه مقابل إخفاقات الصينيين والمسلمين، امتلكت أوربا المسيحية الأفكار والممارسات التي ستضمن لها توسعا لا نظير له ابتداء من القرن الخامس عشر. وقد جعل الأوربيون من هذا التوسع أهم أداة في تحقيق الوعي وتأكيد الاتجاه نحو الوحدة. وقد أوضح الباحث بيتر بيلر (Peter Biller) مؤخرا في أحد أبحاثه كيف أن ساسة أوربا القرن الرابع عشر أدرجوا في الحسبان العنصر البشري، وأدركوا أهمية دور السكان لقيادة قضايا العالم، بالرغم من كون هذا

الحيز الزمني شهد أزمة زراعية وتفشي الأوبئة التي أدت إلى تراجع ديموغرافي مهول.

وبناء عليه، فإن أوربا نهاية العصر الوسيط أصبحت تعير الاهتمام لعدد السكان، وتهتم بطرق عيشهم، وبطرق توالدهم، لأن هذه العناصر تمثل عوامل قوة. وفي السياق ذاته، انكب مجموعة من الباحثين على دراسة دلالات ومظاهر "التقدم ورد الفعل والتراجع" في أوربا العصر الوسيط رغم كونه عصرا لم تكن فيه الذهنيات السائدة تستوعب "فكرة التقدم". وقد خلص هؤلاء الباحثون إلى كون المسيحية كانت تعطي معنى للتاريخ. وقد سبق أن أوضح الأب شوني في هذا السياق بالذات كيف أن فكر العصر الوسيط أعاد إقلاع التاريخ في القرن الثاني عشر. فالبحث عن الخلاص، على سبيل المثال، أصبح ينظر إليه كتقدم أخلاقي طبعا، ولكنه تقدم مفيد على كل حال. ووجد خلال العصر الوسيط أيضا أناس روجوا "لفكرة كراهية العالم الدنيوي" وانتصروا لها وكتبوا عنها، ورغم ذلك لم يفض ما قاموا به إلى التخلي عن التقدم المادي.

وخلاصة الأمر، هي أن دينامية العصر الوسط تأتت من تفاعل المتناقضات والتشنجات التي أسفرت عن تقدم على عدة مستويات دون أن تسمي ما حدث تقدما. وقد نجح الباحثون، المشار إليهم، في تسليط الضوء على المصطلحات والمفاهيم الثنائية التي كانت وراء دينامية العصر الوسيط من قبيل التقدم- رد الفعل، التقدم- التراجع، الماضي- الحاضر، القديم- الحديث. وقد سبق لي أن أوضحت كيف أن طوائف الفقراء أكدت وجودها بطريقة مستفزة كتنظيمات جديدة. يعني كتنظيمات أحسن. فرأى المعارضون في هذه التنظيمات "بدعة" وخطيئة.

وعموما، فإن حضارة العصر الوسيط، وكذلك الذهنيات التي سادت خلال هذا العصر، لم تناوئ التقنيات المستحدثة التي أفضت إلى النمو في المجال الاقتصادي. وما يؤكد ذلك هو أن مالكي الدومينات الكبرى، في بداية العصر الوسيط الأعلى، كانوا يوقعون عقودا مع عدد من الفلاحين الأحرار لاستثمار استغلاليات يعهدون بها إليهم. وكان المستفيدون من تلك الاستغلاليات ملزمين بمقتضى تلك العقود بتحسين مردودها.

ويمكن تذكير القارئ، في ذات السياق، بما قيل عن كتب الفلاحة التي عادت للظهور مجددا في القرن الرابع عشر كدليل على تزايد الاهتمام بمسألة التقدم في المجال الزراعي. ونفس الاهتمام يحيل عليه انتشار استعمال الطاحونة، وتنوع تطبيقاتها، بالإضافة إلى ظهور نظام عمود الكامات، وتحسن طرائق النسج، وغير ذلك من التطبيقات ومن الاختراعات التي خصها مارك بلوك ببحث مستفيض

ولا مجال للانكار بأن العصر الوسيط كان عصر سيادة الفكر الديني، كما سبق القول، إلى درجة أن كل شيء كان يبدو سابحا في الدين، بما في ذلك مظاهر الحضارة المادية. غير أن هيمنة الدين أخذت في التراجع شيئا فشيئا. كما كانت العوائق الفكرية المنتصبة أمام التقدم تنزاح هي الأخرى شيئا فشيئا بموازاة عملية نزول القيم من السماء على الأرض. كما أن العلاقة بين العناية الإلهية والثروة أضحى فيها دور للفرد وللجماعة، بعد أن كان هذا الدور منتفيا إلى حد بعيد. وتتضح أهمية هذا الدور بشكل خاص في مسألة الزمن التي تجلى فيها إبداع الأوربيين كما تجلى فيها التقدم.

ورغم أن الماضي لم يحظ بنظرة عقلانية، ولم يشكل موضوع علم تاريخ قائم بذاته إلا في القرن الثامن عشر، فقد كان يستعمل في إطار ذاكرة أخذت أبعاد الثقافة السائدة. ومعنى ذلك أن أوربيي العصر الوسيط استندوا على التاريخ ليتجهوا نحو الأمام بشكل أفضل. كما أن تحكمهم في قياس الزمن مكنهم من أدوات التقدم. ورغم أن التقويم اليولياني (تقويم يوليوس قيصر) ظل هو التقويم المعمول به، فقد استحدثوا تقويما آخر مستمدا من العهد القديم، ومن الديانة اليهودية، ولا زال معمولا به إلى اليوم، وهو ما يعرف بالأسبوع الذي أرسى العمل به علاقة جديدة بين وقت العمل ووقت الراحة. وكان من تبعات ذلك أن حدث تغير في الزمن الديني بحدوث تغير في برنامج يوم الأحد. كما حدث تغير نحو الأفضل فيما يتعلق باستغلال قوة الإنسان وقدراته. وبالإضافة إلى ذلك أدى تبني هذا التقويم إلى ظهور مناسبتين عظيمتين يحتفل بهما الأوربيون، هما عيد بداية رأس السنة (الذي يخلد الميلاد. وقد حل محل عيد الهلوين الوثني الذي يرمز للموت)، وعيد الفصح (الذي يرمز للانبعاث)، بالإضافة إلى أعياد أخرى ذات صبغة فيودالية.

ومما لا شك فيه أن انتقال الإنسان من القدرة على التحكم في حواسه، وفي جسده وفي ثروته، إلى القدرة على التحكم في الوقت أمر عظيم. وهذا ما نجد تعبيرا عنه في حوار بين شخصين يتضمنه نص كوميدي وضعه المهندس والفيلسوف والأديب "الإنسي" الايطالي الشهير ليون باتستا ألبيرتي (Leon Battista Alberti) (المتوفى سنة 1472) جاء فيه :

- جيانوزو: هناك ثلاثة أشياء يستطيع الإنسان أن يقول بأنه يملكها لنفسه : الثروة والجسد و...

- ليوناردو: وما سيكون الشيء الثالث ؟

- جيانوزو : آه، إنه شيء ثمين جدا. هاتان اليدان وهاتان العينان ليستا لي تماما.

- ليوناردو : عجيب ! ما هو ؟

- جيانوزو : الوقت يا عزيزي ليوناردو، الوقت يا أبنائي.

يبدو أن قيمة الوقت التي يمجدها الحوار هي قيمة اقتصادية، لأن الوقت هو النقود. ولكنها أيضا قيمة ثقافية ووجودية. لأن أوربا نهاية القرن الخامس عشر كانت أوربا الوقت الثمين، أي الوقت الذي امتلكه الأفراد وامتلكته الجماعات المنشأة لأوربا الآتية.

خرائط

خريطة رقم 1

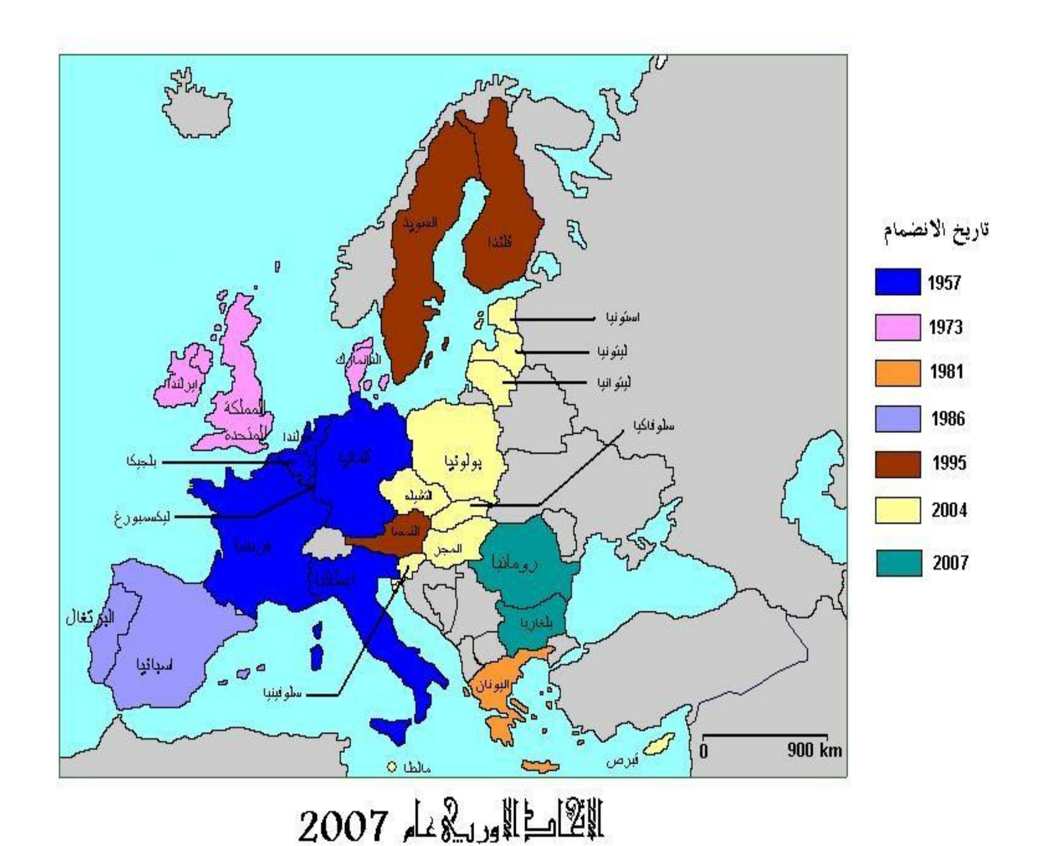
مراحل تكون الاتحاد الأوربي



مصدر الخريطة : رشيد احمايمي موقع الخيمة "www.khayma.com"

خريطة رقم 2

الاتحاد الأوربي سنة 2007



الاتحاد الأوربي عام 2007

مصدر الخريطة : موقع الأستاذ حمادي "www.imadhg.com"

كرونولوجيا أبرز الأحداث

أولا : أبرز الأحداث في أوربا

276	بداية الموجة الأولى من غزوات القبائل الجرمانية للإمبراطورية الرومانية.
313	صدور مرسوم ميلان الذي أتاح للمسيحيين حرية التعبد.
325	انعقاد مجمع نيقية الذي خرج فيه الإمبراطور قسطنطين منتصرا ضد الآريوسية.
330	الإمبراطور قسطنطين يتخذ من القسطنطينية عاصمة للامبراطورية.
379-395	الإمبراطور ثيودوز الأول يعترف بالمسيحية كديانة للإمبراطورية، ويقسم الإمبراطورية قبيل وفاته إلى إمبراطوريتين غربية وشرقية.
407-429	انطلاق موجة أخرى من غزوات القبائل الجرمانية.
410	القوط الغربيون بزعامة ألريك يسيطرون على روما ويخربونها.
415	القوط الغربيون يستقرون باسبانيا.
432-461	القديس باتريك ينشر المسيحية بايرلندا.
حوالي 440	استقرار الأنجلز والجوت والسكسون ببريطانيا العظمى، وانطلاق حملة البروطانيين في اتجاه القارة. نجاح القائد الروماني أكتيوس في وقف تقدم الهون بزعامة أتيلا في ميادين كتالونيك.
476	أدواكرالجرماني يطيح بالإمبراطورروملوس أغوستول ويبعث بشارات الإمبراطورية الغربية إلى القسطنطينية.
488-526	فترة حكم ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين براڤين.
بين 496 و511	تعميد كلوڤيس زعيم الفرنجة.
525-565	الإمبراطور البيزنطي جستنيان يقوم بحملة محدودة ومؤقتة في مناطق الغرب (ايطاليا الجنوبية وإقليم الأندلس). اجتياح الطاعون،المعروف بطاعون جستنيان، للمناطق الواقعة جنوبي جبال الألب ونهر اللوار.

حوالي 529 الأسقف بينوا يشيد ديرا بجبل كاسان، ويقترح على الرهبان التابعين له طريقة أصبحوا بموجبها يشكلون طائفة البندكتيين.
حوالي 555 القوط الغربيون يتخذون من طليطلة عاصمة لهم بعد استعادتهم لإقليم الأندلس.
حوالي 570-636 فترة حياة ايزيدور الاشبيلي (الذي يحتمل أن يكون قد ولد بين 560 و570).
590-604 فترة اعتلاء ڭريڭوار الأكبرعرش البابوية.
حوالي 590-615 الراهب الايرلندي سان كلومبان يؤسس مجموعة موناسترات بغاليا، وبجنوب جرمانيا، وبشمال ايطاليا.
اللومبارديون يغزون شمال ايطاليا، وأجزاء من وسطها، ويؤسسون بها مملكةعاصمتها باڤيا.
711-719 البربر المسلمون يقومون بغزو اسبانيا من الجنوب حتى مناطق نهر ايبرو.
732 شارل مارتل محافظ قصر أوسترازيا ينجح في وقف المد الإسلامي قرب بواتيي.
757 بيبن القصير محافظ قصر أوسترازيا يتوج ملكا على الفرنجة من قبل البابا إتيان الثاني بعد أن دعمه في ايطاليا، وسانده في إنشاء كيان بابوي.
759 المسلمون يفقدون مدينة أربونة، آخر معاقلهم بغالة.
771 شارلمان الملك الوحيد على رأس فرنجة غاليا.
774 شارلمان ينادى به ملكا على اللومبارديين.
778 الباسكيون يباغتون بممر الروسنسفال مؤخرة جيش الفرنجة التي كان على رأسها رولان صهر شارلمان.
787 انعقاد المجمع الثاني بمدينة نيقية، وخلاله أباح شارلمان التعاطي للصور في الفن المسيحي.
788 شارلمان ينجح في ضم بڤاريا لحضيرة مملكته.
793-810 انطلاق أولى الغارات النورمانية على بريطانيا العظمى وغالة.
796 شارلمان ينتصر على المحاربين الآڤار.
796-803 شارلمان يشيد قصرا وكنيسة لاشابيل بمدينة ايكس-لاشابيل.
800 شارلمان يتوج إمبراطورا في روما.
827 بداية غزو المسلمين لجزيرة صقلية.

حوالي 830	"استحداث" جثمان القديس يقوب، واتخاذ ضريحه مزارا.
842	تحرير يمين ستراسبورغ باللهجتين الفرنسية والجرمانية.
843	معاهدة ڤردان وميلاد ألمانيا وفرنسا.
النصف الثاني من القرن التاسع	كلمة "مليش" (miles) (جندي وفارس) بدأت تعني الفصل.
881	ظهور كلمة فيف "فيودوم" (feodum).
885-886	محاصرة النورمانديين لمدينة باريس.
895	استقرار الهنغاريين بسهل الدانوب.
910	تأسيس دير كلوني.
929	قيام دولة الخلافة بقرطبة.
948	تأسيس "أرشفكية" هامبورغ، واتخاذها مركزا دينيا لتنصير سكان العالم الإسكندنافي.
حوالي 950	بداية عمليات الاستصلاح الكبرى. وبداية استعمال المحراث بمناطق شمال نهراللوار.
955	انتصار أتون الأول على الهنغاريين في وقعة ليشفيلد.
960	تشييد مسجد قرطبة.
962	تتويج أتون الأكبر إمبراطورا، وتأسيس الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة.
967	تعميد ميزكو دوق بولندا.
972	تأسيس "ايفيكية" براغ.
985	تعميد الزعيم الهنغاري ڤايك.
987	صعود الأسرة الكابيتية إلى الحكم في غاليا.
989	تعميد فلاديمير أمير كييف من قبل أرثوذوكسيين بيزنطيين.
1000	الثنائي سيلفستر الثاني (جيربير الآورياكي) وأتون الثالث يسيطران على المسيحية اللاتينية. وبداية تشييد "معطف أبيض من الكنائس" حسب تعبير راوول كلابير.تأسيس "أرشفيكية" كنيزنو كمركز ديني باليابان.
1001	تتويج سان ايتيان ملكا على هنغاريا.
1005-1006	حدوث مجاعة كبرى بأوربا الغربية.
1015-1028	القديس أولاڤ الثاني يحاول فرض المسيحية بقوة في النرويج.
1019-1035	كنوت الأكبر يصبح ملكا على الدانمارك وأنجلترا.

1023	روبير التقي يقوم بطلب من الكنيسة بإحراق نفر من الهراطقة بأورليان.
1028	كنوت ملك الدانمارك يغزو النرويج وينتهي من غزو أنجلترا.
1029	تأسيس أول مملكة نورماندية بايطاليا الجنوبية.
حوالي 1030	بداية حركة الكمونات في ايطاليا.
1031	نهاية عصر الخلافة في قرطبة.
1032-1033	حدوث مجاعة بالغرب.
حوالي 1035	تشييد قنطرة من الحجر ببلدة ألبي.
1037	الإمبراطور كونراد يقر مبدأ وراثة الأفياف في ايطاليا الشمالية.
1054	حدوث الانشقاق النهائي بين الكنيسة الرومانية اللاتينية والكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية.
1060-1091	النورمانيون يقومون بغزو صقلية.
1066	غزو أنجلترا من قبل النورمان بزعامة غليوم الفاتح.
1071	نقل رفات القديس نيكولا من المشرق إلى مدينة باري.
1073-1085	اعتلاء غريغوري السابع كرسي البابوية، وبداية الإصلاح الغريغوري.
1085	استيلاء ألفونسو السابع ملك قشتالة على طليطلة.
نهاية القرن الحادي عشر	بداية استعمال الخيول في جر المحراث بدل الثيران في مناطق شمال غالية.
1095	البابا أوربان الثاني يحث المسيحيين في بلدة كليرمون على القيام بحرب صليبية.
1098	إنشاء طائفة السيرستيين من قبل روبير دي موليسم.
1099	تجار جنوة ينشؤون ما يشبه الشركة التجارية.
حوالي 1100	بداية تجفيف مستنقعات منطقة الفلاندر.
1108	تشييد دير سان فيكتور، أول مركز للفكر المدرسي بباريس.
1112	اندلاع الثورة "الكمونية" بمدينة لاوون. مقتل القمط-الأسقف.
1120-1150	ظهور أول مجموعة من القوانين المنظمة للحرف في الغرب.
1126-1198	ابن رشد الفيلسوف العربي يناقش آراء أرسطو بقرطبة، ويتوفى بمراكش.

1127 مدن منطقة الفلاندر تحصل على مواثيق التحرر.
1132-1144 رجل الدين سوجر يعيد بناء سان دوني. بداية عصر الفن القوطي.
1135-1204 رجل الدين والفيلسوف ابن ميمون ينشر مؤلفاته باللغة العربية بقرطبة، ويتوفى بالقاهرة.
1140 نشأة مملكة البرتغال.
1141 بطرس المحترم يقوم بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية.
1143 تشييد مدينة لوبيك.
1154 فردريك بربروسا يمنح امتيازات لأساتذة وطلبة جامعة بلوني.
1154-1224 فترة سيادة الإمبراطورية الأنجليزية- الفرنسية التي شيدتها أسرة البلانطجونيين.
1176 تشييد منارة الخيرالدا بمدينة إشبيلية.
1180 وفاة الأسقف خوانيس سرانسبيري سيد مدرسة المواثيق (les chartes).
1183 هدنة كوستانس. فردريك بربروسا يقر حرية المدن اللومباردية.
1204 المشاركون في الحملة الصليبية الرابعة يستولون على مدينة القسطنطينية ويقومون بنهبها. تأسيس الإمبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية (1204-1260).
1207 سان دومينيك يتصل بمتزعمي حركة الهرطقة ببلدة ألبي في إطار مهمة كلف بها.
1209 ظهور أول طائفة فرانسيسكانية.
1209-1229 فصول الحرب الصليبية الألبيجية.
1212 انتصار مسيحيي شبه جزيرة أيبيريا على المسلمين في وقعة العقاب (لاس نفاس دي طلوسا).
1214 منح المجموعة الأولى من الامتيازات لجامعة أكسفورد.
1215 إقرار النظام الأساسي لجامعة باريس. انعقاد المجمع الديني الرابع بمدينة لاتران: تسوية مسألة الزواج ومسألة الاعتراف، واتخاذ جملة إجراءات ضد العنصرية والهرطقة.

1216 تأسيس طائفة الإخوان الدومينيكان.
1229-1231 إعلان الإضراب قي جامعة باريس.
1231 غريغوري التاسع ينظم حملة التفتيش.
بعد 1232 مسلمو الأندلس يشيدون قصر الحمراء.
1238 مسيحيو أرغونة يستولون على مدينة بلنسية.
1241 المغول يغيرون على سليزيا وبولندا وهنغاريا.
1248 مسيحيو قشتالة يستولون على مدينة اشبيلية.
1258 بداية سك عملة ذهبية في جنوة وفلورنسا.
1252-1259 توماس الأكويني يلقي محاضراته بجامعة باريس.
1253 روبير دو سوربون يشيد "كوليجا" لتدريس اللاهوت للطلبة الفقراء.
1261 سقوط الإمبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية.
1270 ظهور أول إشارة تتعلق بخريطة بحرية خاصة بالبحر المتوسط.
1276 رايموند لول يشيد "كوليجا" لتدريس اللغة العربية لأعضاء البعثات التبشيرية.
1280 اندلاع موجة إضرابات، وحركات احتجاج في مدن بروج ودواي وتورناي وروان وأورليان وبيزيي.
1283 الفرسان التوتونيون ينتهون من غزو بروسيا.
1284 بداية سك الدوقة الذهبية في البندقية.
1290 طرد اليهود من أنجلترا.
1298 بداية عملية الربط البحري بين جنوة وأنجلترا والفلاندر.
مطلع القرن الرابع عشر بداية انتشار سندات التبادل في ايطاليا.
1306 طرد اليهود من فرنسا.
1309 بداية فترة اتخاذ مدينة أفنيون مقرا للبابوية.
1315-1317 حدوث مجاعة كبرى بأوربا وبداية ظهور مؤشرات أزمة القرن الرابع عشر.
1321 مقتل مجموعة من المصابين بداء الجذام. مقتل عدد من اليهود المتهمين بتسميم الآبار.
1337 بداية فصول حرب المائة سنة بين فرنسا وأنجلترا.

1347-1348 بداية انتشار وباء الطاعون الأسود الذي استمرت تداعياته حتى سنة 1720.
1348 اندلاع حركة "البروغوم" تحت تأثير الطاعون الأسود.
1353 إقامة أول مركز تركي يغاليبولي الايطالية.
1358 انتفاضة سكان باريس ضد ممثل الملك. مقتل اتيان مارسيل. اندلاع انتفاضة الفلاحين في مناطق شمال شرق غاليا.
1378 بداية الشقاق الديني الكبير. اندلاع انتفاضة "الشيامبي" في فلورنسا. البابا أوربان السادس يعود إلى روما.
1381 انتفاضة وات تايلور وأتباعه بأنجلترا.
1382 إدانة جون وايكليف بتهمة الهرطقة.
1389 الأتراك العثمانيون ينتصرون على الصربيين بكوسوڤو.
1397 الممالك الإسكندناڤية تنجح في إقامة اتحاد الكلمار.
1414-1418 انعقاد المجمع الديني بكونستانس. إدانة يوهان هوس بتهمة الهرطقة وصدور حكم الإعدام في حقه.
1439-1443 نجاح المجمعين الدينيين المنعقدين بكل من روما وفلورنسا في وضع حد للشقاق الديني.
1450 ڴوتنبرڴ ينجح في اختراع الطباعة.
1453 استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية.
1458-1464 بيوس الثاني المتحمس "لوحدة" أوربا يعتلي كرسي البابوية.
1458-1471 فترة حكم جورج بوديبراد لمملكة بوهيميا، وإعلانه عن مشروع وحدة أوربا.
1469 زواج ملوك اسبانيا الكاثوليك.
1475 توقيع معاهدة بكيني ونهاية حرب المائة سنة.
1476 زواج مكسمليان ملك النمسا بماري حاكمة بورغونديا.
1492 استيلاء الملوك الكاثوليك على غرناطة، ونهابة الوجود الإسلامي بشبه جزيرة أيبيريا.
1494 الاسبانيون والبرتغاليون يقتسمون العالم بموجب معاهدة تورديسيلاس.

1495	شارل الثامن ملك فرنسا يغزو مملكة نابولي، واندلاع الحروب الايطالية.

ثانيا: أبرز الأحداث خارج أوربا

أ) الأحداث في أمريكا

700-800	فترة أوج حضارة المايا في أمريكا الوسطى.
800-925	انهيار حضارة المايا.
1000-1200	فترة أوج ثقافة التولتيك بالمكسيك.
1370	الأزتيك يشيدون مدينة تيوتيهواكان بالمكسيك.
القرن الخامس عشر	تعاقب الكنفدراليات الأزتيكية بالمكسيك.
1492	كريستوف كلومبوس يكتشف أمريكا.

ب) الأحداث في إفريقيا

بين القرنين السادس والثامن	فترة أوج مملكة الزولو في زمبابوي. العرب يقومون بفتح مصر ويشيدون مدينة الفسطاط (القاهرة) التي اتخذها الفاطميون فيما بعد عاصمة لهم.
709	العرب ينتهون من فتح مناطق إفريقيا الشمالية.
حوالي سنة 800	قيام مملكة كانيم في منطقة بحيرة التشاد.
1057	عرب بني هلال يقومون بغزو وتخريب القيروان عاصمة الأغالبة.
1062	المرابطون يشيدون مدينة مراكش ويقومون بالجواز نحو الأندلس.
1171	السلطان صلاح الدين يعيد إقرار المذهب السني بمصر، ويؤسس مملكة الأيوبيين.
مطلع القرن	

الثالث عشر الملك لاليبيلا حاكم إثيوبيا يضطر تحت ضغط المسلمين إلى نقل عاصمة مملكته من أكسوم إلى مدينة روحا.
1250 نجاح المماليك في الانفراد بحكم مصر.
القرن الرابع عشر قيام مملكة بورنو في المناطق الواقعة غربي بحيرة تشاد.
1312-1337 فترة أوج مملكة مالي المسلمة.
1415 غزو البرتغاليين لمدينة سبتة.
1418 استقرار البرتغاليين بجزر ماديرا.
1477 الاسبانيون ينجحون في الاستيلاء على جزر الكناري.
1488 برطلومي دياز يكتشف رأس الرجاء الصالح.

ج) الأحداث في الشرق الأقصى

320-480 فترة سيادة أسرة الگوبطا في مناطق شمال الهند.
581-618 يانغ كين ينجح في تحقيق وحدة الصين، ويتخذ عاصمة جديدة، ويشرع في مد القنوات وبناء الأسوار.
618-907 فترة حكم أسرة تانك. تقوية الإدارة المركزية. انتصارات في كوريا. الاعتراف باستقلال إقليم التيبت. انتشار الديانة البوذية.
710 مدينة نارا تتخذ عاصمة جديدة في اليابان.
777 اتخاذ البوذية كديانة رسمية في اليابان.
794 مدينة هيان (كيوطو) تتخذ كعاصمة جديدة في الإمبراطورية اليابانية.
858 بداية هيمنة الفوجيوارا في اليابان.
907 أسرة الكولا تحل محل أسرة البلافا في حكم الهند، وتنجح في بسط سيطرتها على سيلان وماليزيا.
960-1279 فترة الفوضى في عهد حكم "الأسر الخمس" في الصين.
1024 سك المجموعة الأولى من النقود الورقية في الصين.
1181-1218 فترة أوج إمبراطورية الخمير تحت حكم جيافارمان السابع.
1192 المسلمون يبسطون سيطرتهم على مناطق شمال الهند.

1206-1526 فترة سيادة السلطنات الإسلامية بدلهي.
1206-1279 نشأة إمبراطورية المغول.
1245-1254 سفر أفراد تجار من أسرتي بولو وماركو إلى الصين، والى بعض مناطق جنوب شرق آسيا.
1279-1368 فترة سيادة أسرة إيوان المغولية في الصين. اتخاذ بكين عاصمة منذ سنة 1264.
1314-1330 سفر رجل الدين الفرنسسكاني أدوريك إلى بعض مناطق الهند والصين.
1371 حكام الصين يصدرون قرارا يمنع الصينيين من السفر خارج الصين.
1400-1700 فترة حكم أسرة المينج للصين.
1470-1480 فترة تشييد أسوار شاهقة وطويلة في مناطق شمال الصين.

د) الأحداث في الشرق الأدنى الإسلامي

622 هجرة الرسول (ص) من مكة إلى المدينة.
630 الإمبراطور البيزنطي هركليوس ينتصر على الفرس، ويعيد "الصليب الحقيقي" إلى القدس.
632 وفاة الرسول محمد. (ص).
634 المسلمون يخرجون من الجزيرة العربية في سياق عمليات الفتح. بداية عمليات فتح مناطق شمال إفريقيا.
636-724 عصر الخلافة الأموية.
638 سيطرة المسلمين على القدس.
661 مقتل على بن أبي طالب.
680 مقتل الحسين بن علي في كربلاء، وظهور التشيع.
762 بداية عصر الخلافة العباسية ببغداد.
1055 السلاجقة الأتراك يستولون على بغداد ويعيدون إقرار المذهب السني.
1071 انتصار السلاجقة الأتراك على البيزنطيين في وقعة ملاذ كرد.
1099 استيلاء الصليبيين على القدس.

1148 فشل الحملة الصليبية الثانية.
1187 انتصار صلاح الدين الأيوبي على المسيحيين في وقعة حطين واستعادته للقدس.
1191 فشل الحملة الصليبية الثالثة، ونجاح الصليبيين في الاستقرار بقبرص لفترة محدودة.
1250-1254 فترة إقامة الملك سان لويس بالأرض المقدسة. فشل حملات سان لويس على مصر
سنة 1250، وعلى تونس سنة 1270.
1291 نجاح المماليك في استعادة عكا آخر معقل مسيحي بفلسطين.
1354-1403 السلطان العثماني بايزيد الأول يغزو الإمارات التركية بمنطقة الأناضول ويقوم بتوحيدها.

ببليوغرافيا موضوعاتية
(منتقاة من قبل مؤلف الكتاب)

يتضمن كتاب جاك لو ڤوف ببليوغرافيا موضوعاتية منتقاة. ورغم طابعها الانتقائي، فإنها تتجاوز الألف عنوان و"تحتل" خمسا وأربعين صفحة. ونظرا لطولها، وجدنا أنفسنا مضطرين إلى اختزالها في بضع صفحات، تتضمن أهم العناوين التي لها صلة بموضوع الكتاب مباشرة.

أولا: دراسات حول أوربا (وحول فكرة أوربا) في العصر الوسيط

- Bloch, Marc,"Projet d’un enseignement d’histoire comparée des sociétés européennes", 16p., in Dernières nouvelles de Strasbourg (1934), repris in Etienne Bloch et Marc Bloch (éd.), Histoire et historiens, Paris, Armand Colin, 1995.
- Bloch, Marc, "Problèmes d’Europe",Annales HES, VII, 1935, pp. 471-479.
- Braudel, Fernand, L’Europe. L’espace, le temps, les hommes. Paris, Arts et métiers graphiques, 1987.
- Carpentier, Jean et Lebrun, François (éd.), Histoire de l’Europe. Paris, Seuil, 1990.
- Chabod, Federico, Storia dell’idea d’Europa. Bari, Laterza, 1961.
Elias, Norbert, La dynamique de l'Occident, Paris, Calmin-Lévy, 1975.
Febvre, Lucien, L’Europe. Genèse d’une civilisation (Cours professé au Collège de France en 1944-1945), préface de Marc Ferro. Paris, Perrin,

1999.
- Le Goff, Jacques, La Vieille Europe et la nôtre. Paris, Seuil, 1994.
- Pagden, Anthony (éd.), The Idea of Europe. From Antiquity to the European Union, The Johns Hopkins University, Woodrow Wilson Center Press, 2002.
- Villain-Gandossi, Christiane (éd.), L'Europe à la recherche de son identité, Paris, Editions du Comité des travaux historiques et scientifiques, 2002 (notamment Robert Fossier, "L'Europe au Moyen Age", pp. 35-40).

ثانيا: أوربا والعصر الوسيط

- Barraclough, Geoffrey (éd.), Eastern and Western Europe in the Middle Age,
Londres,Thames and Hudson, 1970.
- Bartlett, Robert, The Making of Europe: Conquest, Colonization and Cultural
Change, 950-1350. Londres, Allen Lane, 1993.
- Bosl, Karl, Europa im Mittelalter. Vienna-Heidelberg: Carl Uebersenter, 1970.
- Compagnon, Antoine et Seebacher, Jacques, L'Esprit de l'Europe, Paris, Flammarion, 1993. 3 vols.
- Duroselle, Jean-Baptiste, L'Idée d'Europe dans l'histoire, Paris, Denoël, 1965.
- Edson, Evelyn, Mapping Time and Space: How Medieval Mapmakers Viewed their
World, The British Library Studies in Map History, 1998, vol. I.
- Geremek, Bronislaw, The Common Roots of Europe. Cambridge, Polity Press, 1991.
- Hay, Denys, The Emergence of an Idea: Europa. Edinburgh University Press, 1957.
- Hersant, Yves et Durand-Bogaert, Fabienne, Europes. De l'Antiquité au XXe siècle. Anthologie critique et commentée, Paris, Robert Laffont, 2000.
- Le Goff, Jacques, L'Europe racontée aux jeunes. Paris, Seuil, 1996.
- Mackay, Angus et Ditchburn, David, Atlas of Medieval Europe. Londres, Routledge, 1996.

- Menestò, Enrico (éd.), Le radici medievali della civilta europea (Congrès d'Ascoli Piceno, 2000). Spolète, Centro italiano di studi sull'alto medioevo, 2002.
- Mitterauer, Michael, Warum Europa? Mittelalterliche Grundlagen eines Sonderwegs. Munich, Beck, 2003.
- Past and Present, numéro spécial, nov. 1992 (en particulier Karl Leyser,"Concept of Europe in the Early and High Middle Ages", pp. 25-47).
- Pastoureau, Michel et Schmitt, Jean-Claude, L'Europe. Mémoire et Emblèmes, Paris, les Editions de l'Epargne, 1990.
- Storia d'Europa. 3. Il Medioevo, secoli V-XV,Turin, Einaudi, 1994.

ثالثا: العصر الوسيط. دراسات عامة

- Borst, Arno, Lebensformen im Mittelalter. Frankfurt-Berlin, Ullstein, 1973.
- Dalarun, Robert (éd.), Le Moyen Age en lumière. Paris, Fayard, 2002.
- Delort, Robert, Le Moyen Age. Histoire illustrée de la vie quotidienne. Lausanne, Edita, 1972. nelle. éd. La Vie au Moyen Age, Paris, Seuil, 1981.
- Gatto, Ludovico, Viaggio intorno al concetto di Medioevo, Rome, Bulzoni, 1992.
- Gourevitch, Aaron J., Les Catégories de la culture médiévale [1972] Trad.fr., Paris, Gallimard, 1983.
- Heer, Friedrich, L'Univers du Moyen Age, [1961] Trad. Fr., Paris, Fayard, 1970
- Kahl, Hubert D.,"Was bedeutet "Mittelalter" ?", Seculum, 40, 1989, pp. 15-38.
- Le Goff, Jacques, La Civilisation de l'Occident médiéval, Paris, Arthaud, 1964.
- Le Goff, Jacques, "Pour un long Moyen Age", in L'Imaginaire médiéval, Paris, Gallimard, 1985, pp. 7-13.
- Le Goff, Jacques (éd.), L'Homme médiéval, éd. Italienne, Bari, Laterza, 1987, version française, Paris, Seuil, 1989.
- Linehan, Peter et Nelson Janet L. (éd.), The Medieval World. Londres-New York, Routledge, 2001.
- Lopez, Robert, Naissance de l'Europe. Paris, Armand Colin, 1962.

- Mehu, Didier, Gratia Dei, les chemins du Moyen Age, Quebec, Fides, 2003.
- Pirenne, Henri, L’Histoire de l’Europe des invasions au XVe siècle, Paris-Bruxelles, 1936.
- Sergi, Giuseppe, L’Idée de Moyen Age. Entre sens commun et pratique historique, [1998]. Paris, Flammarion, 2000.
- Southern Richard W., The Making of the Middle Ages, Londres, 1953.
- Tabacco Giovanni, et Merlo Grado Giovanni, La civilità'europea nella storia mondiale, Medievo, V-XV, secolo, Bologne, II, Mulino, 1981.

رابعا: العصر الوسيط بعد العصر الوسيط

- Amalvi, Christian, Le Goût du Moyen Age, Paris, Plon, 1996.
- Amalvi, Christian, "Moyen Age", in Jacques Le Goff et Jean-Claude Schmitt, Dictionnaire raisonné de l'Occident médiéval, Paris, Fayard, 1999, pp. 790-805..
- Apprendre le Moyen Age aujourd’hui, numéro spécial de Médiévales, no.13 automne, 1987.
- Boureau, Alain, "Moyen Age", in Gauvard Claude, de Libera Alain, Zink Michel, Dictionnaire du Moyen Age, Paris, P.U.F.,2002.
- Branca, Vittore (éd.), Concetto. Storia. Miti e immagini del medioevo, Florence, Sansoni, 1973.
- Capitani, Ovidio, Medioevo passato prossimo. Appunti storiografici, tra due guerre e molte
crisi, Bologne, Il Mulino, 1979.
- Eco, Umberto, "Dieci modi di sognare il medioevo", in Sugli sprechi e altri saggi, Milan, Bompiani, 1985, pp. 78-89.
- Eco, Umberto, "Le Nouveau Moyen Age", in La Guerre du faux, Paris, Grasset, 1985, pp.
87-116.
- Europe, numéro spécial, Le Moyen Age maintenant, octobre, 1983.
- Fuhrmann, Horst, Uberall ist mittelalter. Von der Gegenwart einer vergangenen Zeit. Munich, Beck, 1996.
Goetz, Hans-Werner (éd.), Die Aktualitat des Mittelalters. Bochum, D. Winckler, 2000.

- Guerreau, Alain, L'Avenir d'un passé incertain. Quelle histoire du Moyen Age au XXIe siècle?, Paris, Seuil, 2001.
- Heinzle, Joachim, Modernes Mittelalter. Neue Bilder einer popularen Epoche, Frankfurt-Leipzig, Insel, 1994.
- Le Goff, Jacques et Lobrichon, Guy (éd.), Le Moyen Age aujourd'hui. Trois regards cont-
emporains sur le Moyen Age: histoire, théologie, cinéma (Actes du colloque de Cerisy-la-Salle,juillet, 1991), Paris, Cahiers du Léopard d'Or, 1998.
- Lire le Moyen Age, (éd.) Alain Corbellari et Christopher Lucken, numéro spécial de la revue, Equinoxe, no. 16, automne 1996.
- Moyen Age, mode d'emploi, numéro spécial de Médiévales, no. 7, automne 1984.

خامسا: العصر الوسيط الأعلى

- Banniard, Michel, Genèse culturelle de l'Europe, Ve-VIIIe siècle, Paris, Seuil, 1989.
- Brown, Peter, L'essor du christianisme occidentale. Triomphe et diversité, [1996], Trad. Fr., Paris, Seuil, 1989.
- Herrin, Judith, The Formation of Christendom, Princeton, Princeton University Press, 1987.
- Hillgarth, J. N. (éd.), The Conversion of Western Europe, 350-750. Englewood Cliffs, Prentice Hall, 1969.
- Leguay, Jean-Pierre, L'Europe des Etats barbares (Ve-VIIIe siècle), Paris, Belin,
2003.
- Pohl, Walter, Die Volkerwanderung. Eroberung und Integration, Stuttgart-Berlin, Cologne, Kohlhammer, 2002.
- Pohl, Walter et Diesenberger, Maximilien (éd.), Integration und Herrschaft. Ethnische Identitaten und soziale Organisation im Frumittelalter, Vienne, Verlag der Wissenschaften, 2002.

سادسا: شارلمان والحضارة الكارولنجية

- Barbero, Alessandro, Carlo Magno. Un padre dell’Europa. Rome-Bari, Laterza, 2000
- Braunfels, Wolfgang (éd.), Karl der Grosse. Lebenswerk und Nachleben, Dusseldorf,
1965-1968, 5 vols.
- Ehlers, Joachim, Charlemagne l’Européen entre la France et l’Allemagne, Stuttgart, Thorbecke, 2001.
- Favier, Jean, Charlemagne. Paris, Fayard, 1999.
- Fichtenau, Heinrich, L’Empire carolingien. Paris, 1958.
- Intellectuels et Artistes dans l’Europe carolingienne, IXe-XIe siècle, Auxerre, Abbaye Saint-Germain, 1990.
- McKitterick, Rosamund, The Carolingians and the Written Word, Cambridge, Cambridge University Press, 1989.
- Morissey, Robert, L’Empereur a la barbe fleurie. Charlemagne dans la mythologie et l’histoire, Paris, Gallimard, 1997.
- Nelson, Janet L., "Charlemagne: Father of Europe?", Quaestiones Medii aevi novae, vol. 7, 2002, pp. 3-20.
- Pirenne, Henri, Mahomet et Charlemagne, Paris-Bruxelles, 1937.
- Riche, Pierre, Les Carolingiens. Une famille qui fit l’Europe, Paris, Hachette, 1983.
- Werner, Karl-Ferdinand, Karl der Grosse oder Charlemagne? Von der Aktualitat einer uberholten Fragestellung, Munich, Verlag der bayerischen Akademie der Wissenschaften, 1995.

سابعا: سنة ألف

- Bourin, Monique et Parisse, Michel, L’Europe de l’an Mil, Paris, Livre de Poche, 1999.
- Duby, Georges et Frugoni, Chiara, Mille e non piu Mille. Viaggio tra le paure di fine millennio, Milan, Rizzoli, 1999.
- Gerbert l’Européen (Actes du colloque d'Aurillac), Aurillac, Editions Gerbert, 1997.
- Gieysztor, Aleksander, L’Europe nouvelle autour de l’an Mil. La papauté, L’Empire et les "nouveaux venus", Rome, Unione internazionale degli Istituti di archeologia storia, e storia dell’arte, 1997.

- Guyotjeannin, Olivier et Poulle, Emmanuel (éd.), Autour de Gerbert d'Aurillac, le pape de l'An Mil, Paris, Ecole des Chartes, 1996.
- Riche, Pierre (éd.), L'Europe de l'An Mil. Saint-Leger-Vauban, Zodiaque, 2001.

ثامنا: نـهضة القرن الثاني عشر

- Benson, R. L. et Constable, Giles (éd.), Renaissance and Renewal in the Twelfth Century, Oxford, Clarendon Press, 1982.
- Haskins, C. H., The Renaissance of the Twelfth Century, Cambridge Harvard University Press, 1927.
- Le Goff, Jacques, "What Does the Twelfth Century Renaissance Mean?", in Linehan-Nelson, pp. 635–47.
- Moore, Robert Ian., The First European Revolution (c. 970–1215), Oxford, Blackwell, 2000.
- Ribemont, Bernard, La Renaissance du XIIe siècle et l'Encyclopédisme, Paris, Honoré
Champion, 2002.

تاسعا: القرن الثالث عشر

- Genicot, Léopold, Le XIIIe siècle européen. Paris, P.U.F., 1968.
- Le Goff, Jacques, L'Apogée de la chrétienté vers 1180-vres 1330, Paris, Bordas, 1982.
- Le Goff, Jacques, "Du ciel sur la terre: la mutation des valeurs du XIIe au XIIIe dans l'Occident médiéval", in Odysseus 1990 (en Russe), repris in "Quarto", Le Roi, le Saint, Paris, Gallimard, 2003.

عاشرا: القرنـان الرابع عشر والخامس عشر

- Abel, Wilhelm, Die Wustungen des ausgehenden Mittelalters, Stuttgart, 1955.
- Gauvard, Claude, "De grace especial" Crime, Etat et société en France à la fin du Moyen Age, Paris,Publications de la Sorbonne, 1991, 2 vol.
- Graus, Frantisek, Pest, Geiszler, Juenmorde. Das 14. Jahrhundert als Krisenzeit, Gottingen, Vandenhoeck & Ruprecht, 1988.

- Hilton, Rodney H., Bond Men Made Free: Medieval Peasant Movements and the English Rising of 1381,Londres, Methuen, 1973.
- Hilton, Rodney H. et Aston, T. H., The English Rising of 1381. Cambridge, Past and Present, 1984.
- Jordan, William Chester, The Great Famine: Northern Europe in the Early Fourteenth Century, Princeton, Princeton University Press, 1996.
- Leff, Gordon, The Dissolution of the Medieval Outloo, An Essay on Intellectual and Spiritual Change in the Fourteenth Century; New York, Harper and Row, 1976.
- Malowist, Marian, Croissance et répression en Europe, XIVe-XVIIe siècle, Paris, Armand Colin, 1972.
- Martines, Lauro (éd.), Violence and Civil Disorder in Italian Cities, 1200-1500. Berkeley–Los Angeles, University of California Press, 1972.
- Mollat, Michel et Wolff, Philippe, Ongles bleus, Jacques et Ciompi. Les révolutions populaires en Europe aux XIVe et XVe siècles, Paris, Calmann-Lévy, 1970.
- Stella, Alessandro, La Révolte des Ciompi. Les hommes, les lieux, le travail, Paris, HESS, 1993.
- Valdeon Baruque, Julio, Los conflictos sociales en el reino de Castilla en los siglos XIV y XV, Madrid, Siglo veintiuno, 1975.
- Villages désertés et Histoire économique, XIe-XVIIIe siècle, Paris, SEVPEN, 1965.
- Wolff, Philippe, Automne du Moyen Age ou Printemps des temps nouveaux? L'économie européenne aux XIVe et XVe siècles. Paris, Aubier, 1986.

حادي عشر: نشأة الدولة الحديثة

- Coulet, Noël et Genet, Jean-Pierre (éd.), L'Etat moderne: Territoire, droit, système poli- tique, Editions du CNRS, 1990.
- Culture et Ideologie dans la genèse de l'Etat moderne (Table ronde tenue à Rome en 1984), Ecole française de Rome, 1985.
- Genet, Jean-Pierre (éd.), L'Etat moderne. Genèse. Bilans et perspectives. Paris, Editions du CNRS, 1990.
- Guenee, Bernard, L'Occident aux XIVe et XVe siècles. Les Etats. Paris, PUF, 1971.

- Strayer, Joseph R., On the Medieval Origins of the Modern State, Princeton, Princeton University Press, 1970.
- Wilks, M. J., The Problem of Sovereignty in the Later Middle Ages, Cambridge,Cambridge University Press, 1963.

ثاني عشر: الإمبراطورية

- Ehlers, Joachim, DieEntstehungdes deutschen Reiches, Munich, Oldenbourg, 1994.
- Folz, Robert, L’Idée d’Empire en Occident du Ve au XIVe siècle, Paris, Aubier, 1972.
- Parisse, Michel, Allemagne et Empire au Moyen Age. Paris, Hachette, 2002.
- Rapp, Francis, Le Saint Empire romain germanique, d’Otton le Grand à Charles Quint, Paris,Tallendier, 2000.

ثالث عشر: الكنيسة والبابوية

- Congar, Yves, L’Ecclésiologie du Haut Moyen Age,Paris, 1968.
- Guerreau, Alain, Le Féodalisme, un horizon théorique, Paris, Le Sycomore, 1980, -
- Le Bras, Gabriel, Institutions ecclésiastiques de la chrétienté médiévale (section 12 de "Histoire générale de l’Eglise", Paris, Fliche et Martin.
- Lubac, Henri de, Corpus mysticum. L’Eucharistie et l’Eglise au Moyen Age, étude historique. Paris, 1944.
- Southern, Richard W., Western Society and the Church in the Middle Ages, Har- Mondsworth,Penguin, 1970.
- Barraclough, Geoffrey, The Medieval Papacy, Londres, Thames et Hudson, 1968.
- De Rosa, Gabriele et Cracco, Giorgio, Il Papato e l’Europa. Suveria Mannelli, Rubbetino Editore, 2001.
- Guillemain, Bernard, Les Papes d’Avignon, 1309-1376, Paris, Cerf, 1998.
- Miccoli, Giovanni, Chiesa gregoriana, Rome, Herder, 1999.
- Pacaut, Marcel, Histoire de la Papauté, Paris, Fayard, 1976.

- Paravicini Bagliani, Agostino, La Cour des papes au XIIIe siècle, Paris,Hachette, 1995.
- Paravicini Bagliani, Agostino, Il trono di Pietro. L'universalita del papato da Alessandro III a Bonifazio VIII, Rome, La Nuova Italia Scientifica, 1996.

رابع عشر: القصور والحصون

- Brown, A. R., English Castles, Londres, Batsford, 1976.
- Chateaux et peuplements en Europe occidentale du Xe au XVIIIe siècle, Auch, Centre culturel de l'abbaye de Flaran, 1980.
- Comba, Rinaldo and Settia, Aldo, Castelli, storia e archeologia, Turin, Turingraf, 1984.
- Debord, Andre, Aristocratie et pouvoir. Le rôle du chateau dans la France médiévale, Paris, Picard, 2000.
- Fournier, Gabriel, Le Chateau dans la France médiévale, Paris, Aubier-Montaigne, 1978.
- Gardelles, Jacques, Le Château féodal dans l'histoire médiévale, Strasbourg, Publitotal, 1988.
- Mesqui, Jean, Chateaux et enceintes de la France médiévale. de la défense à la residence, Paris, Picard, 1991-1993., 2 vol.

خامس عشر: الحرب والحروب الصليبية

- Contamine, Philippe, La Guerre au Moyen Age. Paris, P.U.F., 1980.
- Duby, Georges, Le Dimanche de Bouvines,Paris, Gallimard, 1973.
- Flori, Jean, La Guerre sainte. La formation de l'idée de croisade dans l'Occident chrétien. Paris, Aubier, 2001.
- Russell, F. H., The Just War in the Middle Ages, Cambridge, Cambridge University Press, 1975.
.
- Alphandery, Pierre et Dupront, Alphonse, La Chrétienté et l'idée de croisade, Paris, Albin Michel, 1954, 2 vol.

- Dupront, Alphonse, Du sacre, croisades et pèlerinages, images et langages. Paris, Gallimard, 1987.
- Flori, Jean, Les Croisades. Origines, réalisation, institutions, déviations. Paris, Jean-Paul Gisserot, 2001.
- Flori, Jean, Guerre sainte, Jihad, Croisade. Violence et religion dans le christianisme et l'islam. Paris, Seuil, 2002.
- Hillenbrand, Carole, The Crusades: Islamic Perspectives, Edinburgh, Edinburgh Univer sity Press, 1999.
- Kedar, Benjamin Z., Crusade and Mission, European Approaches toward the Muslims. Princeton, Princeton University Press, 1984.
- Lobrichon, Guy, 1099, Jérusalem conquise. Paris, Cerf, 1998.
- Riley-Smith, Jonathan, The Crusades. Londres, Athlone Press, 2001.
- Siberry, Elizabeth, Criticism of Crusading, 1095-1274, Oxford, Clarendon Press, 1985.

فهرس المحتويات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس